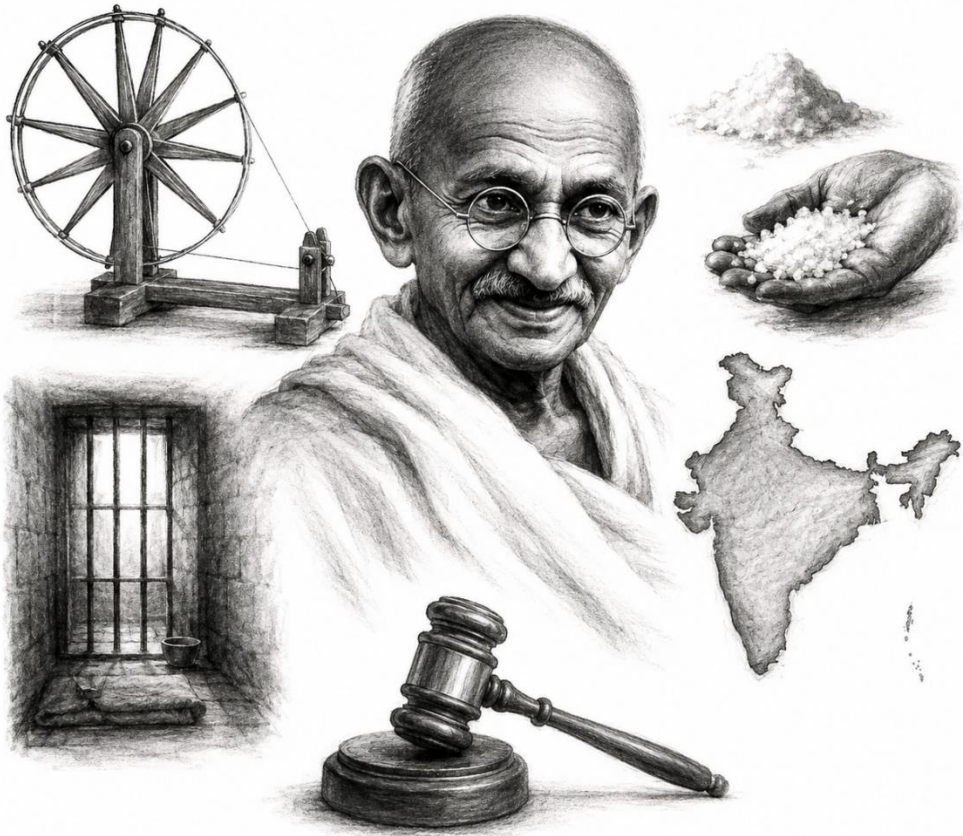


المعاني



رجل هزم إمبراطورية بلا سلاح²⁸

د. غفار محمد

المهاتما ..

الإهداء :

إلى أولئك الذين يُصغون للكلمات كما لو كانت نبوءات،
ويؤمنون أن في كل جملة مأوى، وفي كل قصة خلاص ..
إلى عشاق الأدب الذين يمنعون اللغة حياةً أخرى..
وإلى مشجعي الكُتّاب الذين يرون في العبر نورًا، لا حرفة
أكتب هذه الصفحات، لا لتُفهم... بل لتُحسَّ
أنتم النبض الذي يجعل للكلمة طنينًا أبعد من الورق،
وللحكاية عمرًا أطول من راويها ..

المهاتما ...

فصول الكتاب :

- شعاع نور في ظلام دلهي
- الهجرة إلى الذات
- الحياة تغلق باباً لتفتح نافذة
- قطار المصير
- ولادة فلسفة اللاعنف
- مغزل الحرية وملح الأرض
- مسيرة الكرامة
- سقوط الجسد ونهوض الفكرة

شعاع نور في

ظلام داہي

لا أعرف على وجه اليقين إن كان الموت يبدأ بصوت الرصاص...
أم بالصمت الذي يعقبه.

في تلك الأمسية، كانت الشمس تميل ببطء نحو المغيب، كما لو أنها
تُطيل النظر إلى الأرض للمرة الأخيرة. كانت السماء فوق دلهي تشبه
صفحة قديمة من كتاب أنهكه الزمن؛ ليست زرقاء تمامًا، ولا حمراء
تمامًا، بل مزيجًا من الألوان التي لا تظهر إلا عندما يكون النهار قد
تعب من حمل الضوء.

كنت أمشي بخطوات بطيئة. لم تكن قدماي تحملانني فحسب، بل
كانتا تحملان ثمانية وسبعين عامًا من الأسئلة. سنوات طويلة قضيتها
أبحث عن الإنسان أكثر مما بحثت عن النصر، وعن الحقيقة أكثر
مما بحثت عن السلطة.

كان الناس يحيطون بي من كل جانب. وجوه أعرفها... ووجوه لا
أعرفها. بعضهم كان ينظر إلي كما ينظر المؤمن إلى معبده. وبعضهم
كان يراني رجلًا عجوزًا أنهكه الصيام. وقليلون فقط كانوا يرون
الحقيقة.

لم أكن قديسًا. ولم أكن نبيًا. كنت إنسانًا حاول أن يهزم الكراهية دون
أن يحمل سكينًا.

أذكر أن نسيم المساء كان باردًا على غير عادة دلهي. رائحة التراب
بعد سقي الحدائق امتزجت بعطر الياسمين والتوابل.

الأطفال يركضون بين الأرجل. النساء يتهاמשن. الرجال يفسحون
الطريق.

أما أنا...

فكنت أفكر في شيء بعيد كل البعد عن السياسة. كنت أفكر في أمي.
لا أعرف لماذا حضرت صورتها في تلك اللحظة. ربما لأن الإنسان،
عندما يقترب من النهاية، يعود إلى البداية.

فالأنهار لا تنتهي في البحر... إنها تعود في هيئة غيوم إلى الجبال
التي وُلدت منها. وكذلك نحن. كلما اقتربنا من الموت، عدنا أطفالاً.
ثم...

سمعت خطوات سريعة.

لم ألتفت. ليس لأنني شجاع. بل لأنني تعبت من الخوف منذ زمن
بعيد. من يخش الموت يهرب منه. أما أنا... فكنت قد أمضيت عمري
كله أحاول أن أصادق الفناء.

جاء الرجل. انحنى. رفع يديه كأنه يريد تحيتي. وللحظة قصيرة،
رأيت في عينيه شيئاً لم أستطع تفسيره. لم يكن غضباً. ولم يكن حقداً.
كان يقيناً. واليقين... أخطر من الكراهية. فالكراهية قد تتراجع. أما
اليقين فلا يعرف طريقاً إلى الوراء.

دوى الصوت الأول. لم يكن يشبه ما تخيلته يوماً. الكتب تكذب عندما
تصف الرصاص. إنه ليس انفجاراً... بل كسرٌ مفاجئ في نظام
الكون. كأن الزمن نفسه تعثر وسقط.

ثم جاءت الثانية.

ثم الثالثة.

ثلاث رصاصات.

ثلاث كلمات كتبها رجل بالنار بدل الحبر.

شعرت بالدفء ينتشر في صدري. وليس بالألم. هذا ما أدهشني.

الألم تأخر. أما الدفء... فكان أول الزائرين.

بدأ العالم يتحرك ببطء شديد. الوجوه تبتعد. الأصوات تغرق في
الماء. السماء تنخفض نحوي. والأرض ترتفع لتستقبلني.

رأيت ذرات الغبار معلقة في الهواء، وكأن الزمن منحها فرصة
أخيرة كي تتأمل الحياة.

كم كان العالم جميلاً... وجميلاً على نحو لا يراه إلا من أوشك أن يفقده.

أدركت آنذاك حقيقة غريبة. لسنا نعشق الحياة لأنها كاملة. بل لأنها ناقصة. ولو كانت كاملة لما تمنينا يوماً أن نعيشها.

سمعت صرخات بعيدة. ركض الناس. اختلط البكاء بالدعاء.

شعرت بأن يدي أصبحت خفيفة جداً. كأنها لم تعد تخصني. كل شيء صار يتلاشى... إلا الذاكرة. الذاكرة وحدها بقيت يقظة. لكنها لم تعرض أمامي حياتي كما يقول الناس. لم تمر السنوات كلها أمام عيني. لم أرَ السجون. ولا المسيرات. ولا الجموع التي هتفت باسمي. ولا الإمبراطورية التي ظن العالم أنها لا تُقهر. كل ذلك اختفى.

وبقي شيء واحد فقط.

طفل صغير... يركض حافي القدمين في زقاق ضيق، يلاحق ظلّه قبل أن يبتلعه الغروب. هناك... فهمت. التاريخ كاذب. إنه لا يتذكر الإنسان. بل يتذكر انتصاراته وهزائمه. أما القلب... فيتذكر أشياء لا يراها المؤرخون. يتذكر يد الأم حين تمسح العرق عن جبين طفلها. يتذكر رائحة الخبز. يتذكر خوف الليلة الأولى. يتذكر دمعة الأب التي لم يرها أحد. كل ما صنعني لم يكن مكتوباً في كتب التاريخ. بل كان مختبئاً في تفاصيل صغيرة، مرّ بها الناس كما يمرون بجانب زهرة برية دون أن ينظروا إليها.

لذلك...

إذا كنتم تريدون أن تعرفوا من أكون...

فلا تسألوا السياسيين. ولا الجنرالات. ولا القضاة. ولا حتى الذين ساروا خلفي آلاف الأميال.

اسألوا ذلك الطفل. ذلك الصبي الذي كان يخاف الظلام أكثر مما يخاف البشر. ذلك الفتى الذي كان يرتجف إذا كذب. ذلك الابن الذي

كان يظن أن العالم ينتهي عند أبواب مدينته الصغيرة.
هناك فقط... تبدأ حكايتي. وليس هنا... حيث انتهت.
دعوني أعود. لا إلى سنوات المجد. بل إلى الأيام التي لم يكن أحد
يعرف اسمي فيها. إلى مدينة صغيرة على شاطئ بحر العرب...
حيث كان الموح يهمس بحكايات لا يفهمها إلا الأطفال.
هناك...

وُلد موهنداس.

أما "غاندي" الذي عرفه العالم...

فلم يولد بعد.

لو سألني أحدهم اليوم: أين بدأت رحلتي؟

لما أشرت إلى السجن... ولا إلى قاعات المحاكم... ولا إلى الساحات
التي احتشد فيها مئات الآلاف. بل لأشرت إلى بقعة صغيرة على
الساحل الغربي للهند، مدينة قد لا يعثر عليها كثيرون على خرائط
العالم، لكنها كانت بالنسبة إليّ الكون كله. كانت تُدعى... بوربندر.
كل إنسان يولد مرتين. مرة حين تخرجه أمه إلى الدنيا. ومرة حين
تخرج الدنيا إليه.

أما أنا، فقد تأخرت ولادتي الثانية سنوات طويلة.

في البداية، لم أكن أعرف من العالم سوى بوربندر. كنت أظن أن
البحر الذي يعانقها هو نهاية الأرض، وأن الشمس لا تغيب إلا لتنام
في مياهه. كان الطفل الذي يسكن داخلي يعتقد أن المدن الأخرى
ليست إلا حكايات يرويها البحارة للعابرين.

كانت بوربندر تستيقظ قبل الناس. كنت أشعر بذلك حتى وأنا طفل.
فالموج كان أول من يفتح عينيه كل صباح. يضرب الصخور في

هدوء الحكيم، ثم يتراجع، وكأنه يعتذر لأنه أيقظ المدينة. وكانت
الريح تحمل معها رائحة لا تشبه شيئاً آخر. رائحة ملح... ورطوبة...
وأخشاب سفن شاخت وهي تعبر البحار.

كنت أستنشقها كما يستنشق الطفل حزن أمه. ولم أكن أعلم أن تلك
الرائحة ستبقى تسكنني حتى آخر يوم من حياتي. فالإنسان قد يغادر
وطنه... لكنه لا يستطيع أن يغادر الروائح التي كوّنت ذاكرته.

كل مدينة تشبه أهلها. لكن بوربندر كانت تشبه البحر. هادئة من
بعيد... وصاخبة في أعماقها.

في الصباح، كانت الأسواق تنفتح مثل زهرة كبيرة. أصوات الباعة
تتداخل مع صهيل الخيول. الأقمشة الملونة تتراقص فوق الدكاكين
كأنها أعلام لممالك لا يعرفها أحد. عبق التوابل يملأ الهواء. رائحة
الهيل. والقرنفل. والفلفل الأسود. والكركم. حتى إن الهواء نفسه كان
يبدو وكأنه طعام يمكن للمرء أن يتذوقه.

وكانت النساء يعبرن الأزقة بأثواب زاهية، يحملن الجرار فوق
رؤوسهن بثبات يحسدهن عليه الملوك.

أما نحن الأطفال... فكنا نركض بين الأرجل كما تركض العصافير
بين أغصان الأشجار. لا نفكر في الغد. ولا نخشى الأمس. فالطفولة
هي الوطن الوحيد الذي لا يعرف الزمن.

بيتنا كان منزلنا متواضعاً. لم يكن قصرًا. لكنه كان أوسع من كل
القصور التي رأيتها فيما بعد. ليس في الجدران... بل في القلوب.
الجدران يمكن أن تُبنى بالحجارة. أما البيوت... فتُبنى بالرحمة.

كنت أراقب والدي طويلاً. كان قليل الكلام. وكان صمته يملأ المكان
أكثر مما تملؤه كلمات الآخرين. هناك رجال إذا تحدثوا أصغى الناس
إلى أصواتهم. أما أبي... فكان الناس يصغون إلى سكوته. كان يشبه
شجرة قديمة. لا تتحرك كثيرًا. لكن الجميع يستظل بها. ولم أفهم
قيمته إلا بعدما كبرت. فالطفل يرى أباه جبلاً. ولا يدرك أن الجبال

تتعب هي الأخرى.

أما أمي... فلا أذكرها إلا ويحيط بها نور. ولست أعني نورًا تراه العين. بل نورًا كانت تشعر به الروح. كانت تؤمن أن الصلاة ليست كلمات تُقال. بل طريقة يُعاش بها النهار. كانت تستطيع أن تحوّل الأعمال الصغيرة إلى عبادات. إعداد الطعام. العناية بالفقراء. زيارة المرضى. كل ذلك كان عندها صلاة لا تحتاج إلى معبد.

كنت أراقبها وهي تصوم أيامًا طويلة. ولم أكن أفهم كيف تستطيع امرأة بهذا الجسد النحيل أن تحمل كل هذا الإيمان. لاحقًا... أدركت أن الجسد لا يحمل الروح. بل الروح هي التي تحمل الجسد.

في منزلنا، لم تكن الأديان تتصارع. بل كانت تتحاور. كان الزائرون يأتون من معتقدات مختلفة. يجلسون على الأرض نفسها. يشربون من الماء نفسه. ويتحدثون عن الله بأسماء متعددة.

وكنت أجلس في زاوية المجلس، أراقب وجوههم أكثر مما أسمع كلماتهم. هناك تعلمت درسًا لم أجده في أي كتاب. أن الحقيقة لا تصرخ. وأن أكثر الناس يقينًا هم أقلهم حاجة إلى رفع أصواتهم.

كلما كبرت، ازددت اقتناعًا بأن الله لا ينقسم كما ينقسم البشر. نحن الذين نبني الجدران... ثم نطلب من السماء أن تعترف بها.

كنت أخرج إلى البحر كثيرًا. أجلس على الصخور ساعات طويلة. لا لأنني كنت أفهم البحر. بل لأنه كان يفهمني. كان الموج يعلمني درسًا دون أن ينطق. يضرب الصخرة ألف مرة. ولا يغضب إذا لم تنكسر. ثم يعود في اليوم التالي. وفي الذي يليه. وفي الذي بعده.

هناك فقط... فهمت أن القوة ليست في الضربة. بل في الاستمرار. ربما لهذا السبب، حين واجهت فيما بعد أعظم إمبراطورية عرفها زمني، لم أفكر يومًا في أن أكون المطرقة. بل حاولت أن أكون

الموج.

اليوم، بعد أن مضت عقود طويلة، أدرك أن الإنسان لا يصنعه الحدث العظيم. بل تصنعه التفاصيل التي يظنها الجميع عادية.

زقاق ضيق.

نافذة تطل على البحر.

ابتسامة أم.

صمت أب.

دعاء قبل النوم.

هذه الأشياء الصغيرة هي التي تبني الأرواح.

أما الشهرة...

فليست إلا الثوب الذي ترتديه الروح بعد أن تكتمل.

ولو قُدر لي أن أعود إلى بوربندر طفلاً ليوم واحد، لما سألتها أن تجعلني قائداً، ولا خطيباً، ولا رمزاً. لكنك سأطلب منها شيئاً واحداً... أن تتركني أجلس مرة أخرى على ذلك الشاطئ، أستمع إلى البحر وهو يهمس لي بما لم أكن أفهمه آنذاك... لأنني الآن فقط، وأنا أقف على حافة النهاية، أدرك أن أول معلم في حياتي لم يكن إنساناً... بل كان البحر.

أعترف لكم بشيء قد يثير دهشة من اعتادوا أن يضعوا صورتي في الكتب، أو يعلقوها على جدران المدارس.

لم أولد شجاعاً. بل كنت طفلاً يخاف أشياء كثيرة. أخاف الظلام... وأخاف اللصوص... وأخاف الأشباح التي كان الكبار يذكرونها في أحاديثهم العابرة، ثم ينسونها، بينما كانت تبقى ساهرة في خيالي حتى الفجر. ولسنوات طويلة، كنت أعتقد أن الليل مخلوق حي. لا يأتي

ليغطي الأرض فحسب... بل ليبتلعها. كانت شمس بوربندر تغيب
ببطء، وكأنها تخشى هي الأخرى الدخول في ذلك السواد العظيم.
ومع أول خيط من العتمة، كانت المدينة تتغير. الأصوات تخفت.
الدكاكين تُغلق أبوابها الخشبية. المصابيح الزيتية تشتعل داخل البيوت
مثل نجوم صغيرة تقاوم محيطاً من الظلام.
وكان قلبي... يبدأ بالخفقان.



لم يكن في الظلام ما يؤذيني. لكن الخيال لا يحتاج إلى حقيقة حتى
يخيف الإنسان. العقل يبني المخاوف بالحجارة. أما الخيال... فيبنيها
بالدخان. ولهذا يصعب هدمها.
كنت إذا اضطررت إلى عبور غرفة مظلمة، ركضت بكل ما أوتيت

من قوة، وكأن شيئاً يطاردني. وحين أصل إلى الضوء، ألتفت خلفي.
فلا أجد أحداً. لكنني، بدل أن أضحك على نفسي، كنت أقول:

"لقد نجوت هذه المرة."

كم يملك الطفل من قدرة على تصديق أوهامه. وكم يملك الكبار من
قدرة على إخفاء أوهامهم.

بعد سنوات طويلة، اكتشفت أننا لا نتخلص من مخاوف الطفولة. بل
نغير أسماءها فقط.

فالطفل يخاف الظلام...

والرجل يخاف الفشل.

والشيخ يخاف الوحدة.

لكن الخوف... هو الخوف.

كانت أمي تلاحظ ذلك. لم تكن تسخر مني. ولم تقل يوماً إن الرجال
لا يخافون. كانت تعرف أن السخرية لا تطرد الخوف. بل تدفعه إلى
الاختباء في أعماق القلب. وكانت، كلما اقترب الليل، تجلس بجواري.
تضع يدها على رأسي. وتروي لي قصصاً عن رجال واجهوا الشر
بالإيمان، لا بالسيوف. كانت تتحدث عن الله كما لو كان فرداً من
العائلة. قريباً... ودافئاً... وحاضراً في كل زاوية من البيت.

كانت تقول لي:

"يا موهان، عندما يمتلئ القلب بالنور، لا يجد الظلام مكاناً ليسكن
فيه."

لم أفهم كلماتها آنذاك. لكنها بقيت تنمو داخلي كما تنمو البذور تحت
التراب.

في إحدى الليالي، انطفأ المصباح فجأة. ابتلع الظلام الغرفة دفعة
واحدة. تجمدت في مكاني. كنت أسمع صوت أنفاسي أكثر مما أسمع

العالم. بدأ خيالي يرسم الوجوه على الجدران. ويحول الستائر إلى أشباح. ويجعل صوت الريح همسًا لكائنات لا تُرى.

ناديت أمي. فجاءت بهدوء. لم تشعل المصباح مباشرة. أمسكت يدي أولاً. ثم قالت:

"أغض عينيك."

أغمضتهما. قالت:

"هل ترى الظلام الآن؟"

قلت:

"لا."

ابتسمت. وقالت:

"إذن، ليس الظلام في الغرفة يا بني... بل في العين التي تنظر إليه."

مرت سنوات كثيرة قبل أن أفهم عمق تلك الجملة.

كبرت قليلاً. وبدأت أكتشف أن الخوف لا يعيش خارج الإنسان.

بل داخله.

الأسد لا يخيف الجميع.

والبحر لا يرعب الجميع.

والحرب لا تكسر الجميع.

لكل إنسان ظلامه الخاص.

ومن يظن أن الشجاعة هي غياب الخوف... لم يعرف الشجاعة

بعد. الشجاعة ليست أن تمشي في طريق آمن. بل أن تمشي في

طريق ترتجف فيه قدماك... ثم تكمل السير.

لقد ظن الناس لاحقًا أنني لم أخف من السجون. لكن الحقيقة أنني

كنت أخاف. وظنوا أنني لم أخش الرصاص. لكنني كنت أعرف معناه. غير أنني تعلمت، منذ تلك الليالي البعيدة، أن الإنسان إذا جعل خوفه قائداً له، فلن يصل إلى أي مكان.

كنت كثيرًا ما أنظر إلى النجوم. وأتساءل:

لماذا لا تخاف هي من هذا البحر الواسع من الظلام؟

كانت تبدو صغيرة جدًا. ومع ذلك... كانت تكفي لتقول للسماء كلها إن الليل ليس سيدًا مطلقًا.

ربما لهذا السبب أحببت النور. ليس لأنه أقوى من الظلام. بل لأنه لا يحتاج إلى أن يهزمه. يكفي أن يظهر.

إن شمعة واحدة لا تدخل معركة مع الليل. إنها تشتعل فقط... فيتراجع الليل من تلقاء نفسه.

هذه الحقيقة البسيطة أصبحت، فيما بعد، أساس حياتي كلها.

كنت أو من أن الخير لا ينتصر لأنه أعنف. بل لأنه أكثر قدرة على البقاء.

واليوم ... بعد أن رأيت الحروب، والسجون، والكراهية، والإمبراطوريات، أدرك أن أكبر معركة خضتها لم تكن مع الإنجليز. بل مع ذلك الطفل الذي كان يرتجف إذا انطفأ المصباح. لولا أنني تصالحت معه... لما استطعت أن أواجه العالم. فالإنسان لا يصبح عظيمًا عندما يهزم الآخرين. بل عندما يهزم السجن الذي بناه الخوف داخل قلبه.

وأحيانًا... أفكر أن الله لم يخلقني خائفًا عبثًا. ربما أرادني أن أفهم شيئًا لم يفهمه كثيرون... أن السلام ليس اختراع الشجعان. بل هو الانتصار الأخير لأولئك الذين عرفوا الخوف... ورفضوا أن يجعلوه يحكم حياتهم.

أكثر ما يخدع الناس في الذاكرة أنها لا تحفظ أعظم الأحداث... بل تحفظ أكثرها وجعًا. ليست السنوات هي التي تبقى في الإنسان. بل اللحظات. لحظة واحدة قد تعيش في القلب أطول من عمر كامل، كما تعيش الشظية الصغيرة في الجسد سنواتٍ دون أن يراها أحد.

وحين أعود بذاكرتي إلى طفولتي، لا أتذكر أول لعبة امتلكتها، ولا أول ثوب ارتديته، ولا أول عيد احتفلت به. أتذكر... أول مرة شعرت فيها بأنني خنت نفسي. كان الإنسان في داخلي لا يزال صغيرًا. لكن الفضول يكبر أسرع من الأطفال. وربما لهذا السبب خلق الله الفضول؛ لأنه الباب الذي يدخل منه العلم... وتدخل منه الخطيئة أيضًا.

تعرفت إلى فتى أكبر مني قليلًا. كان يمتلك تلك الجراءة التي تُغري الصغار. يتحدث بثقة. يمشي وكأن الشوارع خلقت من أجله. ويضحك من القوانين كما يضحك الصياد من الفخاخ التي ينصبها للطيور.

كنت أراه شجاعًا. ولم أكن أدرك أن التهور كثيرًا ما يرتدي قناع الشجاعة.

قال لي يومًا:

"أتريد أن تصبح قويًا؟"

أجبتُه دون تردد:

"نعم."

فضحك. وقال:

"إذن عليك أن تفعل ما يفعله الرجال."

كم هو سهل أن يخدع الإنسان طفلًا بكلمة واحدة...

"الرجولة."

بدأ يحدثني عن أكل اللحم. قال إن الإنجليز لم يصبحوا سادة الهند إلا لأنهم يأكلون اللحم. وقال إن الهنود بقوا ضعفاء لأنهم يكتفون بالخضار والحليب. كان يتحدث وكأنه يملك مفاتيح العالم. أما أنا... فكنت أملك قلبًا صغيرًا يبحث عن بطل يقلده.

لم يكن اللحم هو القضية. بل الوهم الذي باعه لي. وهم أن القوة تأتي من الفم... لا من الضمير.

ذهبت معه. كنت أنظر حولي في كل خطوة، كأن الأشجار نفسها ستشهد عليّ. جلسنا بعيدًا عن الناس. ووضعت الطعام أمامي. ظللت أحرق فيه طويلاً.

لم أر قطعة لحم.

رأيت وجه أمي.

تذكرت يديها وهما تضعان الطعام أمامنا كل مساء. تذكرت صلاتها. وصيامها. ووعدتي الصامت لها.

لكن صوت الضمير كان خافتًا. أما صوت الرغبة في إثبات نفسي... فكان أعلى.

أكلت. ولم يتغير العالم. لم أصبح أقوى. لم أشعر أن عضلاتي نمت فجأة. لكن شيئًا آخر تغير. شعرت أن قطعة من روحي أصبحت أثقل.

حين عدت إلى المنزل، استقبلتني أمي بابتسامتها المعتادة. سألتني إن كنت جائعًا. كذبت. قلت إنني تناولت الطعام عند أحد الأصدقاء. كانت تلك أول كذبة كبيرة أقولها لمن أحب. ولم تكن الكلمة هي التي ألمتني. بل السهولة التي خرجت بها من فمي. الكذب يشبه قطرة الحبر في كأس ماء. قد تبدو صغيرة... لكنها تغير لون كل شيء.

في تلك الليلة... لم أستطع النوم. كنت أسمع دقائق الساعة وكأنها مطرقة تضرب صدري. كل صوت في البيت كان يبدو اتهامًا. كل خطوة يخطوها أبي في الممر كانت تجعلني أظن أنه اكتشف أمرى.

كنت أغمض عيني... فأرى الكذبة. وأفتحهما... فأراها أيضًا.
حينها فهمت شيئًا لم أكن أعرفه. ليس الضمير قاضيًا يجلس في المحكمة. إنه طفل صغير يسكن القلب. وكلما كذبنا عليه... بكى.
مرّت أيام. ثم أسابيع. لكن الذنب لم يغادرني. بل صار يكبر معي.
كنت أتعجب كيف تستطيع ذكرى صغيرة أن تثقل الروح إلى هذا الحد. حينها أدركت أن الخطايا لا تُقاس بحجم الفعل. بل بحجم الصدع الذي تتركه داخل الإنسان. قد يسرق رجل مدينة بأكملها وينام مرتاحًا. وقد يكذب طفل على أمه... فيظل مستيقظًا ليالي طويلة.
إن العقوبة الحقيقية لا تأتي من الناس. بل من النفس حين تتوقف عن احترام صاحبها.

لم تكن تلك آخر أخطائي في الحياة. بل كانت أول معلمي. تعلمت منها أن الشر لا يبدأ بجريمة عظيمة. إنه يبدأ بجملة صغيرة يقولها الإنسان لنفسه:

"لن يحدث شيء."

كل الكوارث تبدأ بهذه الجملة. وكل الانهيارات الكبرى تنبت من شرخ لا يكاد يُرى.

بعد أعوام، حين وقفت أمام قضاة الإنجليز، وحين دخلت السجون، وحين واجهت إمبراطورية كاملة، ظن الناس أنني تعلمت الشجاعة هناك. لكنهم لم يعرفوا أن أول معركة خضتها لم تكن مع جيش... بل مع كذبة. وأن أول انتصار في حياتي لم يكن على خصم... بل على نفسي. فالإنسان لا يصبح حرًا عندما يكسر قيوده. بل عندما يعجز الكذب عن العيش في قلبه.

ومنذ ذلك اليوم، بدأت أفهم أن الحقيقة ليست فضيلة يتزين بها الإنسان أمام الآخرين... بل وطن. وكل كذبة، مهما صغرت، ليست إلا خطوة

يبتعد بها المرء عن ذلك الوطن.

أحيانًا، حين أجلس وحيدًا وأتأمل الطريق الطويل الذي قطعتة، يخيل إليّ أن حياتي لم تكن نهرًا يسير إلى البحر، بل كانت سلسلة من الأبواب. كلما عبرت بابًا، وجدت بابًا آخر ينتظرنني. غير أن أغرب تلك الأبواب جميعًا... كان باب الزواج. دخلته وأنا طفل. ولم أكن أعرف أنني دخلته.

كان عمري ثلاثة عشر عامًا.

ثلاثة عشر ربيعًا فقط.

العمر الذي يرى فيه الطفل العالم ملعبًا كبيرًا، لا مسؤولية فيه سوى أن يعود إلى بيته قبل أن تغيب الشمس. كنت لا أزال أتعثر في ركضي. وأضحك من أشياء لا تضحك أحدًا. وأبكي من أشياء يراها الكبار تافهة. كنت أظن أن الحياة تبدأ عند باب المنزل، وتنتهي عند شاطئ البحر. ولم يكن في خيالي مكان لشيء اسمه الزواج. فالطفولة لا تعرف المستقبل... إنها تعيش الحاضر كما تعيش الزهرة ربيعها، دون أن تسأل متى يأتي الخريف.

في صباح من تلك الأيام، بدأ البيت يتغير. كأن الأرواح التي تسكن جدرانه استيقظت كلها دفعة واحدة. ازدانت الأبواب بأغصان المانجو والزهور. وامتلات الغرف بروائح الهيل والزعفران وخشب الصندل. كانت النساء يطرزن الثياب وهن يغنين أغاني قديمة، ورتننها عن أمهاتهن، اللواتي ورتننها بدورهن عن الجدات. أما الرجال... فكانوا يتحدثون عن النسب، والشرف، والعائلتين، والمستقبل. ولم يكن أحد يتحدث عن الطفل الذي سيصبح عريسًا.

كنت أمر بينهم كما يمر عصفور صغير وسط غابة من الأشجار. يراني الجميع... لكن أحدًا لا يسألني ماذا أرى. لم أفهم لماذا كانوا

يقيسون ثيابي، ويزينون رأسي، ويطلبون مني أن أجلس في أماكن محددة، وأبتسم لأناس لا أعرف أسماءهم.

كنت أطيع. فالطفل يظن أن الكبار يعرفون دائماً ما يفعلون. ثم يكبر... ويكتشف أنهم كانوا، مثل الأطفال، يخافون الطريق، لكنهم كانوا يجيدون إخفاء خوفهم.

حين أخبروني أنني سأتزوج، لم أفهم معنى الكلمة. عرفت أنها احتفال. وأن الناس سيفرحون. وأني سأرتدي ثياباً جميلة. هذا كل ما أدركته.

أما الزواج نفسه... فكان كلمة أكبر من سنوات عمري. إن الكلمات، كالأثواب، لا يناسب بعضها كل الأعمار.

ثم رأيتها.

كانت في مثل عمري تقريباً. تقف بهدوء، وعيناها معلقتان بالأرض، كأنها تخشى أن تنظر إلى هذا العالم الجديد الذي أُلقيت فيه فجأة.

كانت خجولة... لكنني كنت أكثر خجلاً منها.

لم نتبادل حديثاً. ولم نتبادل وعوداً. ولم ينبض قلبانا بتلك الصورة التي يرسمها الشعراء.

كنا طفلين... أخذتهما الحياة من ألعابهما، وأجلستهما جنباً إلى جنب، ثم قالت لهما:

"من اليوم... أنتما زوجان."

واليوم، كلما تذكرت تلك اللحظة، لا أشعر بالأسى. بل أشعر بالحنين إلى براءة طفلين لم يفهما شيئاً، ومع ذلك دخلا رحلة ستغير حياتهما كلها.

كانت كاستوربا تشبه النهر الهادئ. لا يلفت الأنظار بصخبه... بل بقدرته على الاستمرار. أما أنا... فكانت أشبه الريح. أندفع قبل أن

أفكر. وأغضب قبل أن أفهم. وأريد أن تكون كلمتي هي الأخيرة.
كنت أظن أن الزوجة ينبغي أن تدور في فلك زوجها، كما يدور القمر
حول الأرض. ولم يخطر ببالي أن الأرض نفسها تدور أيضاً.
كان غروري صغيراً... لكنه كان حقيقياً. ولعل أخطر أنواع الغرور
هو ذلك الذي يولد مع الإنسان حتى يظنه جزءاً من طبيعته.
أذكر أنني كنت أغار عليها غيراً شديدة. أغار إذا تحدثت إلى قريباتها
طويلاً. وأغار إذا انشغلت عني. وأغار أحياناً دون سبب.
كنت أسمى ذلك حباً. لكن الزمن معلم لا يرحم. لقد علمني أن الغيرة
ليست حباً. إنها خوف. والحب الذي يولد من الخوف، يتحول مع
الأيام إلى قيد.
أما الحب الحقيقي...

فهو أن تمنح من تحب مساحةً يتنفس فيها، لا أن تضيق عليه باسم
العاطفة.

لم أتعلم هذا الدرس في كتاب. بل تعلمته من أخطائي.
كانت كاستوربا صامته أكثر مما تتكلم. لكن لصمتها لغة لم أفهمها
إلا بعد سنوات. كانت ترد على غضبي بالسكينة. وعلى اندفاعي
بالصبر. وعلى عنادي بابتسامة صغيرة، كأنها تقول لي إن الزمن
سيشرح لي ما عجزت الكلمات عن شرحه.
وصدق الزمن.

لقد شرح كل شيء.

أدركت فيما بعد أن الإنسان لا يحتاج دائماً إلى من يعلمه كيف يتكلم.
بل يحتاج، أحياناً، إلى من يعلمه كيف يصغي. وكانت كاستوربا أول
من علمني الإصغاء... دون أن تقصد.

اليوم، حين ينظر الناس إلى حياتي، يرون المسيرات، والسجون،

والخطب، والسياسة. أما أنا... فأرى طفلاً يرتدي ثوب عرس أثقل من كتفيه. وأرى طفلة تجلس إلى جواره، لا تعرف إلى أين تمضي بها الأيام. ومن هذين الطفلين... بدأت رحلة رجل سيقضي عمره كله يتعلم معنى كلمة واحدة...

المحبة.

ولعل أعظم مفارقات الحياة أنني دخلت الزواج قبل أن أعرف الحب... لكنني لم أعرف الحب حقاً، إلا بعد سنوات طويلة من الزواج.

هناك ليالٍ تمر على الإنسان كما تمر الغيوم...

وهناك ليالٍ لا تنتهي أبداً.

قد ينقضي الليل، ويطلع الصباح، وتتعاقب الفصول، ويشيب الشعر، لكن تلك الليلة تبقى معلقة في مكان ما داخل الروح، لا يمحوها الزمن، ولا يخففها النسيان.

ومن بين كل ليالي حياتي... لم تكن ليلة السجن هي الأقسى. ولا ليلة الرصاص. ولا ليلة تقسيم الهند. بل كانت ليلة مات فيها أبي... بينما كنت أنا غائباً عنه، حاضراً مع نفسي.

كان أبي قد أنهكه المرض. الرجل الذي بدا لي طوال طفولتي جبلاً لا تهزه الرياح، صار جسده يوماً بعد يوم يشبه شجرة عجوز تتخلى عنها أوراقها بصمت. لم يكن يشتكي كثيراً. كان الألم يجلس في عينيه أكثر مما يجلس على لسانه. حتى مرضه كان نبيلاً. يتألم... وكأنه يعتذر لمن حوله لأنه أتعبهم معه.

كنت أجلس عند قدميه ساعات طويلة. أدلك ساقيه. وأبدل الضمادات. وأراقب وجهه وهو يقاوم الوجع بصبرٍ جعلني أفهم، لأول مرة، أن

الشجاعة لا تكون دائماً في ساحة القتال.

أحياناً... تكون الشجاعة أن تتحمل الألم دون أن تسرقه من قلوب من تحب.

كان الليل قد انتصف. هداً البيت. لم يعد يُسمع إلا صوت أنفاس أبي المتعبة، واحتكاك الريح بالنوافذ الخشبية.

جلست إلى جواره. كانت عيناه مغمضتين. وظننت أنه نام.

اقترب مني أحد أفراد العائلة وقال لي:

"اذهب لترتاح قليلاً... سنبقى بجانبه."

كنت متعباً. وصغيراً. وأقنعت نفسي أن دقائق قليلة لن تغيّر شيئاً.

كم من المآسي بدأت بهذه الجملة...

"لن يحدث شيء."

غادرت الغرفة. لكنني لم أذهب إلى النوم. ذهبت إلى فراش زوجتي. كنت ما أزال شاباً، تغلبنى شهوات الشباب، وأظن أن الغد ينتظر الجميع. نسيت أن الموت لا يطرق الباب قبل أن يدخل.

وفي تلك اللحظات التي استسلمت فيها لرغباتي وانشغلت عن أبي... كان يودع الدنيا.

لم يمض وقت طويل حتى سُمعت خطوات مسرعة. ثم طرق عنيف على الباب. ثم صوتٌ مضطرب:

"موهان... تعال بسرعة."

ركضت. ولا أدري كيف قطعت الممر. دخلت الغرفة. كان كل شيء ساكناً. سكونٌ لم أعرفه من قبل. ذلك السكون الذي لا تصنعه الراحة... بل تصنعه النهاية. نظرت إلى وجه أبي. كان هادئاً على نحوٍ مؤلم. كأن المرض الذي عجز عن منحه النوم، منحه الموت أخيراً.

اقتربت. أمسكت يده. كانت باردة. ولأول مرة في حياتي... شعرت
أن البرودة قد تصيب القلب.

لم أبك في البداية. الصدمة كانت أكبر من الدموع.
وقفت أنظر إليه. ثم نظرت نحو غرفتي التي سرقتني من أبي.
وتساءلت سؤالاً ظل يلاحقني سنوات:

"ماذا لو بقيت؟"

يا لها من كلمة قاسية...

"لو."

إنها الكلمة الوحيدة التي لا تستطيع تغيير الماضي، لكنها تستطيع
تعذيب المستقبل كله.

كنت أرددها كل ليلة. لو بقيت إلى جواره... لو أمسكت يده لحظة
موته... لو ودعته...

لو...

لكن الحياة لا تعرف كلمة "لو".

إنها تمضي، وتتركنا نحملها فوق ظهورنا كما يحمل المسافر حقيبة
لا يستطيع إنزالها.

لم يكن حزني على أبي وحده. بل كان على نفسي أيضاً. شعرت أنني
خنت رجلاً لم يبخل عليّ يوماً بحنانه وصبره. ورغم أن أحداً لم
يلمني... ورغم أن الجميع قالوا إن ما حدث قضاء الله... بقيت أنا
قاضي نفسي. وكان حكمي أشد من أحكام الناس جميعاً.

يومها تعلمت درساً لن أنساه: ليس كل ذنب يعاقب عليه القانون. هناك
ذنوب يعاقب عليها الضمير وحده. وعقوبة الضمير... قد تمتد عمراً
كاملاً.

بعد سنوات طويلة، فهمت أن الله لم يترك تلك الليلة في حياتي عبثاً.

لقد كانت جرحًا... لكنه كان الجرح الذي أيقظني. فمنذ ذلك اليوم، بدأت أراقب رغباتي أكثر. وأتساءل قبل كل قرار:

هل أخدم نفسي...

أم أخدم ما هو أكبر مني؟

ولعل كثيرًا من الناس تعجبوا فيما بعد من قدرتي على الصيام، وعلى ضبط النفس، وعلى مقاومة الشهوات. لكنهم لم يعرفوا أن جذور ذلك كله كانت مغروسة في تلك الليلة. لقد علمني موت أبي أن الإنسان قد يخسر لحظة واحدة... فتبقى تلك اللحظة تعلمه بقية حياته.

واليوم...

كلما تذكرت وجه أبي، لا أتذكر مرضه. ولا أتذكر موته. أتذكر صمته. ذلك الصمت الذي كان أبلغ من آلاف الكلمات. وأدرك أن الآباء لا يرحلون حين تتوقف قلوبهم. إنهم يواصلون الحياة داخل أبنائهم. في طريقة الكلام. وفي طريقة النظر إلى الناس. وفي القرارات التي نتخذها عندما لا يكونون معنا.

أما أنا...

فقد حملت أبي معي في كل طريق سلكته. وكان كل انتصار حققته بعد ذلك... محاولة متأخرة لأقول لرجلٍ غادر الدنيا قبل أن أقول له بما يكفي:

"سامحني... وأشكرك."

لم تأتِ لندن إلى حياتي على هيئة مدينة... بل جاءت على هيئة سؤال. وسؤال واحد، إذا استقر في قلب الإنسان، قد يكون أقوى من ألف إجابة.

بعد وفاة أبي، شعرت بأن شيئًا في داخلي قد انكسر، وشيئًا آخر قد

وُلد.

لم أعد أنظر إلى الحياة كما كنت أنظر إليها من قبل. كانت بوربندر، التي بدت لي يومًا عالمًا كاملًا، قد أصبحت فجأة أصغر من أحلامي. ليس لأنها تغيرت... بل لأنني أنا الذي بدأت أتغير. فالمدن لا تضيق. إنما تضيق بها أرواح الذين كبروا.

كنت أراقب السفن وهي تدخل الميناء وتغادره. كل سفينة كانت تبدو لي كأنها تحمل قطعة من المجهول.
كنت أتساءل:

إلى أين يمضي هؤلاء الناس؟

كيف تبدو البلاد التي لا تشبه الهند؟

وهل للبحر نهاية، أم أنه طريق لا يتعب من الامتداد؟

كلما غابت سفينة في الأفق، كنت أشعر أن جزءًا من خيالي يرحل معها. ربما لهذا السبب، أحببت البحر منذ طفولتي. لم يكن يعدني بالراحة... بل بالاحتمالات. والإنسان لا يعيش بالأجوبة وحدها. إنه يعيش أيضًا بما يتخيله خلف الأفق.

في تلك الأيام، بدأ الأقارب والأصدقاء يتحدثون عن مستقبلي. قال بعضهم إن عليّ أن أعمل كما عمل أبي. وقال آخرون إنني أصلح للتجارة. وكان لكل واحد منهم صورة يرسمها لحياتي. لكن الغريب أن أحدًا لم يسألني عن الصورة التي أرسمها أنا.

أدركت مبكرًا أن الناس يحبون أن يقرروا مصائر الآخرين. لأنها أقل كلفة من مواجهة مصائرهم هم.

ثم جاء الاقتراح الذي غير مجرى حياتي. أن أسافر إلى لندن...
لأدرس القانون.

حين سمعت الكلمة لأول مرة، لم أرَ مدينة. رأيت بحرًا طويلًا يفصل

بين حياتين. الحياة التي أعرفها... والحياة التي لا أعرف عنها شيئاً.
كان اسم "لندن" يبدو غريباً على لساني.

بعيداً...

بارداً...

غامضاً.

لكنه كان يحمل في داخله سحراً لا يقاوم. كأن القدر لا ينادينا إلا
بالأسماء التي لم نتعلم نطقها بعد. غير أن الأحلام لا تسافر وحدها.
إنها تحمل معها الخوف. وسرعان ما بدأت الاعتراضات.

قال بعض أفراد العائلة:

"من يعبر البحر يفقد دينه."

وقال آخرون:

"الغرب يبتلع أبناءه."

وكان بعضهم ينظر إليّ وكأنني قررت الرحيل إلى عالم لا عودة
منه. لم يكونوا يكرهون السفر. بل كانوا يخافون التغيير. ولم أكن
ألومهم. فالخوف حارسٌ قديمٌ يجلس على أبواب المجتمعات، يمنعها
من المغامرة، ويقنعها أن البقاء في المكان نفسه هو النجاة.

لكن أكثر ما كان يشغل قلبي... لم يكن كلام الناس. بل أمي. كنت
أعرف أن موافقتها هي الرحلة الأولى التي يجب أن أخوضها.

جلست معها في مساء هادئ. كان الضوء الخافت يتراقص فوق
الجدران. ورائحة البخور تملأ الغرفة. بقيت صامتاً لحظات. ثم قلت:

"أريد أن أسافر."

لم تنظر إليّ مباشرة. كأنها كانت تنظر إلى الطريق الذي سأمضي
فيه. قالت بهدوئها الذي لم يفارقها يوماً:

"البحر شاسع يا موهان والسفر متاهة."

قلت:

"أعرف."

قالت:

"والغربة تغير الناس."

أطرقت رأسي. ثم أضفت:

"وربما تغيرني أيضًا."

ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت:

"ليست المشكلة أن تتغير... بل أن تضيع."

كان صمتها أثقل من الكلام.

ثم التفتت إليّ، وقالت:

"إن وعدتني أن تحافظ على ما تربيت عليه، فلن أمنعك."

سألتها:

"وما الذي تريدني أن أعدك به؟"

قالت:

"لا خمر."

ثم سكتت قليلاً.

"ولا لحم."

ثم نظرت في عيني طويلاً.

"ولا أن تجعل شهوات الدنيا تقودك."

لم يكن ذلك قسمًا أمام محكمة. ولا عقدًا بين أم وابنها. كان شيئًا

أعمق. كان عهدًا بين طفولتي ومستقبلي.

مددت يدي إليها. ووعدتها. ولم أكن أعلم أن ذلك الوعد سيصبح، في كثير من اللحظات، الحبل الذي يمنعني من السقوط.

خرجت من عندها وأنا أشعر أنني كبرت سنوات في ليلة واحدة. فثمة لحظة في حياة كل إنسان يدرك فيها أن الطريق الذي اختاره لن يعود يسمح له بالرجوع كما كان.

لقد كان السفر إلى لندن، في نظر الآخرين، رحلة لدراسة القانون. أما في داخلي... فكان بداية محاكمة طويلة للنفس. لم أكن ذاهبًا لأتعم نصوص القوانين فقط. بل لأكتشف أي قانون ينبغي أن يحكم الإنسان:

قانون القوة... أم قانون الضمير؟

ولم أكن أعرف أن البحر الذي سأعبه بعد أيام، لن يفصل بين الهند وإنجلترا فحسب... بل سيفصل أيضًا بين موهان الطفل... وغاندي الذي سيبدأ العالم، لأول مرة، في التعرف إليه.

يقول الناس إن السفر يبدأ عندما تتحرك السفينة... لكنهم مخطئون. السفر يبدأ قبل ذلك بكثير. يبدأ يوم يكتشف الإنسان أن المكان الذي وُلد فيه لم يعد يتسع للأسئلة التي ولدت داخله. في تلك اللحظة فقط... يصبح الرحيل قدرًا، لا اختيارًا. أما السفينة... فليست إلا شاهدًا على قرار اتخذته القلب منذ زمن.

وصلت إلى ميناء بومباي قبل شروق الشمس. كانت المدينة لا تزال تستيقظ ببطء. السماء مغطاة بضباب خفيف، كأن الليل لم يحسم بعد قراره بالرحيل. وكان البحر هادئًا على غير عادته. هادئًا إلى درجة جعلتني أشك أنه كان يخفي اضطرابه احترامًا للمسافرين.

لطالما ظننت أن البحر يشبه الإنسان. يبتسم على سطحه... ويخفي أعاصيره في الأعماق.

كان الميناء عالمًا كاملاً. عمال يجرون الصناديق الثقيلة. بحارة يصرخون بلغات لم أسمعها من قبل. نوارس تحلق فوق السفن، كأنها تحفظ طرق المحيط أكثر من الربابنة. رائحة القطران المختلطة بالملح، والأخشاب المبللة، والدخان المتصاعد من مداخن السفن، صنعت رائحة لا تزال، حتى اليوم، تعيدني إلى تلك الساعة كلما أغمضت عيني.

هناك أدركت أن الموانئ ليست أماكن. إنها حدود بين حياتين. الذين يدخلونها ليسوا هم أنفسهم الذين يغادرونها.

كانت السفينة تقف أمامي كمدينة عائمة. ضخمة... حتى بدا لي أنها أكبر من أحلامي.

وقفت أهدق إليها طويلاً. وفكرت... كم هو غريب هذا العالم. قبل سنوات قليلة، كنت أظن أن البحر نهاية الأرض. واليوم... ها أنا أقف على أعتابه، مستعداً لعبوره.

يضحك الإنسان من جهل طفولته. ثم يكتشف، بعد عمر كامل، أن جهله لم ينته... بل صار أكثر تهديباً.

وفي تلك اللحظة، تسللت إلى رأسي مفارقة لم أستطع الفرار منها. كنت أغادر أرضاً يحكمها الإنجليز... ومتجهاً إلى أرض الإنجليز أنفسهم. كنت ابن أمةٍ تمشي فوق ترابها، لكنها لا تملك قرارها. تشرق عليها الشمس الهندية... لكن كثيراً من القرارات التي تحكمها كانت تُولد في لندن، على بعد آلاف الأميال.

يا للمفارقة...

كنت ذاهباً لأتعلم القانون في قلب الإمبراطورية التي فرضت قوانينها على وطني.

سأدرس العدالة... في المدينة التي تُدار منها سلطةٌ تحكم ملايين الهنود دون أن تمنحهم حق حكم أنفسهم.

لكنني، رغم ذلك، لم أحمل في قلبي كراهية لإنجلترا. كنت أكره الظلم... ولم أكن قد تعلمت بعد أن الظلم لا وطن له، وأن العدالة لا جنسية لها. كنت ذاهبًا أبحث عن العلم... لا عن الانتقام. ولم أكن أدري أن القدر كان يبتسم في الخفاء، وهو يرسل شابًا من مستعمرة بعيدة إلى مدرسة الإمبراطورية، ليعود يومًا ويعلم الإمبراطورية نفسها معنى الحرية.

التفتُ خلفي.

كانت أمي تقف بصمت. لم تبك. كانت تعرف أن بعض الدموع تجعل الرحيل أكثر قسوة.

اقتربت مني. وضعت يدها على رأسي كما كانت تفعل وأنا طفل. في تلك اللحظة، لم أعد ذلك الشاب الذي يستعد لدراسة القانون. عدت طفلًا يخاف أن يبتعد عن دفء يديها.

قالت بصوت خافت:

"لا تنسَ وعدك."

هزرت رأسي. ولم أستطع الكلام. كانت الكلمات أصغر من الموقف. بعض اللحظات لا تُقال... بل تُعاش. ثم تبقى تسكن القلب إلى الأبد. ولم أكن أودع أمي وحدها... كنت أودع وطنًا متقلًا بقيود لا تُرى.

كانت راية بريطانيا ترفرف فوق مقار الحكم. وكان اسم الملكة يُتلى في المراسيم الرسمية أكثر مما تُذكر أسماء أبناء هذه الأرض.

كان في الهند ملوك وأمراء، لكن القرار الأخير كثيرًا ما كان يأتي من وراء البحر.

كم هو مؤلم أن يحب الإنسان وطنًا لا يملك حريته كاملة. وكم هو أغرب من ذلك... أن يحمل هذا الوطن ابنه إلى بلاد المحتل، ليتعلم هناك.

أما كاستوربا... فكانت تنظر إليّ بعينين امتلأتا بأسئلة لم تعرف كيف تنطق بها. لم نكن قد عشنا معًا زمنًا طويلًا. لكن الفراق لا يقاس بطول السنوات. بل بصدق القلوب.

أردت أن أقول لها أشياء كثيرة. أن أعدها بالعودة. أن أطمئنها. أن أخبرها أن البحر، مهما امتد بعيداً، لا يستطيع أن يمحو الوجوه التي أحببناها.

لكنني اكتفيت بالنظر إليها. أحياناً... تكون النظرة أصدق من ألف رسالة.

نادى أحد البحارة. حان وقت الصعود. وضعت قدمي على السلم الخشبي المؤدي إلى السفينة. ثم توقفت. التفت مرة أخيرة.

رأيت أمي. ورأيت زوجتي. ورأيت وجوهاً أحببتها. ورأيت الهند كلها، وكأنها تجمعت في ذلك الميناء لتودع شاباً لا يعرف ما ينتظره. في تلك اللحظة، أدركت أن الوطن ليس الأرض.

الوطن... هو الأشخاص الذين يجعلون الأرض تستحق أن تُسمى وطنًا. ولهذا، فإن أصعب أنواع الرحيل ليس أن تبتعد عن المدن... بل أن تبتعد عن الوجوه.

تحركت السفينة ببطء.

بدأ الرصيف يبتعد.

ثم البيوت.

ثم المآذن والمعابد.

ثم الأشجار.

ثم تحولت اليابسة إلى خط رفيع يعانق الأفق.

كنت أراقب الهند وهي تصغر أمام عيني. لكن الحقيقة كانت معاكسة تمامًا. لم تكن الهند هي التي تصغر... بل أنا الذي بدأت أكبر.

كل ميل بحري كانت تقطعه السفينة، كان يقطع أيضًا جزءًا من
الطفل الذي عشته سنوات طويلة.

كنت أشعر بذلك بوضوح.

كأن البحر لا يحمل السفن فقط... بل يحمل أعمار البشر من مرحلة
إلى أخرى.

وقفت عند حافة السفينة حتى اختفى آخر أثر لليابسة. لم يبقَ حولي
إلا الماء. سماء فوقي... ومحيط تحتي... ومجهول أمامي.

ولأول مرة في حياتي، شعرت أن الإنسان لا يملك شيئًا سوى نفسه.
لا بيت.

ولا شارع.

ولا مدينة.

ولا اسم عائلة.

حين يعبر البحر، يكتشف أن كل ما كان يظنه ثابتًا، يمكن أن يختفي
خلف الضباب في ساعات قليلة. ويبقى شيء واحد فقط... المبادئ
التي يحملها في قلبه. فإن ضاعت... فلن يعثر عليها في أي ميناء.

وسألت نفسي وأنا أحرق في الأفق:

ماذا لو عدت بعد سنوات وأنا أشبه الإنجليز أكثر مما أشبه الهند؟
ماذا لو أخذت مني لندن لغتي، وعاداتي، وإيماني، حتى أصبحت
غريبًا عن وطني؟

ثم جاء سؤال آخر، أكثر عمقًا:

وماذا لو عدت أكثر هنديةً مما كنت؟

لم أكن أعرف أي السؤالين سيجيب عنه الزمن. لكنني شعرت، لأول
مرة، أن رحلتي لم تكن بحثًا عن شهادة في القانون فحسب. كانت

بحثاً عن معنى الوطن. وهل يمكن لإنسان أن يتعلم من خصمه، دون أن يصبح نسخةً منه؟

بعد سنوات طويلة، قال الناس إن رحلتي إلى لندن كانت بداية حياتي. أما أنا... فلا أوافقهم.

لقد كانت نهاية حياة، لا بدايتها.

ففي ذلك الصباح، حين ابتلعت الأمواج آخر خيط من شواطئ الهند، لم أغادر وطني وحده... بل غادرت الصبي الذي كان يخاف الظلام، ويجهل الدنيا، ويظن أن الحقيقة تسكن مدينة واحدة.

ومن بين ضباب البحر، بدأ يولد إنسان آخر... لم يكن يعرف بعد أن العالم سيمنحه اسمًا أكبر من اسمه. ولم يكن يعلم أن عودته من لندن لن تكون عودة طالب قانون... بل بداية رحلة شعب بأكمله نحو الحرية.

أما هو...

فكان لا يزال يبحث، ببساطة...

عن الحقيقة.

الهجرة إلى

الذات

لم أرَ لندن أول مرة...

بل شممتها.

كانت رائحتها مختلفة عن كل ما عرفتته في الهند. رائحة فحم محترق، ومطرٍ قديم، وخشبٍ ابتلعه الشتاء، وهواءٍ باردٍ يحمل في صدره شيئاً من الحزن. حتى البحر الذي حملني إليها، بدا وكأنه يتنفس بطريقة مختلفة. لم يكن بحر العرب الذي عرفتته في طفولتي. كان أكثر صمتاً... وأقل دفناً... وكأنه هو الآخر أصبح إنجليزيًا.

عندما اقتربت السفينة من الميناء، بحثت بعيني عن المدينة التي سمعت عنها كثيرًا. لكنني لم أرها. رأيت الضباب. كان الضباب يملأ السماء، ويبتلع الأبراج، ويخفي البيوت، حتى خُيل إليّ أن لندن ليست مدينة، بل شبحٌ عظيم يختبئ خلف ستارٍ أبيض.

وقفت طويلًا أهدق في ذلك البياض الكثيف. ثم ابتسمت. قلت في نفسي:

"يا للعجب... حتى المدينة التي تحكم نصف العالم، لا تستطيع أن ترى نفسها بوضوح."

بعد سنوات، أدركت أن المدن تشبه البشر. بعضها يخفي عظمته وراء تواضعٍ صامت. وبعضها يخفي ضعفه وراء أبراجٍ شاهقة.

أما لندن... فكانت تخفي نفسها وراء الضباب.

ما إن وطئت قدمي الرصيف حتى شعرت أن الأرض نفسها مختلفة. لم يكن الاختلاف في الحجر... بل في الإيقاع. كل شيء يسير بسرعة. الناس يمشون وكأن الوقت يطاردهم. العربات تتدفق في الشوارع بلا توقف. الخيول تجر عرباتها في نظامٍ مذهش. الساعات المعلقة فوق المباني تعلن الدقائق كما لو أن الزمن هنا موظف حكومي لا يسمح لأحد بالتأخر.

أما في الهند...

فكان الزمن يجلس تحت ظل شجرة، يشرب الشاي، ولا يغضب إن تأخر أحد.

هناك فقط، فهتمت أن الحضارات لا تختلف في المباني وحدها... بل تختلف في علاقتها مع الوقت.

كان البرد أول إنجليزي صافحني. دخل من معطفي إلى عظامي دون استئذان. لم أكن أعرف أن الهواء يستطيع أن يؤلم.

في بوربندر، كانت الشمس أمًا حنونًا، تضع يدها الدافئة على كتفي كل صباح.

أما هنا...

فكانت السماء بخيلة. لا تمنحك دفئًا. بل تختبر قدرتك على احتمال غيابه.

كنت أضم معطفي إلى جسدي، فأضحك من نفسي. كيف استطاع هذا الهواء غير المرئي أن يهزم شابًا جاء من بلادٍ تتحدى الشمس فيها الأرض كل يوم؟

لم أكن غريبًا عن المكان فقط... بل كنت غريبًا عن نفسي أيضًا. كلما نظرت حولي، شعرت أنني خرجت من كتاب، ودخلت كتابًا آخر كُتب بلغة مختلفة.

الوجوه شاحبة.

الثياب داكنة.

القبعات السوداء تكاد تكون جزءًا من الرؤوس.

حتى الابتسامات كانت قليلة، كأن الناس هنا يدخرونها لأوقاتٍ نادرة.

وفي تلك اللحظة، تذكرت أسواق الهند.

ألوان الساري التي كانت تملأ الشوارع.

صياح الباعة.

ضحكات الأطفال.

رائحة البهارات التي كانت تجعل الهواء نفسه يبدو حيًا.
واكتشفت أنني لم أغادر وطنًا فقط... بل غادرت عالمًا كاملاً من الألوان.

وفي الطريق إلى مسكني، كانت عربة الخيل تشق شوارع لندن الواسعة. المباني الحجرية ترتفع في انتظامٍ مهيب. النوافذ متشابهة. الأبواب متشابهة. حتى الأشجار بدت وكأنها تعلمت الانضباط. كان كل شيء يقول إن هذه المدينة لا تؤمن بالفوضى.

لكنني كنت أتساءل في داخلي:

هل يمكن للنظام أن يصنع السعادة؟

لقد رأيت في الهند فوضى كثيرة... لكنني رأيت معها دفنًا إنسانيًا لا يوصف.

وهنا، رأيت نظامًا يثير الإعجاب... لكنني لم أشعر بعد بالدفء.

ولعل الإنسان يحتاج إلى الاثنين معًا.

فالنظام يبني المدن... أما الرحمة، فهي التي تبني الأوطان.

وفي تلك الليلة، جلست وحدي في غرفتي الصغيرة. كانت الغرفة مرتبة بعناية، لكنها باردة، كأن الجدران لم تعتد استقبال الغرباء.

وضعت حقيبتني على الأرض. ثم جلست إلى جوار النافذة. نظرت إلى الضباب وهو يبتلع الشارع. وفجأة، شعرت بوحدة لم أعرفها من قبل. هناك، لأول مرة، أدركت أن الغربة ليست أن تبعد آلاف الأميال عن بيتك.

الغربة...

أن تبحث عن وجه تعرفه، فلا تجد. أن تنطق بلغتك، فلا يفهمها أحد.
أن تضحك على ذكرى، ثم تكتشف أن لا أحد هنا عاشها معك.

الغربة ليست مسافة...

إنها صمت.

ثم تسللت إلى ذهني فكرة غريبة. أنا الآن في قلب الإمبراطورية التي
تحكم بلادي. في هذه الشوارع الهادئة، تتخذ قرارات تغير حياة
ملايين الهنود الذين لم يروا لندن يوماً. من هذه المدينة، تكتب أوامر
تصل إلى قريتي الصغيرة، وإلى حقول البنغال، وإلى أسواق بومباي،
وإلى المعابد التي نشأت بينها.

كم بدا الأمر عجيبيًا.

كنت أمشي بين أناس لا يعرفون اسمي، ولا يعرف أكثرهم شيئًا عن
الهند، ومع ذلك كانت حكومتهم تعرف عن حياتنا أكثر مما نعرف
نحن عن حياتهم.

وسألت نفسي:

هل يدرك هؤلاء، وهم يحتسون الشاي في هدوء، أن وراء البحر
شعبًا كاملًا يعيش تحت راية بلادهم؟

لم أشعر بالغضب.

بل شعرت بالفضول.

أردت أن أفهم هؤلاء الناس.

أن أفهم كيف استطاع شعب صغير في جزيرة بعيدة أن يحكم أممًا
تمتد من آسيا إلى أفريقيا.

كنت مؤمنًا أن الإنسان لا يستطيع أن يهزم شيئًا قبل أن يفهمه. وربما
لهذا السبب، جئت إلى لندن. لا لأتعلم القانون فقط... بل لأتعلم
الإمبراطورية نفسها.

وفي تلك الليلة، قبل أن أطفئ المصباح، وقفت أمام المرآة. رأيت شابًا هنديًا نحيل الجسد، يقف وحيدًا في مدينة لا تشبه شيئًا عرفه من قبل. ابتسمت لذلك الشاب. وقلت له بصوتٍ خافت:

"لا تخف... لقد هزمت ظلام طفولتك. وها أنت اليوم تتعلم كيف تهزم ضباب العالم."

ثم أغلقت النافذة.

لكن ضباب لندن لم يبق خارج الغرفة...

لقد دخل، بهدوء، إلى روحي.

ولم أكن أعلم أنني سأقضي سنواتٍ طويلة، أبحث عن النور الذي يستطيع أن يبدد ذلك الضباب.

ثمة وهمٌ يقع فيه كل غريب عندما تطأ قدماه أرضًا جديدة.

يظن أن عليه، قبل أن يتعلم لغة أهلها... أن يصبح واحدًا منهم. وأعترف لكم... أنني لم أكن استثناءً.

وصلت إلى لندن وأنا أحمل في حقبتي ثيابًا هندية، وفي قلبي وصية أمي، وفي رأسي صورةً رسمتها عن الرجل الإنجليزي.

كنت أظنه الرجل الكامل.

مهذبًا...

منظمًا...

قويًا...

لا يرفع صوته، ولا يخطئ، ولا يتأخر.

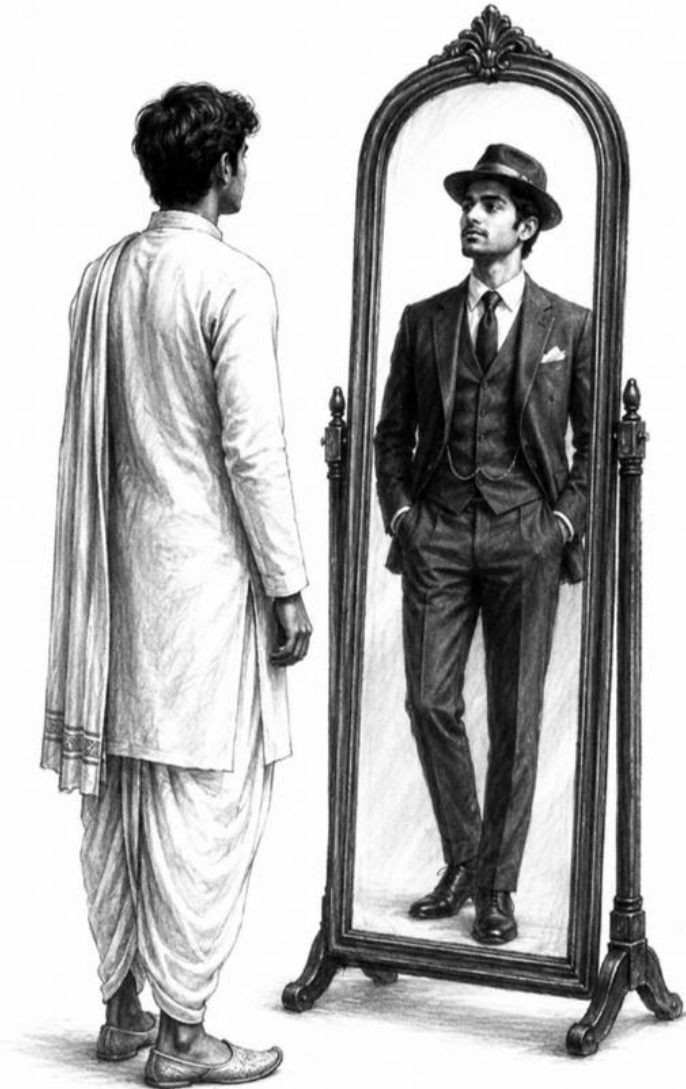
وربما لهذا السبب، لم أكتفِ بأن أتعلم منهم... بل أردت، في البداية، أن أصبح مثلهم. اشتريت أول بدلة أوروبية في حياتي. ما زلت أذكر

ذلك المتجر. الجدران مغطاة بالمرايا. والبائع يقيس الأكتاف،
والأذرع، وطول الساقين، وكأنه يصنع إنسانًا جديدًا، لا ثوبًا جديدًا.
وحين ارتديتها لأول مرة، وقفت طويلًا أمام المرأة. كان الرجل الذي
ينظر إليّ يشبهني... ولا يشبهني.

الوجه هندي.

أما الثياب...

فكانت تحاول إقناعي بأنني وُلدت في لندن.



ابتسمت. ثم سألت نفسي:

هل تستطيع قطعة قماش أن تغيّر الإنسان؟

في تلك الأيام... كنت أظن أنها تستطيع.

لم أكتفِ بالبدلة. اشتريت قبعة سوداء لامعة. وعصًا أنيقة. وقفازات جلدية. وساعة تتدلى من جيب الصدر بسلسلة ذهبية رقيقة.

حتى طريقة المشي حاولت أن أغيرها. كنت أراقب الإنجليز في الشوارع. كيف يرفعون رؤوسهم. كيف يحيون بعضهم. كيف يجلسون في المطاعم. وكيف يمسكون فناجين الشاي. ثم أعود إلى غرفتي... وأحاول تقليدهم.

كم يبدو الإنسان مضحكًا، حين ينسى نفسه وهو يحاول أن يتذكر الآخرين.

ولم يتوقف الأمر عند الثياب. قلت لنفسى:

إذا كنت سأعيش بينهم... فعليّ أن أتقن كل ما يتقنونه.

سجلت اسمي في دروس لتعلم الرقص.

نعم...

أنا، الذي كنت أخجل من النظر طويلاً في عيون الناس، أردت أن أتعلم الرقص.

وقفت بين شباب وفتيات يتحركون بخفة الطيور. أما أنا... فكانت أشبه شجرة يحاول أحدهم إقناعها بالطيران. كل خطوة كانت معركة. وكل حركة كانت تذكرني بأن الجسد لا ينسى البيئة التي نشأ فيها.

ثم قلت:

"الرجل الإنجليزي المحترم لا يكتفي بالرقص."

فذهبت لأتعلم العزف على الكمان. اشتريت آلة جميلة. وحاولت أن أستخرج منها لحنًا. لكن الأصوات التي خرجت منها كانت أقرب إلى أنين بابٍ صدىٍ منها إلى الموسيقى.

ضحكت يومها من نفسي. وسألت:

كم عدد الأقنعة التي يستطيع الإنسان أن يرتديها قبل أن ينسى وجهه الحقيقي؟

ومع مرور الأسابيع، بدأت ألاحظ شيئاً غريباً. كلما حاولت أن أصبح إنجليزياً... شعرت أنني أبتعد عن موهان.

كنت أرتدي ثياباً أجمل...

لكنني لم أشعر أنني أصبحت أفضل.

كنت أتحدث بلهجة أكثر أناقة...

لكن صوتي بدا غريباً على أذني.

كنت أقلد الآخرين بإتقان...

لكنني، في كل مرة أنظر فيها إلى المرأة، أشعر أن الرجل الذي أمامي يمثل دوراً لا يخصه.

هناك فقط...

بدأت أفهم أن التقليد قد يمنح الإنسان مظهرًا جديدًا... لكنه لا يمنحه روحًا جديدة.

ذات مساء، كنت أسير في أحد شوارع لندن. رأيت عشرات الرجال. كلهم يرتدون البدلات نفسها. والقبعات نفسها. ويحملون العصي نفسها. حتى خطواتهم بدت متشابهة. وفجأة، خطر لي سؤال أربكني:

إذا أصبحنا جميعًا متشابهين...

فمن يكون الإنسان؟

هل خلقت الشخصية لتُخفى...

أم لتُكتشف؟

وهل الحضارة تعني أن نفقد اختلافنا...

أم أن نتعلم احترام اختلاف الآخرين؟
كان ذلك السؤال بداية تحرري. ليس من البدلة... بل من الوهم.
عدت إلى غرفتي في تلك الليلة.
خلعت القبعة.
ثم القفازات.
ثم المعطف.
وقفت أمام المرأة مرة أخرى.
كانت المرأة نفسها...
لكن الرجل الذي ينظر إليها لم يعد هو نفسه.
قلت بصوتٍ خافت:

"لقد جنّت إلى لندن لأتعلّم القانون... لا لأستبدل وجهي."

وأدركت، لأول مرة، أن أكبر أخطاء الإنسان ليست أن يجهل نفسه... بل أن يحاول الهرب منها. فالزهرة لا تصبح أجمل إذا حاولت أن تكون شجرة. والبحر لا يصبح أعظم إذا حاول أن يكون جبلاً.
لكل شيء في هذا الكون حقيقته الخاصة. وكذلك الإنسان.
لم أتخلّ عن البدلة في ذلك اليوم. لكنني تخليت عن شيءٍ أهم. تخليت عن حاجتي لأن أبدو مثل غيري.
ومنذ تلك اللحظة، بدأت رحلتي الحقيقية. لم تعد رحلتي نحو أن أصبح إنجليزيًا... بل نحو أن أصبح هنديًا يعرف العالم، دون أن يفقد نفسه فيه.

واليوم، كلما رأيت إنسانًا يبدل لغته، أو ملامحه، أو مبادئه، ليحصل على قبول الآخرين... أتذكر ذلك الشاب النحيل الذي وقف طويلًا أمام مرآة في لندن، معتقدًا أن القبعة يمكن أن تغيّر مصيره. قبل أن

يكتشف، بعد تأملٍ طويلٍ... أن الإنسان لا يقاس بما يضع فوق رأسه... بل بما يحمله داخله.

لم أكن أظن أن أصعب معركة سأخوضها في لندن... لن تكون مع اللغة. ولا مع القانون. ولا مع الغربة. بل مع رغيف خبز.

حين غادرت الهند، كنت أتصور أن الوفاء بالوعد الذي قطعته لأمي سيكون أمرًا يسيرًا.

قلت في نفسي:

"لن أكل اللحم."

بدت الجملة قصيرة.

لكنني لم أكن أعلم أن بعض الجمل الصغيرة تحتاج إلى عمرٍ كامل حتى يثبت الإنسان أنه كان صادقًا حين نطق بها.

في أيامي الأولى، كنت أدخل المطاعم واحدًا بعد آخر. تستقبلني رائحة اللحم المطهو، فتشعرني بأنني غريب قبل أن ينظر إليّ أحد. أجلس. تأتيني قائمة الطعام. أقرأها ببطء. ثم أرفع رأسي وأسأل النادل:

"هل لديكم طعام نباتي؟"

كان بعضهم يحدق في وجهي باستغراب. وبعضهم يبتسم ابتسامة خفيفة، كأنني طلبت شيئًا لا وجود له. وأحيانًا كانوا يقولون:

"يمكننا أن نزيل قطعة اللحم من الطبق."

فأبتسم في داخلي. وأفكر:

إن إزالة اللحم من الطبق... لا تجعل الطبق نباتيًا. كما أن إزالة الظلم من خطابٍ جميل... لا تجعله عدلًا.

خرجت مرات كثيرة دون أن أكل شيئاً.

كنت أمشي في شوارع لندن الطويلة، والبرد ينهش جسدي، والجوع ينهش بطني. وفي تلك اللحظات، كان صوتٌ خافتٌ يبدأ بالحديث داخلي.

"من سيعلم إن أكلت قطعة صغيرة؟"

كان صوتاً هادئاً...

عاقلاً...

مقنعاً.

الخطيئة لا تدخل القلب وهي تصرخ.

إنها تهمس.

ولهذا السبب، يصعب اكتشافها.

كنت أجادل نفسي. وأقول:

"أمي بعيدة. الهند بعيدة. ولا أحد يراقبني."

ثم يأتيني صوتٌ آخر، أكثر هدوءاً:

"لكن... أنت تراقب نفسك."

وهناك كانت المعركة الحقيقية.

اكتشفت، بعد أيام، أن الإنسان لا يفي بوعدته احتراماً لمن وعده فقط. بل احتراماً للشخص الذي يريد أن يصبحه. لو أكلت اللحم، لما تأذت أمي. فهي لن تعرف. لكن شيئاً في داخلي كان سيموت.

الثقة بالنفس لا تُبنى عندما يرانا الناس صالحين. بل عندما نكون صالحين، حتى في غيابهم.

ومنذ ذلك الوقت، بدأت أفهم أن الضمير هو الشاهد الوحيد الذي لا يغادر المحكمة أبداً.

وفي مساءً بارد، بينما كنت أسير بلا هدف تقريبًا، رأيت لافتة صغيرة تكاد تختبئ بين المحال. كانت بسيطة. لا أضواء عليها. ولا زخارف. لكن كلمة واحدة جذبتني إليها.

"Vegetarian". أي نباتي.

توقفت. قرأت الكلمة مرةً ثانية. ثم ثالثة.

شعرت، لوهلة، وكأنني وجدت صديقًا قديمًا في مدينةٍ لا أعرف فيها أحدًا.

دخلت. كان المطعم متواضعًا. لا يشبه المطاعم الفاخرة التي كنت أمر بها. لكن رائحة الطعام فيه أعادتني، للحظة، إلى الهند.

جلست. ووضعت أمامي طبقًا بسيطًا من الخضار والخبز. ولم أكن أظن أن وجبةً متواضعةً تستطيع أن تملأ القلب قبل أن تملأ المعدة.

هناك، لم أكتشف الطعام فقط. بل اكتشفت أناسًا اختاروا النباتية، لأن أمهاتهم طلبن منهم ذلك... بل لأنهم آمنوا بها. كانوا يتحدثون عن الرحمة. وعن حق الحيوان في الحياة. وعن علاقة الطعام بالأخلاق. جلست أستمع إليهم طويلاً. ثم سألت نفسي:

أنا نباتي لأنني وعدت أمي...

أما هم، فلماذا؟

ولأول مرة، بدأت أبحث عن السبب... لا عن العادة. هناك فرق كبير بين الإنسان الذي يفعل الخير لأنه وُلد عليه... والإنسان الذي يختاره بعد تفكير.

الأول يملك عادة.

أما الثاني...

فيملك قناعة.

اشتريت بعد ذلك كتابًا عن النباتية. ثم كتابًا آخر. ثم ثالثًا.

ولم أكن أقرأ عن الطعام. كنت أقرأ عن الإنسان.

كم هو غريب أن يقودك الجوع إلى الفلسفة. لكن هذا ما حدث.

لقد اكتشفت أن ما نضعه في أفواهنا، ليس مجرد طعام. إنه إعلان صامت عن الطريقة التي ننظر بها إلى الحياة. ولم أعد نباتيًا لأنني أخاف أن أخلف وعدًا. بل لأنني بدأت أقتنع أن الرحمة لا ينبغي أن تتوقف عند حدود الإنسان.

بعد سنوات، حين سألني كثيرون عن سر قدرتي على الصيام، ظنوا أنني تعلمته في السجون. لكن الحقيقة أنه بدأ هنا... في مطاعم لندن. حين اكتشفت أن الجوع ليس عدوًا دائمًا. أحيانًا... يكون معلمًا. الجائع لا يتعلم فقط قيمة الخبز. بل يتعلم قيمة الإرادة. فالجسد يصرخ:

"أطعمني."

أما الروح فتسأل:

"ولكن... بأي ثمن؟"

ومن يستطيع أن يجعل الروح تنتصر على الجسد مرةً واحدة...
يكتشف أن أعظم أشكال الحرية ليست أن يفعل الإنسان ما يشاء.
بل أن يستطيع ألا يفعل ما يشاء.

واليوم، كلما تذكرت تلك الأيام، لا أتذكر المطاعم التي خرجت منها جائعًا. ولا الليالي التي نمت فيها ببطنٍ فارغة. أتذكر ذلك الوعد الصغير الذي حملته معي من بيت أمي. لقد ظننت، وأنا أغادر الهند، أنني أحمل الوعد في قلبي. ثم اكتشفت، بعد أشهرٍ من الغربة، حقيقةً قلبت حياتي كلها. لم أكن أنا الذي يحمل الوعد... بل كان الوعد هو الذي يحملني. ولولاه، لربما ضعت في مدينةٍ كانت تستطيع أن تغيّر ثياب الإنسان بسهولة... لكنها لم تستطع، بفضل ذلك الوعد، أن تغيّر ضميره.

لم يكن أكثر ما أدهشني في لندن قصورها... ولا شوارعها... ولا ضبابها.

كان أكثر ما أدهشني... مكتباتها.

لم أكن قد رأيت في حياتي هذا العدد من الكتب مجتمعة في مكان واحد.

حين دفعت باب إحدى المكتبات لأول مرة، لم أشعر أنني دخلت متجرًا... بل شعرت أنني دخلت زمنًا آخر. كان الصمت هناك كثيفًا، حتى إن وقع خطواتي بدا لي اعتداءً على هيبة المكان. رفوف تمتد حتى السقف. آلاف الكتب، مصطفة في نظام يكاد يكون عسكريًا. جلودٌ بنية، وسوداء، وخضراء، تحمل أسماءً لم أسمع بها من قبل. وقفت في منتصف القاعة...

وأحسست، للمرة الأولى، بضالة الإنسان أمام المعرفة.

لطالما ظننت، وأنا في الهند، أن الجهل يعني ألا يعرف الإنسان شيئًا. لكنني اكتشفت في تلك المكتبة أن الجهل الحقيقي... هو أن يظن الإنسان أنه يعرف الكثير.

كل رفٍ هناك كان يذكرني بما لا أعرفه. كل كتاب كان يقول لي، دون أن ينطق:

"ما قرأته حتى الآن... ليس إلا أول السطر."

ومنذ ذلك اليوم، بدأت أشك في يقيني أكثر مما أشك في جهلي. ولعل الشك الصادق... هو أول درجات الحكمة.

بدأت أقرأ بنهم لم أعرفه من قبل. لم أقرأ لأن الجامعة طلبت مني ذلك. ولا لأن الامتحانات كانت تقترب. كنت أقرأ لأن شيئًا في داخلي كان يستيقظ.

كنت أنتقل بين كتب القانون، والتاريخ، والفلسفة، والأخلاق. وكلما

أغلقت كتابًا... شعرت أنني فتحت بابًا جديدًا. كنت كالمسافر الذي دخل مدينةً لها ألف طريق. كلما اختار طريقًا... اكتشف أن هناك طرقًا أخرى أكثر اتساعًا.

أدهشني أمرٌ لم أكن أتوقعه. وجدت كتبًا عن الهند... أكثر مما رأيت في الهند نفسها. كتبًا عن تاريخها. وعن لغاتها. وعن أديانها. وعن ملوكها. وعن فقرها. وعن شعبها.

جلست أحرق في عناوينها طويلًا. ثم سألت نفسي سؤالًا أربكني:
كيف عرف هؤلاء عن وطني كل هذا... بينما أنا لا أعرف عنه إلا القليل؟

شعرت بالخجل. ليس من جهلي بالإنجليز... بل من جهلي بالهند. لقد اضطررت أن أغادر وطني... كي أبدأ بالتعرف إليه. يا لها من مفارقة موجعة.

ثم بدأت أقرأ في الكتب التي تتحدث عن الديانات. المسيحية. والإسلام. واليهودية. والبوذية. ولم أكن أبحث عن دينٍ جديد. كنت أبحث عن الإنسان.

كنت أتساءل:

كيف يمكن لهذا العدد الكبير من البشر أن يختلفوا في الطريق... ويبحثوا جميعًا عن الحقيقة نفسها؟

هل الحقيقة جبلٌ واحد... لكن لكل إنسان طريقه إليه؟

أم أن الحقيقة بحرٌ واسع، وكل دينٍ ليس إلا شاطئًا من شواطئه؟ كانت تلك الأسئلة تقلقني أكثر مما كانت تطمئنني. لكنني تعلمت أن الأسئلة العظيمة لا تأتي لتمنحنا الراحة. إنها تأتي لتوقظنا.

وفي أحد الأيام، وقعت يدي على كتابٍ يتحدث عن تعاليم السيد المسيح.

بدأت أقرأ، بدافع الفضول. ثم توقفت طويلاً عند عبارة تدعو إلى محبة الأعداء، وإلى مقابلة الإساءة بالإحسان.

أغلقت الكتاب. وأعدت فتحه. ثم قرأت الفقرة مرةً أخرى. شعرت أن الكلمات لا تخاطب عقلي... بل تخاطب شيئاً أعمق.

لم أفكر يوماً في تغيير ديني. لكنني بدأت أفهم أن الحكمة لا تولد في أمةٍ واحدة. وأن الله، في كرمه، لم يحصر النور في نافذة واحدة. لقد نثره في جهات الأرض كلها... وترك الإنسان يبحث عنه.

كل كتاب كنت أقرأه... كان يهدم جداراً صغيراً داخل رأسي.

كنت أكتشف أن التعصب لا يولد من قوة الإيمان... بل من ضعف المعرفة.

فالإنسان الذي لا يعرف إلا فكرةً واحدة... يخاف كل فكرةٍ أخرى.

أما الذي يقرأ... فإنه لا يفقد إيمانه. بل يفقد خوفه.

ومنذ تلك الأيام، أدركت أن القراءة ليست جمعاً للمعلومات. إنها تدريبٌ متواصل على التواضع. لأن كل كتابٍ عظيم، يقول لقارئه بلطف:

"ما زال أمامك الكثير."

ومع مرور الشهور، أصبحت المكتبة بيتي الثاني. كنت أدخلها أحياناً مثقلاً بالأسئلة. وأخرج منها مثقلاً بأسئلةٍ أكبر. لكنني لم أعد أخاف ذلك. لقد اكتشفت أن العقل الذي يتوقف عن السؤال... يشبه البئر التي انقطع عنها الماء. قد تبقى على شكلها... لكن الحياة تغادرها ببطء.

وفي مساءٍ شتوي، أغلقت أحد الكتب، ثم رفعت رأسي أتأمل الرفوف الممتدة أمامي. كانت آلاف الكتب تقف في صمت. وفجأة، خطر لي خاطرٌ لن أنساه ما حييت: إن الإمبراطوريات لا تُبنى بالجيوش وحدها. إنها تُبنى أيضاً بالمعرفة. لقد جاءت بريطانيا إلى الهند بالسفن

والمدافع. لكنها وصلت إلى العالم كله بالجامعات، والمطابع، والمكتبات. هناك فهمت أن الأمة التي تريد الحرية... لا يكفي أن تطرد المحتل من أرضها. بل عليها أن تطرد الجهل من عقول أبنائها. فالاحتلال قد يستولي على المدن لعقود... أما الجهل، إذا استوطن أمةً، فقد يحتلها قرونًا.

خرجت من المكتبة تلك الليلة، ولم أكن أحمل كتابًا جديدًا فحسب... كنت أحمل حياةً جديدة. وأيقنت أن الرحلة التي بدأت في ميناء بومباي، لم تكن تقودني إلى مهنةٍ أمارسها... بل إلى عقلٍ جديد سأقضي عمري كله أحاول أن أستحقه.

دخلت كلية الحقوق وأنا أحمل في داخلي يقينًا بسيطًا. كنت أظن أن القانون هو الوجه الآخر للعدالة. وأن القاضي لا يفعل سوى أن يضع العدالة فوق الطاولة، ثم يقرأ مواد القانون بصوتٍ مرتفع. كان الأمر يبدو في ذهني واضحًا، مستقيمًا، لا يحتمل التعقيد. فالناس يختلفون... ثم يأتي القانون ليعيد لكل إنسان حقه.

هكذا كنت أتصور العالم. لكن الحياة، كما تعلمت فيما بعد، لا تهدم أو هامنا دفعةً واحدة. إنها تزيلها حجرًا بعد حجر.

بدأت محاضرات القانون. كانت القاعات واسعة. والجدران مغطاة بصور رجالٍ يرتدون أردية القضاء السوداء، كأنهم يراقبون الأجيال التي جاءت بعدهم. كان الأساتذة يتحدثون بثقةٍ مذهشة. كل مادة لها رقم. وكل قضية لها سابقة. وكل كلمة في النص القانوني موضوعة في مكانها بدقةٍ تكاد تشبه دقة الساعات الإنجليزية.

أعجبنتني تلك الدقة. بل أحببتها. فالعقل يميل بطبيعته إلى النظام. لكن شيئًا صغيرًا في داخلي، كان يرفض أن ينام. كنت أقرأ الأحكام القديمة. وأدرس القضايا الشهيرة. وأحاول أن أفهم كيف يفكر القضاة. ثم بدأت ألاحظ أمرًا أربكني. قد يربح رجلٌ القضية... ولا يكون

مظلومًا. وقد يخسرها آخر... وهو صاحب الحق. القانون يقول شيئًا... والضمير يقول شيئًا آخر. ومنذ تلك اللحظة، بدأت أشعر أن بين العدالة والقانون مسافة لا يراها كثيرون.

كنت أجلس بعد المحاضرات في الحديقة القريبة من الكلية. أفتح كتاب القانون. ثم أغلقه. وأسأل نفسي:

إذا صدر قانونٌ يجيز الظلم... فهل يصبح الظلم عدلاً؟

وإذا كتب البرلمان نصًا يسرق حق الضعفاء... فهل تتحول السرقة إلى فضيلة لأنها كُتبت بالحبر الرسمي؟

كانت هذه الأسئلة تؤرقني أكثر من الامتحانات. لقد اكتشفت أن النصوص لا تملك ضميرًا. الضمير... يسكن الإنسان وحده.

ثم كانت الهند تعود إلى ذهني كلما قرأت صفحة.

كيف يمكن للإمبراطورية نفسها التي تتغنى بسيادة القانون، أن تحكم شعبًا كاملاً دون أن تمنحه حق اختيار من يحكمه؟

كيف يمكن للقانون أن يحمي حرية المواطن الإنجليزي... بينما يسمح بسلب حرية المواطن الهندي؟

هل يتغير معنى العدالة عندما تعبر البحر؟

أم أن البشر هم الذين يغيرون وجوهها بما يناسب مصالحهم؟

كنت كلما حاولت الهرب من هذه الأسئلة... وجدتها تنتظرني في الصفحة التالية.

وذاث يوم، وقف أحد الأساتذة يشرح بفخر عظمة القانون البريطاني. كان يتحدث عن نزاهة القضاء، وعن المساواة أمام القانون. استمعت إليه باهتمام. ولم يكن فيما قاله خطأ. لكنني، دون أن أشعر، رفعت يدي. سألته بهدوء:

"سيدي... هل تقف الإمبراطورية البريطانية نفسها أمام القانون كما يقف المواطن البريطاني؟"

ساد الصمت. نظر إليّ طويلاً. ثم ابتسم ابتسامةً دبلوماسية، وانتقل إلى سؤالٍ آخر.

لم يغضب. لكنه أيضاً... لم يجب.

خرجت من القاعة يومها وأنا أدرك أن بعض الأسئلة لا تعجز عن الإجابة لأنها صعبة... بل لأنها تكشف ما يفضل الناس ألا يروه.

ومع مرور الأيام، بدأت أفهم أن القانون يشبه السكين. يمكن للطبيب أن ينقذ بها حياة إنسان. ويمكن للقاتل أن يسلب بها حياة إنسان آخر. السكين واحدة... لكن اليد التي تحملها هي التي تحدد معناها. وكذلك القانون. إنه أداة. فإذا حمله أصحاب الضمير، صار حمايةً للضعفاء. وإذا حمله أصحاب الطمع، تحول إلى قيدٍ من ذهب. وأخطر القيود... هي تلك التي تبدو قانونية.

كنت كلما خرجت من قاعات المحاضرات، شعرت أنني لم أعد أدرس القانون وحده. كنت أدرس الإنسان. فالكتب تشرح النصوص. لكن الحياة وحدها تشرح النفوس.

ولقد رأيت، في سنوات قليلة، رجالاً يحفظون آلاف المواد القانونية عن ظهر قلب... لكنهم يعجزون عن فهم دمة يتيم. ورأيت آخرين لا يعرفون شيئاً عن القانون... لكنهم يعرفون العدل بالفطرة.

وهناك أدركت أن المعرفة لا تكفي. إنها تحتاج إلى قلبٍ يهديها. فالعقل وحده قد يبني محكمة... أما الضمير، فهو الذي يجعلها عادلة.

وفي مساءٍ شتوي، بينما كنت أعبّر أحد جسور لندن، وقفت أنظر إلى نهر التايمز. كان الماء يجري في هدوء، غير مكترث بالقوانين التي وضعها البشر على ضفتيه. حينها خطرت لي فكرة بقيت ترافقني بقية حياتي: لقد كتب الإنسان آلاف القوانين... لكنه لم يكتب قانوناً

واحدًا يجبر قلبًا على أن يكون رحيماً. فالرحمة لا تُسن في البرلمانات. والضمير لا يُصنع في المحاكم. والعدالة الحقيقية لا تبدأ عندما يرفع القاضي مطرقة... بل تبدأ قبل ذلك بكثير. تبدأ حين يقرر الإنسان، وهو وحده، أن قوة الحق أعظم من حق القوة.

وفي تلك الليلة، أغلقت كتاب القانون، وأنا أعلم أنني سأواصل دراسته حتى النهاية. لكنني قطعت عهدًا صامتًا مع نفسي. إذا جاء يومٌ وجدت فيه القانون يقف في وجه العدالة... فلن أنحاز إلى القانون. سأنحاز إلى العدالة. فالقوانين يكتبها البشر. أما العدالة... فهي اللغة التي كتبها الله في ضمير الإنسان منذ بداية الخليقة.

لم أكن أتصور أن الغربية تستطيع أن تفعل أكثر من أن تُشعر الإنسان بالوحدة. لكنني كنت مخطئًا. الغربية لا تسرق منا الأشياء فقط... إنها تعيدها إلينا بصورةٍ لم نكن نعرفها.

لقد غادرت الهند وأنا أظن أنني أعرفها. ثم وصلت إلى لندن... فاكتشفت أنني لم أكن أعرف سوى القرية التي ولدت فيها، والطرق التي اعتدت السير فيها، والوجوه التي ألفتها منذ طفولتي.

أما الهند... فكانت أكبر بكثير من ذاكرتي.

في الأيام الأولى، كلما سألني أحد:

"من أين أنت؟"

كنت أجيب بسرعة:

"من الهند."

وكان الجواب ينتهي عند هذا الحد.

لكن السؤال بدأ يتكرر.

وكل مرة، كنت أشعر أن الكلمة نفسها أصبحت أثقل.

الهند...

أي هند؟

هل هي المعابد التي نشأت بينها؟

أم الصحارى البعيدة التي لم أرها؟

أم جبال الهيمالايا التي كنت أعرف اسمها أكثر مما أعرفها؟

أم البنغال؟

أم البنجاب؟

أم مدراس؟

أم كجرات؟

كيف يستطيع وطنٌ واحد أن يحمل هذا العدد من اللغات، والملابس،
والعادات، والوجوه، ثم يظل وطنًا واحدًا؟

هناك فقط... بدأت أكتشف أن الوطن ليس مكانًا. إنه فكرة.

في لندن، لم يكن أحد يسألني عن طائفتي. ولا عن مدينتي. ولا عن
اسم العائلة. كانوا يرونني شيئًا واحدًا فقط... هنديًا. وأدهشني هذا
الأمر.

في الهند، كنا نرى ما يفرقنا. أما هنا... فلم أرَ إلا ما يجمعنا.

الغربة تملك قدرةً عجيبة. إنها تمحو الخطوط الصغيرة التي رسمناها
بيننا، وتترك الخط الكبير وحده.

لقد جعلتني لندن أفهم الهند... أكثر مما فعلت الهند نفسها. بدأت ألتقي
بطلاب هنود من مدن لم أزرها قط. سيخي من البنجاب. بنغالي
يعشق الشعر. شاب من مدراس يتحدث الإنجليزية أفضل من كثير
من الإنجليز. وتاجر من بومباي يحلم بالعودة ليؤسس مصنعًا في
وطنه. كنا مختلفين في كل شيء. في اللغة. وفي الطعام. وفي

الصلوات. وفي الملابس. لكن ما إن يجلس أحد الإنجليز معنا، حتى نتحول جميعاً إلى شيء واحد. هنود. حينها فقط، أدركت أن الإنسان لا يكتشف ما يجمعه بالآخرين... إلا عندما يقف معهم أمام عالم مختلف.

وذات مساء، دعاني أحد الزملاء إلى لقاءٍ صغير للطلاب الهنود. دخلت القاعة. فرأيت عشرات الوجوه. بعضها يرتدي العمامة. وبعضها القبعة الأوروبية. وبعضها يمزج بين الشرق والغرب، حتى بدا وكأنه يقف على جسرٍ بين عالمين.

دار الحديث طويلاً. تكلم بعضهم عن التجارة. وتحدث آخرون عن السياسة. وكان هناك من يرى أن مستقبل الهند لا يكون إلا إذا أصبحت نسخةً من أوروبا. وكان آخرون يرون أن خلاصها في العودة إلى الماضي.

جلست أستمع أكثر مما أتكلم. وأدركت أن كل واحدٍ منا كان يحمل هندياً مختلفة في قلبه. لكن الهند الحقيقية... كانت أكبر من تصوراتنا جميعاً.

وفي تلك الليلة، عدت إلى غرفتي، وأخرجت خريطة الهند. نشرتها على الطاولة. وأخذت أتأملها طويلاً. كم بدت عظيمة. وكم بدت مجروحة. كانت حدودها مرسومة بالحبر. لكنني كنت أشعر أن خطوطاً أخرى غير مرئية تشقها من الداخل. خطوط الدين. والطبقية. واللغة. والعرق.

سألت نفسي:

كيف استطاع الأجنبي أن يحكم هذا البلد؟

ثم جاءني الجواب بهدوء.

لأنه وجدنا متفرقين... قبل أن يصل.

إن الريح لا تكسر الغابة... إنما تكسر الأغصان المنفردة.

ومنذ ذلك اليوم، بدأت أقرأ تاريخ الهند بعينٍ جديدة. لم أعد أقرأه لأعرف ما حدث. بل لأفهم لماذا حدث. قرأت عن الممالك التي اقتتلت فيما بينها. وعن المدن التي ازدهرت ثم سقطت. وعن العلماء والمتصوفة والشعراء. واكتشفت أن الهند لم تكن فقيرة يوماً في العقول. بل كانت فقيرة في اجتماع تلك العقول على هدفٍ واحد. لقد كانت أرضاً تفيض بالحكمة... لكنها كانت تفتقر إلى الوحدة. وهناك فهمت أن الاستعمار لا يولد دائماً من قوة المحتل. كثيراً ما يولد من ضعف من وقع عليه الاحتلال.

لكن فكرةً أخرى كانت تؤلمني.

كلما قرأت كتاباً كتبه إنجليزي عن الهند، شعرت بمزيج غريب من الامتنان والحزن. الامتنان لأنه حفظ شيئاً من تاريخنا. والحزن لأن أبناء الوطن أنفسهم لم يكتبوا عنه بما يكفي.

قلت في نفسي:

إذا لم يكتب الشعب قصته... فسيكتبها عنه غيره. وربما يكتبها كما يراها هو، لا كما عاشها أصحابها.

ومنذ تلك اللحظة، أصبحت أؤمن أن تحرير الأوطان لا يبدأ بطرد الجنود. بل يبدأ باستعادة الرواية. فالذي يملك أن يروي تاريخك... يملك، إلى حدٍ بعيد، أن يرسم مستقبلك.

وفي صباحٍ ضبابي، كنت أعبر أحد شوارع لندن، حين مررت بمجموعةٍ من الأطفال الإنجليز. كانوا يدرسون خريطةً كبيرةً للإمبراطورية البريطانية. وأشار معلمهم إلى بقعةٍ واسعة من اللون الأحمر، وقال بفخر:

"هذه الهند... جوهرة التاج."

توقفت لحظة. تأملت الخريطة. كانت الهند، في نظرهم، قطعةً تزين تاج الإمبراطورية. أما في قلبي... فلم تكن جوهرةً في تاج أحد. كانت

أمًا. والأم لا تُعلق زينةً في رؤوس الملوك. الأم... يُقبل ترابها.
حين عدت إلى مسكني في ذلك المساء، أدركت حقيقةً لم أكن مستعدًا
لها. لقد جئت إلى لندن لأتعلّم كيف أكون محاميًا. لكن لندن كانت
تعلّمني شيئًا آخر. كانت تعلّمني كيف أكون هنديًا. لا هنديًا بالولادة...
بل هنديًا بالوعي.

فقد يولد الإنسان في وطنه، ولا يعرفه. ثم يغادره... فيكتشف أن
الوطن ليس المكان الذي خرج منه. بل الحقيقة التي يعود إليها، مهما
ابتعدت به الطرق.

وفي تلك الليلة، لم أشعر أنني أصبحت أقرب إلى لندن... بل شعرت،
للمرة الأولى منذ غادرت بمباي، أنني أصبحت أقرب إلى الهند.

يمضي الزمن ببطءٍ غريب حين ننتظره... ثم يركض فجأة، عندما
نلتفت إليه.

هكذا كانت سنوات لندن. في بدايتها، كنت أعد الأيام. ثم أصبحت
أعد الكتب. ثم صرت أنسى العدّ كله.

وحين نظرت إلى التقويم ذات صباح، أدركت أن السنوات التي
ظننتها بعيدة، قد انتهت.

لقد اقترب يوم التخرج.

دخلت قاعة الامتحان الأخيرة، وأنا أحمل بين يدي كتب القانون.
لكنني كنت أشعر أن الامتحان الحقيقي لم يكن مكتوبًا على الأوراق.
لقد كان مكتوبًا في داخلي.

جلست أمام الأسئلة. كانت مألوفة. قضايا. وسوابق قضائية.
ونصوص قانونية. أجبت عنها بهدوء. ولم أشعر بالخوف الذي كان
يرافقني في طفولتي كلما واجهت اختبارًا. لقد اكتشفت أن الخوف لا

يختفي عندما يصبح الإنسان أقوى... بل عندما يصبح أكثر صدقًا مع نفسه. فالذي يذاكر ليهزم الآخرين، يخاف. أما الذي يذاكر ليهزم جهله... فإنه يدخل الامتحان مطمئنًا.

وحين خرجت من القاعة، لم أشعر بالنشوة التي كنت أتخيلها. وقفت في الطريق المؤدي إلى الكلية. كانت الأشجار قد بدأت تستعيد خضرتها بعد شتاءٍ طويل. تأملت أوراقها الصغيرة. وسألت نفسي: كم مرة اعتقدت أن النهاية هي الغاية... ثم اكتشفت أنها مجرد بداية؟ إن الإنسان يشبه المسافر الذي يصعد جبلاً، معتقداً أن القمة نهاية الطريق. ثم ما إن يصل... حتى يرى جبلاً أخرى، كانت مخفية عنه. جاء يوم إعلان النتائج. ازدحمت الممرات بالطلاب. وجوهٌ قلقة. ووجوهٌ ضاحكة. وآخرون يحاولون إخفاء خوفهم خلف أحاديثٍ عابرة.

اقتربت من اللوحة التي علقت عليها الأسماء. بحثت عن اسمي. ثم وجدته. نجحت. بقيت أهدق في الحروف لحظات. لم أقفز فرحاً. ولم أصرخ. بل شعرت بسكونٍ عجيب. كأن الرحلة التي بدأت في ميناء بومباي، وصلت إلى أول مرافئها.

تسلّمت شهادتي. كانت ورقةً أنيقة. مختومة. تحمل اسمي. وضعتها بين يدي. ثم خطر لي خاطرٌ لم يفارقني: كم من الناس يحملون شهادات عظيمة... لكنهم يعجزون عن حمل مسؤوليتها. إن الورق لا يصنع عالماً. ولا يصنع قاضيًا. ولا يصنع إنساناً. إنه يمنح صاحبه حق أن يبدأ... ولا يمنحه حق أن يتكبر.

في تلك الأيام، أخذ بعض الزملاء يتحدثون عن المستقبل. أحدهم يريد منصباً كبيراً. وآخر يحلم بثروة. وثالث يتحدث عن الشهرة. كنت أستمع إليهم. ثم أسأل نفسي:

ما الذي أريده أنا؟ هل جنّت إلى هنا لأصبح محامياً ناجحاً؟ أم جنّت

لأتعلم شيئاً لا يُكتب في الشهادات؟

لم أجد جواباً كاملاً. لكنني كنت أشعر أن الطريق الذي ينتظرني، لا يشبه الطرق التي يتحدثون عنها. كان هناك صوتٌ خافتٌ في أعماقي يقول:

"ما تعلمته هنا... لن يبقى في قاعات المحاكم."

وفي مساءٍ هادئٍ، دخلت المكتبة التي صارت بيتي الثاني. مشيت بين الرفوف ببطء. مررت بالكتب التي رافقت وحدتي. وبالطاولة التي قضيت فوقها ساعاتٍ لا تحصى. وضعت يدي على أحد الرفوف. وأغمضت عيني. كم تغيّرت منذ دخلت هذا المكان أول مرة. دخلته وأنا أبحث عن المعرفة. وأغادره وأنا أعرف أن المعرفة لا نهاية لها. دخلته وأنا أظن أن الكتب تجيب عن الأسئلة. وأغادره بعدما أدركت أن الكتب العظيمة... تعلمنا كيف نسأل.

في غرفتي المتواضعة وقفت أمام المرأة، كما وقفت يوم اشتريت أول بدلة إنجليزية. ابتسمت لذلك الشاب الذي حاول، يوماً، أن يصبح إنجليزيًا. كم بدا بعيدًا الآن. لم أعد أحتاج إلى قبعةٍ لأشعر بالاحترام. ولا إلى عصاٍ لأبدو نبيلًا. ولا إلى لهجةٍ أجنبيةٍ لأثبت قيمتي. لقد علمتني لندن شيئاً لم أكن أتوقعه:

أن الإنسان لا يكبر بالضرورة بما يضيفه إلى نفسه... بل بما يتخلص منه. لقد تخلصت من خوفي. ومن غروري. ومن حاجتي إلى تقليد الآخرين. وكان ذلك أثمن من كل ما تعلمته في كتب القانون.

وفي الليلة الأخيرة، قبل أن أبدأ تجهيز حقائبي، أخرجت شهادتي مرةً أخرى. وضعتها على الطاولة. ثم وضعت إلى جوارها رسالة أمي، وبعض الكتب، وصورًا صغيرة احتفظت بها. تأملت الأشياء كلها. وسألت نفسي:

أيها سأحمله معي حقاً؟

أما الشهادة... فقد أستطيع أن أفقدها يوماً.

وأما الكتب... فقد تبقى في مكتبة ما.

لكن المبادئ التي ولدت هنا... فلن يستطيع أحد أن ينتزعها مني.

وهناك فقط، فهمت أن الشهادة لم تكن أعظم ما خرجت به من لندن. لقد كانت مجرد دليل على أنني أنهيت الدراسة. أما أعظم ما كسبته... فهو أنني تعلمت أن المعرفة إذا لم تجعل الإنسان أكثر تواضعاً، وأكثر رحمة، وأكثر صدقاً... فإنها لا تستحق أن تُسمى معرفة.

وحين أطفأت المصباح في تلك الليلة، لم أشعر أنني أنهيت فصلاً من حياتي. بل شعرت أن لندن انتهت من تعليمي ما كانت تريد أن تعلمنيه. أما الدرس الأكبر... فكان ينتظرني خارج أسوارها، في وطنٍ سأعود إليه حاملاً شهادةً في القانون... وقلباً لم يعد يشبه القلب الذي غادر الهند قبل سنوات.

يقول الناس إن العودة هي عكس الرحيل. أما أنا... فلم أجد بينهما أي شبه.

حين غادرت الهند، كنت أنظر إلى البحر بعيني شابٍ يخشى المجهول. وحين عدت إليها... كنت أنظر إلى البحر بعيني رجلٍ اكتشف أن المجهول يسكن الإنسان أكثر مما يسكن المحيطات.

لقد كان البحر نفسه... والسفن نفسها... وحتى الأمواج كانت تغني الأغنية القديمة ذاتها.

لكن الراكب... لم يعد هو نفسه.

وقفت على سطح السفينة في صباحٍ بارد، أراقب لندن وهي تبتعد شيئاً فشيئاً.

اختفت الأبراج أولاً. ثم المداخل. ثم البيوت. ثم ابتلع الضباب آخر ملامح المدينة، كأنها لم تكن موجودة قط.

ابتسمت في هدوء. لقد جاءت لندن لتعلمني درسًا عجيبيًا. إن بعض المدن لا تمنحك نفسها... بل تمنحك نفسك. وأدركت أنني، طوال السنوات الماضية، لم أكن أدرس القانون وحده. كنت أدرس الخوف. والغرور. والوحدة. والإرادة. وأتعلم، دون أن أشعر، كيف يصنع الإنسان وطنًا داخل قلبه، حتى وهو بعيد عن وطنه.

كان البحر أكثر هدوءًا هذه المرة. أو ربما كنت أنا الذي أصبحت أكثر هدوءًا. جلست ساعاتٍ طويلةٍ أحرق في الماء. وفكرت في ذلك الشاب الذي وقف هنا قبل سنوات، وهو يحمل حقيبةً صغيرة، وبدلةً جديدة، وكثيرًا من القلق.

أين ذهب ذلك الشاب؟

هل مات؟

أم أنه لا يزال يعيش في زاويةٍ خفيةٍ من روعي؟

ثم ابتسمت. الإنسان لا يقتل ماضيه. إنه يحمله معه... لكن بصورةٍ أكثر حكمة.

أخرجت من حقيبتي شهادة القانون. تأملتها طويلًا. كانت الورقة كما هي. لم يتغير فيها شيء. لكنني شعرت أنها أصبحت أصغر بكثير مما كانت عليه يوم استلمتها.

غريبٌ أمر الأوراق. نحن نقضي سنواتٍ لنحصل عليها... ثم نكتشف أن الحياة لا تسألنا عنها كثيرًا.

الحياة لا تسأل: "ماذا درست؟"

بل تسأل: "ماذا أصبحت؟"

ولم أكن أعرف يومها كيف سأجيب عن هذا السؤال.

ثم أخذت أتذكر أُمي. تركتها يومًا وهي تخشى أن تفقد ابنها في بلاد الغرب.

وتساءلت:

هل ستعرف، حين تراني، أنني ما زلت ذلك الابن الذي ودعته؟
لقد حافظت على وعدي. لم تمتد يدي إلى ما نهيتني عنه. لكنني عدت بشيء لم تطلبه مني. عدت بأسئلة جديدة. وبرؤية جديدة. وبإيمانٍ أعمق بأن الأخلاق لا تتغير بتغير البلاد. إنها إما أن تسكن القلب... أو لا تسكنه أبدًا.

ثم جاءت الهند إلى ذاكرتي. رأيت طرقاتها الترابية. وأسواقها الصاخبة. ورائحة التوابل التي كانت تختلط بهواء الصباح. ورأيت أيضًا وجوه الفلاحين، والعمال، والبسطاء الذين كنت أمر بهم قديمًا دون أن أتوقف طويلًا عند حكاياتهم. ولأول مرة، شعرت أنني مشتاق إليهم جميعًا. كنت قد سافرت إلى لندن لأتعلم كيف أتحدث أمام القضاة. لكنني اليوم أعود وأنا أرغب في أن أتعلم كيف أستمع إلى الفقراء. فالأمم لا تفهم من قصورها... بل من أكواخها.

وكانت فكرة الاحتلال ترافقني كظلٍ لا يغادر صاحبه. لقد عشت سنواتٍ في قلب الإمبراطورية. ورأيت الإنجليز عن قرب. رأيت علماءهم. وقضاتهم. وأساتذتهم. ورأيت فيهم فضائل لا يجوز إنكارها. كما رأيت في إمبراطوريتهم تناقضًا لم أستطع تجاهله. كيف يستطيع شعبٌ أن يؤمن بالحرية لنفسه... ثم يحرم غيره منها؟

كيف تستطيع أمةٌ أن تبني أرقى الجامعات... وفي الوقت نفسه تحكم أممًا لا تملك حق تقرير مصيرها؟

ولم أجد جوابًا.

لكنني أيقنت أنني إذا أردت يومًا أن أواجه هذه الإمبراطورية...

فلن أواجه شعبًا أكرهه. بل سأواجه فكرةً أرفضها.

وهناك فرقٌ عظيمٌ بين الأمرين.

إن كراهية البشر سهلة... أما مقاومة الظلم مع الاحتفاظ بمحبة الإنسان... فهي أصعب ما يمكن أن يتعلمه المرء.

وفي إحدى الليالي، بينما كانت السفينة تشق طريقها نحو الشرق، خرجت إلى السطح. كانت السماء ممتلئة بالنجوم. رفعت رأسي إليها طويلاً. ثم تذكرت طفولتي، حين كنت أهدق في السماء ذاتها من فوق سطح بيتنا في بوربندر.

ابتسمت.

النجوم لم تتغير. الذي تغير... هو الرجل الذي ينظر إليها. حين كنت طفلاً، كنت أسألها أن تمنحني مستقبلاً. أما الآن... فأسألها أن تمنحني شجاعةً أستحق بها ذلك المستقبل.

لقد أدركت أن المعرفة بلا شجاعة... تبقى حبيسة الكتب. والشجاعة بلا أخلاق... تتحول إلى طغيان. أما إذا اجتمعت المعرفة، والشجاعة، والرحمة... فربما استطاع الإنسان أن يغيّر شيئاً من هذا العالم.

وحين ظهرت سواحل الهند من بعيد أخيراً، شعرت أن قلبي يخفق كما خفق يوم غادرتها. لكن هذا الخفقان كان مختلفاً. لم يكن خفقان شوقٍ فقط... بل خفقان مسؤولية.

كانت الأرض التي أقترب منها هي نفسها. لكنني لم أعد أراها بالعين القديمة. لقد كنت أرى شعباً ينتظر أن يعرف نفسه. وأمةً عظيمةً تجهل مقدار عظمتها. وأناساً بسطاء لا يعلمون أن التاريخ قد يخرج يوماً من بين أيديهم المتعبة.

أما أنا...

فلم أكن أظن أن لي دوراً في كل ذلك. كنت أعتقد أنني أعود إلى

الهند لأبداً حياتي كمحامٍ شاب. ولم أكن أعلم أن القدر كان يبتسم مرةً أخرى. لأنه لم يكن يعيد إلى الهند محامياً... بل كان يعيد إليها سؤالاً. وسؤالٌ واحد، إذا كان صادقاً بما يكفي... قد يوقظ أمةً كاملةً.

الحياة تغلق باباً

لتفتح نافذة

يقولون إن الإنسان يعود إلى وطنه كما يعود النهر إلى البحر. لكنهم لا يخبرونك أن بعض الأنهار، حين تبلغ البحر، لا تعود تعرف الماء الذي خرجت منه.

كنت أقف على ظهر السفينة، بينما كانت شواطئ الهند ترتفع ببطء من قلب الضباب. هناك... خلف ذلك الخط البعيد الذي يعانق الأفق... كانت طفولتي. وكان أول خوف عرفته. وكان أول حلم صدقته. وكانت امرأة، لا أعرف إلى اليوم كيف استطاعت بقلب واحد أن تكون وطنًا كاملاً.
أمي.

كلما اقتربت السفينة من اليابسة، شعرت أن السنوات التي قضيتها في لندن لم تكن سوى حلمٍ طويل.

هل غبت فعلاً كل هذا الزمن؟

أم أن الزمن هو الذي غاب عني؟

لقد تعلمت في لندن أن أقيس الوقت بالساعات.

أما في الهند...

فكنا نقيسه بوجوه الأحبة.

ولهذا، فإن الغائب لا يشعر بطول الزمن... حتى يرى الشيب في رأس أبيه، أو التجاعيد في وجه أمه.

كان ميناء بومباي أكثر ازدحامًا مما تركته. العمال يركضون بين الصناديق. والبحارة يصرخون بلغاتٍ تمتزج كما تمتزج أمواج البحر. ورائحة الملح تختلط بالفلل، والهيل، والقهوة، والعرق الإنساني، حتى شعرت أن الهند لا تستقبل أبناءها بالكلمات... بل بالروائح.

أغمضت عيني. واستنشقت الهواء بعمق. ولأول مرة منذ سنوات،

شعرت أنني لا أتنفس الهواء... بل أتنفس الذاكرة. هناك روائح لا تدخل الأنف... بل تدخل العمر كله.

حين نزلت من السفينة، انحنيت دون أن أشعر. مددت يدي. ولمست التراب. لم يكن أحد ينظر إليّ. ومع ذلك، شعرت بشيء يدفعني إلى تلك الحركة. ربما لأن الإنسان، مهما ابتعد، يبقى مدينًا لأول حفنة تراب حملت خطواته. قبضت على شيء من الأرض بين أصابعي. ثم تركته يسقط ببطء. قلت في نفسي:

"ما أغربك يا هند... كلما ابتعدت عنك، ازددت حضورًا."

كانت العربات تمر من حولي. والباعة ينادون بأصواتهم التي لم تتغير. والنساء يمشين بثيابهن الزاهية، كأنهن يحملن الربيع على أكتافهن. ضحكات الأطفال كانت تتطاير في الأزقة كما كانت قديمًا. لكن شيئًا واحدًا تغير.

أنا.

لقد عدت إلى الشوارع نفسها... لكنني لم أعد الرجل نفسه. كنت أنظر إلى كل شيء بعينين تعلمتا في لندن أن تسألًا قبل أن تحكما. وأدركت أن الغربة لا تغير الأماكن... إنها تغير الطريقة التي ننظر بها إليها. في طفولتي، كنت أرى الهند بيتًا كبيرًا. ثم سافرت، فعرفت أنها قارة تختبئ داخل اسم. كم بدت عظيمة حين نظرت إليها من بعيد :

لغات لا يكاد يحصيها أحد.

أديان تتجاوز منذ قرون.

أنهار تحمل حضارات أقدم من كثيرٍ من الإمبراطوريات.

ومع ذلك... كانت هذه البلاد العظيمة تقف كل صباح لتتلقى أوامرها من جزيرة صغيرة وراء البحر.

كنت قد عشت بين الإنجليز. ورأيت فيهم علماء، وفلاسفة، ورجال قانون، وأناسًا كرماء. ولذلك لم أستطع أن أختصرهم في كلمة

"محتل". لكنني أيضًا لم أستطع أن أفهم كيف يستطيع شعبٌ يؤمن بالحرية لنفسه... أن يمنعها عن غيره.

لقد علمتني لندن أن أحب الحقيقة أكثر من الشعارات.

فليست كل إمبراطورية شرًا مطلقًا...

وليست كل أمةٍ خيرًا مطلقًا.

لكن الظلم... يبقى ظلمًا، مهما كان لسان من ينطق به.

كنت أمشي في الأسواق، وأراقب الوجوه. لم أعد أرى الناس كما كنت أراهم قبل سنوات. كنت أبحث في عيونهم. في انحناءة ظهور العمال. في صمت الفلاحين. في الأطفال الذين يبيعون الماء بدل أن يحملوا الكتب. واكتشفت أن الفقر ليس أن يخلو الجيب من النقود. الفقر الحقيقي... أن يعتاد الإنسان على الظلم، حتى يكف عن رؤيته. وهذا ما أخافني. لم أخف من الاحتلال... بل خفت من الاعتياد عليه. فالقيود التي تؤلم، قد تكسر يومًا. أما القيود التي يعتادها الناس... فإنها تصبح جزءًا من أجسادهم.

كان الجميع يسألني عن لندن. عن شوارعها. وعن ضبابها. وعن جامعاتها. وعن الإنجليز. وكنت أجيبهم بما رأيت.

لكن أحدًا لم يسألني السؤال الذي كان يملأ قلبي:

"وماذا رأيت في نفسك يا موهان؟"

لو سألني أحد ذلك اليوم... لقلت له:

لقد سافرت أبحث عن مهنة. فعثرت على إنسانٍ آخر يسكن داخلي. إن أخطر أنواع السفر ليست تلك التي تعبر البحار... بل تلك التي تعبر النفس. قد يرجع المسافر إلى بيته... لكن روحه لا تعود كما كانت أبدًا.

في كل بيت دخلته بعد عودتي، كانت عيناى تبحثان عن وجه واحد.
كنت أتخيلها تبتسم حين تراني. تسألني إن كنت ما زلت أوفيت
بوعدي. ثم تضع يدها على رأسي كما كانت تفعل دائماً. كنت أستعجل
اللقاء بها أكثر من استعجالي لأي نجاح ينتظرني.
ولم أكن أعلم...

أن القدر، في صمته، كان يخبئ لي الجرح الذي ستبدأ منه حياتي
الحقيقية...

كان البيت كما تركته في ذاكرتي. الجدران نفسها. والفناء نفسه.
والنافذة التي كانت أمي تجلس عندها في آخر النهار، تراقب الطريق،
وكانها تنتظر أحداً لا يتأخر أبداً.

توقفت عند الباب. لم أطرقه مباشرة. وقفت لحظة أستمع. كنت أظن
أنني سأسمع صوتها. صوتها وهي تنادي باسمي كما كانت تفعل منذ
طفولتي. الغريب أن الإنسان، مهما كبر، يظل يحمل في داخله طفلاً
لا يطمئن إلا إذا سمع صوت أمه.
ابتسمت. وحملت حقيبتني. ودخلت.

استقبلني الجميع بفرح. كانت الوجوه مألوفة. لكن شيئاً واحداً أفلقني
منذ اللحظة الأولى. كانت الفرحة ناقصة. ليست ناقصة بالكلمات...
بل بالصمت. هناك صمتٌ يشبه الغياب. وصمتٌ يشبه الخوف. وهذا
الصمت كان يشبه الحقيقة التي لا يريد أحد أن ينطق بها.

جلست بينهم. بدأت الأسئلة. كيف كانت لندن؟ هل كان البرد قاسياً؟
هل نجحت في دراستك؟ هل الإنجليز كما يقول الناس؟

أجبت عن كل شيء. إلا سؤالاً واحداً لم يطرحه أحد: أين أمي؟

في البداية، أقنعت نفسي بأنها في الداخل. ربما تعد الطعام. ربما
تصلي. ربما سمعت بوصولي، فأرادت أن تخفي دموعها قبل أن
تراني. هكذا تفعل الأمهات. يبكين وحدهن... ثم يبتسمن أمام أبنائهن.

انتظرت. ومرت دقائق. لكنها لم تأت. بدأ قلبي يضيق بشيء لا أعرف اسمه. نظرت إلى أخي. ثم إلى أحد أقاربي. كانوا يتجنبون النظر في عيني.

ولأول مرة منذ عودتي، شعرت أنني لا أخاف الجواب... بل أخاف السؤال.

قلت بهدوء:

"أين أمي؟"

لم يجب أحد.

أعدت السؤال.

هذه المرة خرج صوتي أضعف.

"أين أمي؟"

ساد صمتٌ طويل. ذلك النوع من الصمت الذي يسبق انكسار شيءٍ لن يُصلح أبدًا. اقترب أخي مني. جلس إلى جواربي. ووضع يده على كتفي. كانت يده ترتجف. ثم قال بصوتٍ خافت، كأنه يخشى أن تؤذي الكلمات نفسها:

"لقد أوصتنا... ألا نخبرك."

لم أفهم. حدقت فيه. قال:

"كانت تخشى أن يضيع مستقبلك إن علمت."

ثم سكت. ولم يعد يحتاج إلى أن يقول شيئًا آخر. لقد فهمت. قبل أن ينطق باسم الموت.

في تلك اللحظة... لم أشعر أن الأرض اهتزت. بل شعرت أنها اختفت. كأن الإنسان لا يسقط عندما تأتيه المصيبة... بل عندما يختفي الشيء الذي كان يقف عليه.

جلست. ثم وقفت. ثم عدت أجلس. لم أعرف ماذا أفعل بيدي. ولا بعيني. ولا بصوتي. كان كل شيء داخلي يبحث عنها. عن وجهها. عن ابتسامتها. عن تلك اليد التي كانت تضعها على رأسي كلما خفت من الدنيا. لكن البيت... كان خاليًا منها.

تذكرت الميناء. ذلك الصباح البعيد. حين وضعت يدها على رأسي، وقالت:

"لا تنسَ وعدك."

كم كانت كلماتها بسيطة. وكم كانت عظيمة.

لقد ظننت يومها أن الوعد كان امتحانًا لي. ثم أدركت الآن... أنه كان آخر هدية منها. كانت تعرف أنها قد لا تراني مرةً أخرى. فتركت لي وعدًا أعيش معه، حين تغيب هي.

أخرجت شهادتي من الحقيبة. نظرت إليها طويلًا. كم حلمت أن أضعها بين يديها. أن أرى الفخر في عينيها. أن أقول لها:

"لقد عدت يا أمي... ووفيت بما أردت."

لكن الورقة بقيت صامتة. وكنت أنا أيضًا صامتًا. هنا تعلمت أن بعض النجاحات تصل متأخرة. متأخرة إلى درجة أنها لا تجد من كنا نريد أن نهدئها إليه.

خرجت من البيت مع حلول المساء. لم أعرف إلى أين أمضي. قدماي كانتا تتحركان وحدهما. وصلت إلى مكان هادئ. وجلست على الأرض. كانت السماء تمتلئ بالنجوم. النجوم نفسها التي كنت أتأملها طفلاً. رفعت بصري إليها. ولم أدعُ الله أن يعيد إليّ أمي. كنت أعرف أن الموت لا يعيد أحدًا. لكنني دعوت دعاءً آخر. قلت:

"يا رب... اجعلني أستحق المرأة التي ربنتني."

لم أطلب النجاح. ولا المال. ولا الشهرة. طلبت فقط... ألا أخون القيم

التي زرعتها في قلبي.

في تلك الليلة، أدركت حقيقةً لم تعلمني إياها كتب القانون، ولا جامعات لندن. لقد اكتشفت أن الإنسان لا يرث عن أمه ملامحه فقط... بل يرث طريقته في رؤية العالم. وإذا كانت الأمهات يلدن أبناءهن مرةً واحدة... فإن ذكراهن يلدنهم مرةً أخرى بعد رحيلهن. لقد ماتت أمي... لكن شيئاً منها بدأ يعيش في داخلي بقوةٍ لم أعرفها من قبل:

كلما هممت أن أساوم على مبدأ... سمعت صوتها.
وكلما ضعفت أمام إغراء... رأيت يدها فوق رأسي.
وكلما ضللت الطريق... وجدت وصيتها تمسك بيدي.

يقول الناس إنني عدت من لندن أحمل شهادةً في القانون. أما أنا... فأعرف أنني عدت أحمل شيئاً أثقل من كل الشهادات. عدت أحمل غياباً. والغياب، إذا دخل قلب إنسانٍ صادق... قد يتحول إلى رسالة. وفي تلك الليلة، لم أفهم لماذا بدأ الله رحلتي إلى المستقبل بهذا القدر من الألم. لكنني، بعد أعوام طويلة، سأدرك أن بعض القلوب لا تصبح قادرةً على حمل آلام أمةٍ كاملة... إلا بعد أن تتعلم أولاً كيف تحمل ألمها الخاص. ولعل أمي، وهي تغادر هذا العالم بصمت، لم تكن تودع ابنها فقط... بل كانت، دون أن تدري، توظف في داخله الرجل الذي سيقضي ما بقي من عمره يبحث عن الحقيقة، كما بحث يوماً عن وجهها بين جدران ذلك البيت... فلم يجده، ووجد نفسه.

يظن الناس أن الهزائم العظيمة تبدأ بصوتٍ مرتفعٍ. ببابٍ يُصفق. أو بمعركةٍ يخسرها الإنسان أمام أعين الجميع. أما أنا... فأعرف أن بعض الهزائم تبدأ بصمتٍ. صمتٍ صغير... هادئ... لا يسمعه أحد. لكنه يظل يتردد في أعماق الإنسان سنواتٍ طويلة، حتى يصبح جزءاً من صوته الداخلي.

وأول هزائمي...

لم تكن أمام جيش.

ولا أمام إمبراطورية.

بل كانت أمام رجلٍ واحد، يجلس في قاعة محكمة، ينتظر أن أنطق. بعد وفاة أمي، حاولت أن أقنع نفسي بأن أفضل وفاءٍ لها هو أن أبدأ الحياة التي حلمت بها من أجلي. قلت لنفسي إن الحزن، مهما كان عظيماً، لا ينبغي أن يتحول إلى قبرٍ ندفن فيه المستقبل.

جمعت كتبتي. ونظمت أوراقتي. واستأجرت مكتباً صغيراً. لم يكن فخماً. كانت جدرانه متواضعة، وأثاثه قليلاً، لكنني كنت أراه أكبر من كل قصور لندن. لأنه كان أول مكانٍ سأقف فيه وحدي، دون أستاذٍ يعلمني، أو كتابٍ يقودني.

كنت، لأول مرة، مسؤولاً عن نفسي.

مرت الأيام بطيئة. أجلس خلف المكتب ساعاتٍ طويلة. أرتب الأوراق. أعيد ترتيبها. أقرأ مواد القانون مرةً أخرى. ثم أنظر إلى الباب. أنتظر أن يدخل أول موكل. وكان الباب يبقى مغلقاً. اكتشفت يوماً أن الشهادة تستطيع أن تمنحك العلم... لكنها لا تستطيع أن تمنحك الثقة التي يضعها الناس في اسمك. فالسمعة لا تُمنح مع الشهادات. إنها تُبنى بصبرٍ يشبه بناء المعابد القديمة. حجراً... بعد حجر.

وفي صباحٍ بدا عادياً، دخل رجلٌ بسيطٌ إلى مكتبي. كان يحمل بين

يديه ملفاً صغيراً. تحدث إليّ بخجل. ثم شرح لي قضيته. كانت قضيةً بسيطة. نزاعاً مدنياً لا يكاد يلتفت إليه كبار المحامين. لكنني شعرت، وأنا أستمع إليه، كأنني أستلم مفاتيح العالم.

هذه هي البداية، قلت لنفسي.

كل نهرٍ عظيم... كان يوماً قطرة.

ابتسمت للرجل. وقبلت القضية. ولم يكن يعلم أنه وضع بين يديّ أكثر من أوراق. لقد وضع بين يديّ أول امتحانٍ حقيقي لحياتي.

في الليلة التي سبقت الجلسة، لم أنم إلا قليلاً. جلست أراجع المذكرات. وأعيد قراءة النصوص. وأتخيل الأسئلة التي سأطرحها على الشهود. بل إنني كنت أتخيل إعجاب القاضي بدقة مرافعتي.

كم هو كريم الخيال مع الشباب. إنه يمنحهم انتصاراتٍ مجانية، قبل أن تبدأ المعركة. لكن الحياة... لا تعترف بانتصارات الخيال.

جاء الصباح. ارتديت بدلتني بعناية. ربطت ربطة عنقي مراتٍ عدة حتى استقرت كما أردتها. تأملت وجهي في المرآة. رأيت محامياً. لكنني لم أرَ بعد الرجل الذي يستطيع أن يقف بثبات أمام الناس.

خرجت من البيت. وكانت خطواتي تبدو واثقة. أما قلبي... فكان يسبقني إلى المحكمة، مرتجفاً.

دخلت قاعة المحكمة. كان المكان مختلفاً عن كل ما تخيلته. رائحة الورق القديم. صوت المقاعد الخشبية. همسات المحامين. القاضي الجالس في مكانه، تحيط به هيئة المنصب أكثر مما تحيط به الجدران.

جلست أنتظر دوري. وكلما اقتربت اللحظة، شعرت أن الكلمات التي حفظتها طوال الليل بدأت تبتعد عني. كأنها تعرف طريق الهروب أكثر مما تعرف طريق لساني.

ثم نادى الحاجب على القضية.

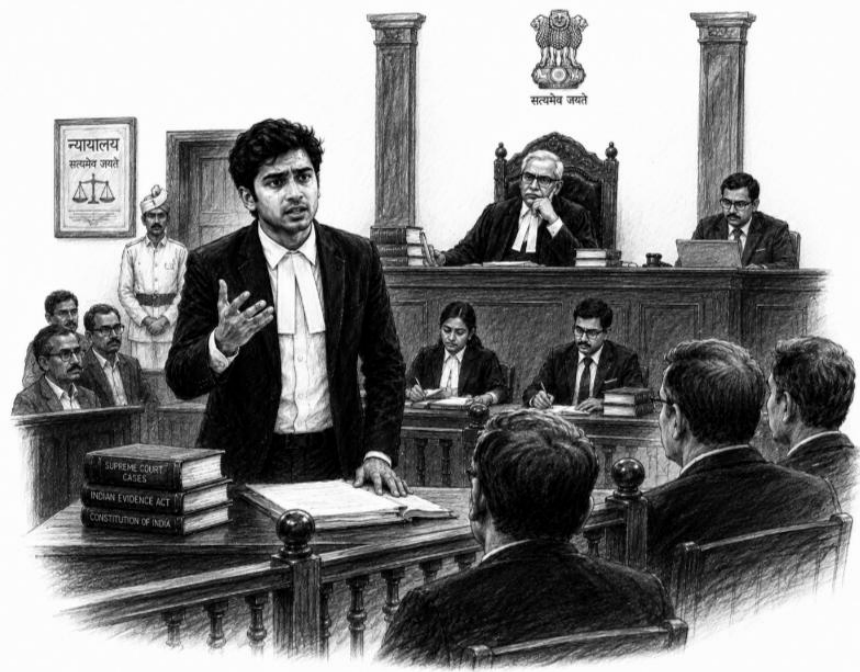
وقفت. حملت أوراقى. وسرت نحو المكان المخصص للمرافعة.

كنت أسمع وقع خطواتى بوضوح. حتى خُيِّل إليّ أن القاعة كلها لا تسمع إلا صوت حذائي فوق الأرض.

وقفت. رفع القاضي رأسه. نظر إليّ. ثم أشار أن أبدأ.

في تلك اللحظة... حدث شيءٌ لم أتوقعه. فرغ رأسي تمامًا. لم أعد أتذكر النصوص. ولا الحجج. ولا حتى الجملة التي كنت أنوي أن أبدأ بها. كانت الكلمات موجودة في مكانٍ ما داخل عقلي... لكن الطريق بينها وبين لساني انقطع فجأة.

حاولت أن أتكلم. خرج صوتي ضعيفًا. ثم اختفى. نظرت إلى الشاهد. ثم إلى القاضي. ثم إلى أوراقى. كانت الحروف أمامي تتحول إلى أشكالٍ لا معنى لها. مددت يدي لأقلب الصفحة. فاكتشفت أن أصابعي ترتجف. كنت أسمع دقات قلبي أعلى من صوت المحكمة. ولأول مرة في حياتي، أدركت أن الخوف ليس فكرة. الخوف... جسد. إنه يسكن اليد، فترتعش. ويسكن الحنجرة، فتجف. ويسكن الذاكرة، فتمحو كل ما حفظته.



انتظرت القاعة أن أتابع. وانتظرني موكلي. وانتظرني القاضي. أما أنا... فكنت أنتظر نفسي. لكنها لم تأت.

مرت ثوانٍ قليلة. غير أنها بدت لي أطول من سنوات لندن كلها. ثم سمعت صوت القاضي يدعوني إلى الجلوس. لم يكن في صوته سخرية. ولا غضب. وكان ذلك أشد قسوة. فالرحمة، أحياناً، تخرج أكثر من الإهانة.

جلست. وأنا أشعر أنني لم أخسر قضية. بل خسرت الصورة التي رسمتها لنفسي طوال سنوات.

انتهت الجلسة سريعاً. خرج الناس كما دخلوا. أما أنا، فخرجت وكأنني أحمل جبلاً فوق كتفي. كان موكلي يسير إلى جوارى. اعتذرت إليه. وأعدت له أتعابه. لم أشأ أن أدافع عن نفسي. فالرجل لم يكن بحاجة إلى اعتذار. كان بحاجة إلى محامٍ. وأنا، في ذلك اليوم، لم أستطع أن أكونه.

خرجت أمشي في الشوارع ساعاتٍ طويلة. لم أكن غاضباً من المحكمة. ولا من القاضي. ولا حتى من نفسي. كنت أحاول أن أفهم. كيف استطاع الشاب الذي قطع آلاف الأميال، ودرس القانون في لندن، أن يعجز عن نطق جملةٍ واحدة؟

ثم جاءني الجواب، هادئاً كعادته.

لقد كنت أعرف القانون... لكنني لم أكن أعرف نفسي بعد. وهناك فرقٌ شاسع بين الأمرين. فقد يحفظ الإنسان آلاف الصفحات... ويظل عاجزاً عن مواجهة دقيقةٍ واحدة مع خوفه.

جلست عند الغروب في مكانٍ هادئ. راقبت الشمس وهي تختفي ببطء. وفكرت في ذلك اليوم. كان بإمكانني أن أعتبره نهاية الطريق. وأن أدفن شهادتي. وأعود إلى حياةٍ أخرى. لكن شيئاً في داخلي رفض

الاستسلام. لقد أدركت أن الفشل ليس حكمًا يصدره العالم علينا.

إنه سؤال. والإنسان وحده هو الذي يقرر كيف يجيب عنه.

بعضهم يجيب بالهروب.

وبعضهم يجيب بالمرارة.

أما أنا...

فلم أكن أعرف بعد كيف سأجيب.

لكنني كنت أشعر أن هذه الهزيمة الصغيرة لم تأتِ لتمنعني من السير.

لقد جاءت لتمنعني من الغرور.

حين عدت إلى البيت تلك الليلة، وضعت روب الحمامة على

الكرسي. ظللت أنظر إليه طويلاً. في الصباح، كنت أراه رمزاً

للنجاح. وفي المساء، صار يذكرني بحقيقة لم أتعلمها في أي جامعة.

إن الثوب لا يمنح صاحبه الشجاعة.

كما أن الشهادة لا تمنح صاحبها الحكمة.

كل ذلك يجب أن يُولد من الداخل.

وأنا...

كنت ما أزال في بداية الولادة.

لم أكن أعلم أنني، بعد أعوام، سأقف أمام مئات الآلاف من الناس،

وأخطب دون خوف. ولم أكن أعلم أن الرجل الذي عجز اليوم عن

مخاطبة قاضٍ واحد... سيجد نفسه يوماً يخاطب ضمير أمة كاملة.

لكن الحياة كانت تعرف ما تفعله. فقد شاءت أن تعلمني، منذ أول

خطوة، أن الإنسان الذي لا يتذوق مرارة الفشل... قد لا يعرف أبداً

كيف يصنع انتصاراً يستحق أن يبقى.

ثمة مدنٌ تحتضنك منذ اللحظة الأولى. تمد يدها إليك كما تمد الأم ذراعها لطفلٍ غاب طويلاً.

وثمة مدنٌ أخرى... تقف أمامك صامتة. لا تطردك. ولا تستقبلك. تتركك واقفاً على عتبتها، حتى تثبت لها أنك تستحق الدخول. وكانت بومباي، بالنسبة إليّ، من هذا النوع.

لم تكرهني.

لكنها أيضاً...

لم تؤمن بي.

كل صباح، كنت أصل إلى مكتبي قبل شروق الشمس بقليل. أفتح النوافذ. أنفض الغبار عن الطاولة الخشبية. أرتب الكتب فوق الرفوف بعنايةٍ مبالغ فيها، كأن النظام الذي أصنعه حولي يستطيع أن يعوض الفوضى التي كانت تعيش داخلي. ثم أجلس. وأنتظر. كان الانتظار، في تلك الأيام، مهنةً أخرى إلى جانب المحاماة.

أنتظر موكلاً.

أنتظر فرصة.

أنتظر أن يحدث شيءٌ يقنعني بأن السنوات التي قضيتها في لندن لم تكن حلمًا جميلاً انتهى عند أول محكمة.

لكن الباب... كان يبقى مغلقاً.

كان ضوء الشمس ينتقل ببطء فوق أرضية المكتب. أراقبه كما يراقب السجين ظل النافذة. في الصباح، يكون قريباً من الباب. وعند الظهر، يستقر في منتصف الغرفة. ثم ينسحب مع المساء، تاركاً المكان أكثر برودةً ووحشة.

وكنت أكتشف، مع كل يومٍ يمضي، أن الزمن لا يُقاس بالساعات فقط. بل بعدد الآمال التي تموت بين ساعةٍ وأخرى.

كنت أخرج أحيانًا إلى الشارع، لا لأن لدي عملاً، بل لأن الجدران بدأت تحفظ صمتي أكثر مما ينبغي. وكانت بومباي مدينةً لا تعرف التوقف. التجار يركضون وراء أرباحهم. والسفن تدخل الميناء محملةً ببضائع من قاراتٍ بعيدة. والخيول تجر العربات في الطرقات الواسعة. وكان الإنجليز يمشون بثقة من اعتاد أن يرى البلاد ملكًا له. أما الهنود... فكان كثير منهم يسيرون مطأطيء الرؤوس، كأنهم يخشون أن يزعجوا الهواء الذي يتنفسه المحتل. ولم أكن أرى في ذلك جنبًا. بل أثرًا طويلًا لسنواتٍ من الاعتياد. فالإنسان لا يولد منحنيًا. لكن الأيام تستطيع أن تثني ظهره، إن طالت.

وذات يوم، مررت أمام مكتب أحد المحامين المشهورين. كان المكان مزدحمًا. العربات تقف أمام الباب. والموكلون ينتظرون دورهم.

دخل رجلٌ بسيطٌ يحمل ملفًا. فاستقبله الموظفون باحترام.

وقفت أتأمل المشهد من بعيد. لم أشعر بالحسد. بل بشيءٍ أقرب إلى الفضول. ما الذي يملكه ذلك الرجل ولا أملكه أنا؟

أهي المعرفة؟

ربما لا.

أهي الخبرة؟

بلا شك.

لكنني أدركت أن الخبرة لا تُشتري. ولا تُمنح مع الشهادات. إنها تُولد من تكرار السقوط... ثم الوقوف.

بدأت أسمع نصائح كثيرة. قال لي بعضهم:

"عليك أن تتقرب من أصحاب النفوذ."

وقال آخر:

"المهنة لا تقوم على القانون وحده، بل على العلاقات."

وقال ثالث، وهو يبتسم ابتسامةً يعرف أصحابها خفايا الدنيا:

"إذا أردت النجاح سريعًا، فتعلم كيف ترضي الرجال قبل أن ترضي العدالة."

كنت أستمع. ثم أعود إلى مكتبي أكثر صمتًا. لقد فهمت ما يقصدونه. لكن شيئًا في داخلي كان يرفض أن يجعل المبادئ سلعةً في سوق النجاح. قد يكون الطريق الذي يقترحونه أقصر. لكنه لم يكن الطريق الذي أستطيع أن أنظر إلى نفسي بعده في المرآة.

وفي إحدى الأمسيات، كنت أسير بمحاذاة المحكمة. فرأيت رجلًا عجوزًا يجلس على الدرج الحجري، يحتضن ملفًا قديمًا. جلست إلى جواره. سألته عن حاله. ابتسم ابتسامةً متعبة، وقال:

"أراجع المحاكم منذ ثلاث سنوات. كلما دفعت أجر محامٍ، احتجت إلى بيع شيءٍ آخر من أرضي."

ظل صامتًا لحظة، ثم أضاف:

"أحيانًا أشعر أن القضية ليست بيني وبين خصمي... بل بيني وبين الزمن."

غادرت ذلك الرجل، لكن كلماته بقيت تسير معي. لقد اكتشفت أن العدالة، حين تصبح رحلةً لا يقدر عليها إلا الأغنياء، تفقد شيئًا من معناها.

بدأت أنظر إلى مهنة المحاماة بعينٍ مختلفة. كنت قد دخلتها وأنا أظن أن المحامي يقف بين الحق والباطل. لكنني رأيت أن كثيرًا من المحامين يقفون بين المال والمال. لا أقول إنهم جميعًا كانوا كذلك. فقد عرفت رجالًا شرفاء، جعلوا من القانون رسالة. لكنني رأيت

أيضًا آخرين يحولونه إلى تجارة. وحين تتحول العدالة إلى تجارة... لا يخسرها الأغنياء. بل يخسرها أولئك الذين لا يملكون ثمن الدفاع عن أنفسهم.

كانت بومباي تعلمني كل يوم درسًا جديدًا. تعلمت أن الشهرة لا تأتي لأنها مستحقة. وأن الكفاءة وحدها لا تكفي. وأن المجتمع، مثل الإنسان، قد يحكم على الوجوه قبل أن يسمع الكلمات. وفي البداية، كنت أغضب من ذلك. ثم هدأت. وأدركت أن العالم ليس ملزمًا بأن يمنحني فرصةً لأنني أظن أنني أستحقها. العالم لا يعرف ما نستحق. إنه يرى فقط ما قدمناه. ولم أكن قد قدمت شيئًا بعد.

ذات مساء، عدت إلى مكتبي بعد يومٍ طويل. جلست في الظلام، ولم أشعل المصباح. تركت الغرفة تغرق في السكون. ثم نظرت إلى الكرسي المقابل لي. كان فارغًا. كم من الساعات قضيتها أنتظر أن يجلس عليه موكل. وفجأة، خطر لي أن الكرسي لم يكن فارغًا كما ظننت. كان يجلس عليه صبري. وكان يجلس عليه غروري وهو يتأكل بصمت. وكان يجلس عليه الرجل الذي سأصبحه يومًا، لكنه لم يولد بعد. ابتسمت لأول مرة منذ أيام. لقد كنت أظن أنني أضيع وقتي. لكن الحياة لم تكن تضيع شيئًا. كانت، في هدوءٍ لا تملكه إلا هي، تنحت روعي كما ينحت النهر الصخر. ببطء... دون ضجيج... ودون أن أشعر.

وفي تلك الليلة، كتبت في دفثري جملةً قصيرة. لم أكتبها لأحد. كتبتها لنفسي.

"إن المدينة التي لا تفتح أبوابها لك... قد تكون المدينة التي تفتح أبواب قلبك."

ثم أغلقت الدفتر. وأطفأت المصباح. ولم أكن أعلم أن بومباي، بكل ما منحنتني من صمتٍ ووحدةٍ وفشل، لم تكن تُبعدني عن رسالتي. بل كانت، خطوةً بعد خطوة، تدفعني نحو الطريق الذي لم يكن ينتظرني

في الهند أصلاً... بل وراء بحرٍ آخر، وفي أرضٍ لم أكن أعرف عنها
إلا اسمها:

جنوب أفريقيا.

لطالما ظننت أن الإنسان يحتاج إلى السفر كي يكتشف العالم. لكنني
اكتشفت أن أصعب رحلةٍ في الحياة... ليست إلى بلدٍ جديد. بل إلى
البلد الذي ولدت فيه.

فحين كنت طفلاً، كانت الهند بالنسبة إليّ بيتاً واسعاً. وحين عدت من
لندن، أصبحت سؤالاً واسعاً. ولم أعد أستطيع أن أنظر إليها كما كنت
أنظر إليها من قبل. لقد نزعت الغربة عن عيني ستار العادة.
وأصبحت أرى الأشياء التي كنت أمر بها كل يوم، وكأنني أراها
للمرة الأولى.

كنت أخرج من مكثبي كل صباح، وأترك قدمي تختاران الطريق. لم
أعد أسير بحثاً عن عمل. بل صرت أسير بحثاً عن فهم.

كانت الأسواق تضج بالحياة. الأقمشة الملونة تتدلى من الدكاكين
كأنها قطعٌ من قوس قزح. روائح التوابل تملأ الهواء. أصوات الباعة
ترتفع، ثم تختلط بضحكات الأطفال وصهيل الخيل. ومن بعيد، كانت
أجراس المعابد تمتزج بنداء المؤذن، حتى يخيل إلى المرء أن الهند
كلها تصلي بلغاتٍ مختلفةٍ لإلهٍ واحد. وكان هذا التنوع يدهشني كل
يوم. كيف استطاعت هذه الأرض أن تجمع هذا العدد من العوالم في
وطنٍ واحد؟

لكنني، كلما أطلت النظر، رأيت وجهاً آخر للهند. وجهاً لا يظهر
للسائح. ولا يلتقطه الرسامون. رأيت الفلاح الذي يعمل منذ الفجر
حتى المغيب، ثم يعود إلى كوخٍ لا يقي أبناءه المطر. ورأيت المرأة
التي تحمل الماء على رأسها مسافاتٍ طويلة، بينما ينظر إليها العالم

كانها جزءٌ من الطريق. ورأيت أطفالاً حفاة، يبيعون ما يستطيعون بيعه، قبل أن يتعلموا كيف يكتبون أسماءهم.

كان الفقر في الهند لا يصرخ. بل يصمت. ولعل الصمت هو أكثر أشكال الألم قسوة. كنت أقف أحياناً عند أطراف القرى. أتأمل الحقول الممتدة. الأرض كانت كريمة. والشمس سخية. والأنهار لا تبخل بالماء. فسألت نفسي مراراً:

كيف تجتمع هذه الخيرات كلها... ويبقى هذا العدد من الناس جائعاً؟ هناك أدركت أن الجوع لا يولد دائماً من قلة الطعام. أحياناً... يولد من سوء العدالة. فالطبيعة نادرة ما تظلم الإنسان. أما الإنسان... فقد أتقن ظلم أخيه الإنسان.

ثم بدأت أرى الجرح الذي لم أكن أفهمه في طفولتي:
الطبقات.

كنت أرى رجلاً يبتعد عن آخر، لا لأنه يكرهه، بل لأنه وُلد في طبقةٍ مختلفة. ورأيت من يُحرم من الماء الذي يشربه غيره. ومن يُمنع من دخول مكانٍ لأنه ينتمي إلى أسرةٍ معينة.

كان ذلك يؤلمني. لا لأنني كنت أجهل وجوده. بل لأنني كنت قد اعتدت عليه صغيراً، حتى ظننته جزءاً من نظام الكون.

لكن لندن علمتني أن كثيراً مما نسميه "عادة"... ليس إلا ظلماً طال عليه الزمن. ومن أخطر أنواع الظلم... ذلك الذي يلبس ثوب التقاليد.

كنت أسأل نفسي:

كيف يمكن لأمةٍ تطلب الحرية من مستعمرٍ أجنبي... وهي لا تمنح الحرية الكاملة لبعض أبنائها؟ أليس الظلم، مهما تغير اسمه، يظل ظلماً؟ وأليس الذي يرضى أن يُهان إنسانٌ بسبب مولده، يزرع البذرة نفسها التي ينبت منها الاستبداد؟

هناك بدأت أفهم أن تحرير الوطن لن يكون كاملاً، إذا بقي الإنسان أسيراً لأفكارٍ تحتقر أخاه الإنسان. فالاستعمار قد يخرج من الحدود... لكن الكراهية، إذا بقيت في القلوب، ستصنع مستعمراً جديداً كل يوم. وكان الاحتلال البريطاني حاضراً في كل مكان.

في المحاكم.

وفي الدوائر الحكومية.

وفي المعسكرات.

وفي أعلامٍ ترفرف فوق المباني الرسمية.

لكن ما أثار دهشتي، لم يكن وجود الجنود. بل اعتياد الناس عليهم. كان الطفل يولد، فيراهم أمامه منذ يومه الأول. ويكبر، فلا يتخيل أن البلاد يمكن أن تكون يوماً بلا جنود أجانب. وهناك فهمت أن الاحتلال، إذا طال عمره، لا يكتفي بالسيطرة على الأرض. إنه يحاول أن يحتل الخيال أيضاً. يجعل الناس يظنون أن الواقع القائم هو الواقع الوحيد الممكن. وحين يموت الخيال... تموت الحرية قبل أن تموت الأمة.

ذات يوم، مررت بمدرسةٍ صغيرة. كان الأطفال يرددون دروسهم بصوتٍ واحد. ووقفت أستمع إليهم. ثم رأيت معلماً يرسم خريطة الهند على لوح خشبي. اقتربت أكثر. كانت الخريطة جميلة. لكنها بدت لي ناقصة. ليست ناقصة في حدودها... بل في معناها. فالوطن لا ترسمه الجبال والأنهار وحدها. الوطن ترسمه الكرامة. وقد تمتلك أمةً أكبر مساحةً على الخريطة... لكنها، إن فقدت كرامتها، تصبح أصغر من نقطةٍ على الورق.

ومع مرور الأيام، بدأت أفهم شيئاً آخر. كنت أظن أنني أبحث عن قضيةٍ أَدافع عنها في المحكمة. لكن الحياة كانت تقودني إلى قضيةٍ أكبر من كل المحاكم. كانت الهند كلها، بأفراحها وجراحها، تقف

أمامي كموكلٍ صامت. لا يطلب المال. ولا يبحث عن حكمٍ قضائي. بل ينتظر من يسمع صوته. ولم أكن أملك الشجاعة لأقول إنني الرجل الذي يبحث عنه هذا الوطن. بل على العكس... كنت أشعر أنني أصغر بكثير من هذه المهمة. لكن البذرة الأولى كانت قد زُرعت. والأشجار العظيمة لا تبدأ أشجارًا. إنها تبدأ فكرةً صغيرة، بالكاد يلاحظها أحد.

في إحدى الأمسيات، جلست على ضفة نهرٍ هادئ. راقبت الماء وهو يمضي دون أن يسأل أحدًا عن دينه، أو طبقتة، أو لغته. النهر لا يميز بين من يشرب منه. والشمس لا تختار على أي بيتٍ تشرق. والريح لا تسأل الأشجار عن أنسابها. تأملت الطبيعة طويلاً. ثم سألت نفسي: إذا كانت قوانين الله في الكون قائمةً على المساواة... فمن أين جاء الإنسان بكل هذا الشغف في تقسيم الإنسان؟

أغلقت عيني. وشعرت أن الهند، لأول مرة، لم تعد مجرد الأرض التي وُلدت عليها. لقد أصبحت مرآةً أرى فيها ضعفي، وألمي، وأملي. وأدركت أنني إذا أردت يومًا أن أخدم هذا الوطن، فلن يكون ذلك بالدفاع عن رجلٍ واحد داخل محكمة. بل بالدفاع عن فكرةٍ تجعل كل رجلٍ وامرأةٍ وطفل، يشعر أن هذا الوطن خُلِق له أيضًا.

وحين نهضت من مكاني، لم أكن أحمل جوابًا واحدًا. لكنني كنت أحمل يقينًا بدأ ينمو في أعماقي ببطء. إن الله لم يُعدني من لندن لأكسب القضايا... بل لأتعلم كيف أرى الناس. ومن يرى الناس حقًا... قد يعجز بعد ذلك عن أن يعيش لنفسه وحدها.

كنت أظن أن الطرق العظيمة تبدأ بخطواتٍ عظيمة. ثم علمتني الحياة أن أكثر المنعطفات تأثيرًا في عمر الإنسان قد تبدأ بورقةٍ صغيرة، يحملها ساعي بريد، ويضعها على طاولةٍ خشبية، ثم يمضي غير مدركٍ أنه غير مصير رجل.

ذلك الصباح، لم يكن يختلف عن سائر الصباحات. استيقظت مبكرًا. فتحت نافذة مكتبي، فدخل هواء بومباي متقلًا برائحة البحر. جلست أمام أوراقي، أراجع قضيةً لم تأت، وأرتب ملفاتٍ لم يطلبها أحد. كنت قد اعتدت الانتظار. حتى صار الانتظار جزءًا من شخصيتي. ولم أكن أعلم أن القدر، هو الآخر، كان ينتظر اللحظة المناسبة.

طرق الباب طرقًا خفيًا. دخل ساعي البريد. ناولني ظرفًا سميكًا، ثم انصرف. قلبت الظرف بين يدي. لم أعرف الخط. ولم أعرف اسم المرسل. فتحت الرسالة ببطء. وبدأت أقرأ.

كانت من شركةٍ تجارية يملكها أحد التجار الهنود في جنوب أفريقيا. كانت الشركة تخوض نزاعًا قانونيًا مع شركةٍ أخرى، وتحتاج إلى محامٍ جيد الإنجليزية والهندية معًا، ويستطيع السفر لمدة عام للمساعدة في القضية.

أعدت قراءة الرسالة مرةً ثانية.

ثم ثالثة.

لم يكن السبب أنني لم أفهم كلماتها. بل لأنني لم أصدق أنها كتبت إليّ.

أغلقت الرسالة، وأسندت رأسي إلى الكرسي. كم هو غريب هذا العالم. حين كنت أبحث عن الفرص، كانت تختبئ مني. وحين توقفت عن مطارقتها، جاءت تبحث عني.

تساءلت:

أهي فرصة؟

أم امتحان جديد؟

لقد سافرت مرةً إلى لندن، وعدت رجلاً مختلفًا. فهل عليّ أن أغادر الهند مرةً أخرى؟ وهل كُتب عليّ أن أظل أتعرف إلى وطني من خلال الغربية؟

في تلك الليلة، لم أستطع النوم. وضعت الرسالة أمامي. ثم أخذت أتأملها كما لو أنها خريطةٌ تقود إلى مستقبلٍ مجهول. كانت جنوب أفريقيا، بالنسبة إليّ، اسمًا أكثر منها مكانًا. أعرف أنها تقع في أقصى الجنوب. وأعرف أن آلاف الهنود يعملون فيها تجارًا وعمالًا. وأعرف أنها جزءٌ من العالم الذي تبسط عليه الإمبراطورية البريطانية نفوذها. لكنني لم أكن أعرف شيئًا عن الحياة هناك. وربما لهذا السبب... أخافتني. فالإنسان لا يخشى المجهول لأنه مظلم. بل لأنه لا يستطيع أن يتخيل ملامحه.

وفي الأيام التالية، أخذت أسأل كل من أعرفه عن تلك البلاد. كان بعضهم يقول:

"إنها أرض الفرص."

ويقول آخر:

"إنها أرضٌ قاسية، يعامل فيها الهنود معاملةً سيئة."

وكان ثالثٌ يضحك ويقول:

"اذهب علمًا، واجمع المال، ثم عد."

كنت أستمع إلى الجميع. لكنني شعرت أن أحدًا لا يستطيع أن يتخذ القرار نيابةً عني. فهناك قرارات، مهما كثرت النصائح حولها، لا يسمع الإنسان فيها إلا صوته الداخلي.

جلست ذات مساءً مع أخي. قرأ الرسالة بصمت. ثم نظر إليّ طويلًا.

قال:

"لقد عدت من لندن منذ وقتٍ قصيرٍ. أما يكفيك سفر؟"

ابتسمت. ولم أعرف كيف أجيبه. فالحقيقة أنني كنت أتمنى أن أستقر. أن أبنى مكتبًا. وأن أعيش حياةً هادئةً كما يعيش آلاف المحامين. لكن الحياة، فيما يبدو، لم تكن قد كتبت لي الهدوء. كانت كلما حاولت أن أزرع جذوري في أرض... جاءت ريحٌ تدعوني إلى أرضٍ أخرى.

خرجت بعد ذلك إلى شاطئ البحر. كان الليل قد بدأ ينسج عباءته فوق الماء. جلست وحدي. ورحت أراقب السفن البعيدة. منذ طفولتي، كان البحر بالنسبة إليّ لغزًا. يفصل بين الأوطان... ويصل بينها في الوقت نفسه.

يحمل التجار.

ويحمل الغزاة.

ويحمل الحالمين.

ولا يميز بينهم.

وسألت نفسي:

كم مرة سيكتب عليّ أن أودع هذا الشاطئ؟

وهل يكون السفر دائمًا هروبًا؟

أم أنه قد يكون، أحيانًا، الطريق الوحيد للعودة إلى الذات؟

عدت إلى البيت وأنا أحمل القرار في داخلي، لكنه لم يكن قد خرج إلى الكلمات بعد. قضيت الليل كله أفكر في أمي. لو كانت حية... ماذا كانت ستقول؟ ربما كانت ستخاف عليّ. وربما كانت ستوصيني مرةً أخرى بما أوصتني به قبل سفري إلى لندن. لكنني كنت واثقًا من شيءٍ واحد. أنها لم تكن لتعلمني الشجاعة، ثم تطلب مني أن أخاف من الطريق.

وفي صباح اليوم التالي، أمسكت بالقلم. وكتبت رسالة قصيرة. أبلغت فيها الشركة بموافقتي. وحين انتهيت، بقيت أنظر إلى توقيعي.

كم بدا بسيطاً.

مجرد اسمٍ في أسفل ورقة.

لكنني كنت أشعر أن ذلك التوقيع لم يكن يوافق على السفر عامًا واحدًا. بل كان يوقع، دون أن يدري، على بداية حياةٍ أخرى.

بعد أيام، بدأت أستعد للرحيل. رتبت كتبتي. وأغلقت مكتبي الصغير. ونظرت إلى الغرفة التي احتضنت صمتي، وفشلي، ووحدتي.

لم أشعر بالمرارة.

على العكس.

شعرت بشيءٍ من الامتنان.

فهذا المكان، رغم قسوته، علمني أكثر مما علمتني قاعات الجامعة.

فيه تعلمت أن الكبرياء ينكسر.

وأن الصبر لا يُقرأ في الكتب.

وأن الفشل، إذا لم يحطم الإنسان، فإنه يعيد تشكيله.

قبل أن أغادر بومباي بأيام قليلة، وقفت مرةً أخيرةً عند الميناء. كان البحر هادئًا. لكنني لم أعد ذلك الشاب الذي وقف هنا قبل سنوات، يرتجف خوفًا من السفر إلى لندن. لقد تغير شيءٌ في داخلي. لم يعد خوفي من البحر. بل من أن أعيش حياةً لا تستحق أن تُروى. ولأول مرة، شعرت أن القدر لا يدفعني بعيدًا عن الهند. بل يقودني إليها من طريقٍ أطول. لم أكن أعلم أنني ذاهب للدفاع عن قضيةٍ تجارية. ولم أكن أعلم أن القضية الحقيقية لن تكون في المحكمة. بل في القطار. ولا في أوراق القانون. بل في كرامة الإنسان. ولا في جنوب أفريقيا

وحدها... بل في ضمير العالم كله.

وحين أدت ظهري للميناء، لم أكن أودع مدينةً فقط. كنت أودع الرجل الذي ظن أن مستقبله ينتهي عند حدود مهنة. أما الرجل الذي كان يسير نحو السفينة... فقد بدأ، من حيث لا يعلم، رحلته نحو الرسالة التي سيقضي عمره كله وهو يحاول أن يكون أهلاً لها.

هناك وداعٌ يبكي فيه الإنسان لأنه لا يعرف ما ينتظره. وهناك وداعٌ آخر... يبكي فيه لأنه أصبح يعرف أن الحياة لن تسمح له بالعودة كما كان.

أما وداعي الثاني للهند... فلم يكن يشبه الوداع الأول.

حين سافرت إلى لندن، كنت شاباً يهرب من جهله. أما الآن، وأنا أتهياً للرحيل إلى جنوب أفريقيا، فلم أكن أهرب من شيء. كنت أذهب إلى مجهولٍ آخر، لكنني كنت أشعر، للمرة الأولى، أن المجهول ربما يعرفني أكثر مما أعرف نفسي.

انتشر خبر سفري بين الأقارب والأصدقاء. جاء بعضهم يهنئني. وقال آخرون إن الفرصة لا تُرفض. أما فريقٌ ثالث، فقد نظر إليّ باستغراب.

قالوا:

"أما شبعت من السفر؟"

ابتسمت.

لم أكن أملك جواباً واضحاً.

فلو سألني أحدهم إلى أين تقودني الحياة، لما استطعت أن أجيب. كنت أعرف الطريق الذي سأسلكه على الخريطة. لكنني لم أكن أعرف الطريق الذي سأسلكه في داخلي. وكان هذا هو الطريق الأصعب

دائمًا.

في الأيام التي سبقت الرحيل، أخذت أزور الأماكن التي أحببتها. مشيت في الأزقة التي حفظت وقع خطوات طفولتي. وقفت أمام البيوت القديمة. مررت بالأسواق التي كنت أتردد إليها صغيرًا. جلست تحت الأشجار التي كنت أستظل بها وأنا طالب.

كل شيء كان مألوفًا.

لكنني كنت أشعر أنني أنظر إليه بعيني رجلٍ يقرأ آخر صفحات كتاب عزيز. لقد علمتني الحياة أن الأماكن لا تصبح جميلة لأنها عظيمة. بل لأننا نترك فيها جزءًا من أرواحنا. وحين نرحل... يبقى ذلك الجزء هناك، ينتظرنا، حتى لو لم نعد أبدًا.

وقفت طويلًا أمام البيت الذي عاشت فيه أمي. لم أدخل. اكتفيت بالنظر إلى الباب. كانت الريح تحركه برفق. وكأن أحدًا ما سيفتحه بعد قليل. تقدمت خطوة. ثم توقفت. بعض البيوت، بعد أن يغادرها أحبائنا، لا تعود جدرانًا. تصبح ذاكرة. والذاكرة لا تُطرق أبوابها. بل تُطرق أبواب القلب. أغمضت عيني. وتخيلت يدها فوق رأسي مرةً أخرى. لم أسمع صوتها. لكنني شعرت بسكيني القديمة تعود لحظةً واحدة. وهذا كان يكفيني.

قبل موعد السفر بيوم، اجتمع أفراد عائلتي حولي. كانت الوجوه تحمل ابتساماتٍ تحاول أن تخفي قلقها. فالسفر، في ذلك الزمن، لم يكن نزهة. كان مغامرةً قد يعود منها الإنسان... وقد لا يعود.

تبادلنا الحديث طويلًا. لكنني لاحظت أن الجميع كانوا يتجنبون سؤالًا واحدًا.

متى ستعود؟

ولعلمهم كانوا يخشون أن يسمعوا جوابًا لا يملكه أحد.

أما أنا... فكنت قد تعلمت ألا أعد الزمن بشيء. فالإنسان يضع خطته. والقدر يبتسم.

في صباح الرحيل، حملت حقيبتني. كانت أخف من الحقيبة التي حملتها إلى لندن. لكن قلبي كان أثقل. ليس لأنني خائف. بل لأنني أصبحت أعرف معنى الوداع. في السفر الأول، كنت أظن أن الغياب مجرد أيام. أما الآن... فقد عرفت أن كل رحلة تأخذ معها شيئاً لا يعود. قد يكون وجهاً. أو صوتاً. أو مرحلة كاملة من العمر.

وصلت إلى ميناء بومباي. كان البحر كما عهدته. واسعاً. صامتاً. لا يكثرث بمن يغادر ومن يعود. وقفت عند الحافة. وراقبت الأمواج. ثم تذكرت نفسي قبل سنوات. ذلك الشاب الذي كان ينظر إلى الماء كأنه هاوية. ويحسب المسافة بينه وبين الوطن بالأميال.

ابتسمت.

كم تغيرت!!

لقد اكتشفت أن البحر لا يخيف أحداً. الذي يخيفنا حقاً... هو الإنسان الذي سنصبحه بعد أن نعبره.

صعدت إلى السفينة ببطء. لم أشعر بتلك الرهبة القديمة. بل شعرت بشيء من الامتنان. لقد كان البحر، في رحلتي الأولى، معلمي في الصبر. وسيصبح، في رحلتي الثانية، شاهداً على بداية فصلٍ جديد من حياتي.

جلست على سطح السفينة. ورحت أراقب الميناء يبتعد. كانت البيوت تصغر شيئاً فشيئاً. والناس يتحولون إلى نقاطٍ صغيرة. ثم اختلطت المدينة بالأفق.

وأخيراً...

ابتلعتها زرقة البحر.

هناك فهمت أن الأوطان لا تختفي لأنها ابتعدت عن أعيننا. بل لأنها تنقل إلى داخلنا. ومن يحمل وطنه في قلبه... لا يشعر بالغربة الكاملة أبدًا.

جلست بعد ذلك أفتح دفترتي الصغير. كنت قد اعتدت أن أكتب فيه خواطري كلما عجزت عن فهم نفسي.
كتبت:

"لقد قضيت سنواتٍ أبحث عن النجاح. ثم اكتشفت أن النجاح ليس مكانًا أصل إليه. بل إنسانًا أصبحه."

توقفت قليلًا.

ثم أضفت:

"إن الطريق الذي لا يغير صاحبه... ليس طريقًا يستحق أن يُسلك."
أغلت الدفتر.

وشعرت براحةٍ غريبة. كأن الكلمات، حين تخرج من القلب إلى الورق، تخفف شيئًا من ثقل الروح.

كانت السفينة تمضي جنوبًا. وكنت أشعر أنني أمضي نحو شيءٍ أكبر من وظيفة. كانت الرسالة التي وصلتني تتحدث عن نزاع بين شركتين. لكن قلبي كان يخبرني أن الحياة لا ترسل الإنسان آلاف الأميال من أجل عقدٍ تجاري. هناك دائمًا سببٌ أعمق. سببٌ لا يظهر في الرسائل. ولا يكتبه أصحاب الأعمال. بل يكتبه القدر في الصفحة التي لا نراها.

وقفت ليلًا على سطح السفينة. رفعت رأسي إلى السماء. كانت النجوم نفسها التي رأيتها فوق لندن. وفوق الهند. وفوق طفولتي. فابتسمت.
لقد أدركت أن الإنسان هو الذي يقسم الأرض إلى أوطان. أما

السماء... فلا تعرف الحدود.

وسألت نفسي:

إذا كانت السماء تتسع للجميع... فلماذا تضيق الأرض بالإنسان؟

كان السؤال بسيطاً. لكنني شعرت أنه سيلازمني طويلاً.

وربما كنت، دون أن أدري، أقرب من الإجابة التي سأقضي بقية عمري أبحث عنها.

ولم أكن أعلم أن البحر الذي أعبره الآن، لن يحملني إلى قارة جديدة فحسب... بل سيحملني إلى اللحظة التي سيولد فيها رجل آخر من داخلي. رجلٌ لن يعرفه العالم بعد ذلك باسم المحامي... بل سيبدأ، لأول مرة، رحلته نحو أن يصبح صوتاً لمن لا صوت لهم.

لطالما ظننت أن الإنسان هو الذي يختار طريقه. ثم اكتشفت، كلما تقدمت في العمر، أن بعض الطرق هي التي تختار أصحابها. كنا نسميها مصادفات. لكنني لم أعد أومن كثيراً بالمصادفات. هناك خيوطٌ خفية تنسج حياتنا في صمت، حتى إذا التفتنا بعد سنوات، رأينا أن الأحداث التي بدت متفرقة لم تكن إلا عقدًا واحدًا في مسبحة القدر.

ولولا فشلي في الهند...

لما قبلت السفر.

ولولا سفري...

لما وصلت إلى الأرض التي كانت تنتظرني منذ زمن، بينما لم أكن أعرف حتى شكلها.

كانت السفينة تشق المحيط الهندي ببطء، كأنها تعرف أن الرجال الذين على ظهرها لا يسافرون جميعاً إلى المكان نفسه. كان بعضهم يلاحق التجارة. وبعضهم يهرب من الفقر. وبعضهم يعود إلى أسرته

بعد غياب.

أما أنا...

فكنت أحمل حقيبة صغيرة، وعدداً كبيراً من الأسئلة. كنت أخرج كل صباح إلى سطح السفينة. أقف عند الحاجز الخشبي. وأراقب الماء. كم يبدو البحر متشابهاً. ومع ذلك، لا توجد موجتان متطابقتان.

وكذلك البشر. نظن أننا متشابهون لأننا جميعاً نضحك ونبكي ونخاف. لكن داخل كل إنسان بحرًا لا يشبه بحرًا آخر.

تعرفت خلال الرحلة إلى مسافرين كثيرين.

تجار من الهند.

وبحارة من بريطانيا.

وعمالٍ يبحثون عن رزقٍ في الموانئ البعيدة.

كان كل واحدٍ يحمل حكايته. وكان أكثر ما يدهشني أن الناس، حين يبتعدون عن أوطانهم، يصبحون أكثر صدقًا. كأن الغربة تخلع عنهم الأقنعة التي كانوا يرتدونها في بيوتهم.

جلست إلى رجلٍ هندي تجاوز الستين. كان قد أمضى سنوات طويلة في جنوب أفريقيا. سألته عنها. ظل صامتًا قليلًا. ثم قال:

"إنها أرضٌ جميلة... لكنها لا تنظر إلى جميع الناس بالعين نفسها."

لم أفهم قصده تمامًا. فسألته.

ابتسم ابتسامةً حزينة، وقال:

"ستفهم بنفسك."

ثم أنهى الحديث. وبقيت كلماته معلقةً في ذهني كغيمةٍ لا تمطر.

كلما اقتربنا من وجهتنا، بدأت أقرأ أكثر عن تلك البلاد. كانت كتب الجغرافيا تتحدث عن جبالها، وأنهارها، وموانئها. وكان التجار

يتحدثون عن الذهب والألماس. أما البحارة، فكانوا يتحدثون عن العواصف. لكن أحدًا لم يحدثني عن الإنسان. ولعل الخرائط تعرف الطرق... لكنها لا تعرف القلوب.

في إحدى الليالي، هبت عاصفة فوق البحر. ارتفعت الأمواج حتى خُيل إليّ أنها تريد ابتلاع السماء. كانت السفينة تميل بعنف. والركاب يهرعون إلى مقصوراتهم. أما أنا، فبقيت واقفًا عند النافذة. كنت خائف. لكن خوفي هذه المرة لم يكن يشبه خوفي القديم. حين كنت أصغر، كنت أظن أن الشجاعة تعني ألا يخاف الإنسان. أما الآن، فقد بدأت أفهم أن الشجاعة الحقيقية هي أن تواصل السير، رغم أنك خائف. ولعل الأمواج كانت تقول لي، بلغتها التي لا تحتاج إلى كلمات:

"إن الطريق إلى الشاطئ... يمر دائمًا عبر العاصفة."

وبعد أيام طويلة، بدأ لون البحر يتغير. وأخذت الطيور تحلق حول السفينة. وأشار البحارة إلى الأفق. قال أحدهم:

"لقد اقتربنا."

تقدمت نحو الحاجز. وبقيت أحرق بعيدًا. في البداية، لم أرَ إلا خطأ ربيعًا. ثم بدأت اليابسة ترتفع شيئًا فشيئًا من قلب الضباب. كانت أفريقيًا.

القارة التي قرأت عنها في الكتب. لكنها، وهي تظهر أمام عيني، لم تكن تشبه أي صفحة قرأتها. كانت تبدو قديمة كأنها خرجت من أول أيام الخليقة. وصامتة كأنها تخفي في ترابها أسرارًا لا يريد التاريخ أن يفصح عنها بسهولة.

كلما اقتربنا من الميناء، ازداد ازدحام السفن. ورأيت وجوهًا من

أعراقٍ لم أعتد رؤيتها مجتمعةً في مكان واحد.

أوروبيين.

وأفارقة.

وهنودًا.

وعربًا.

وصينيين.

كانت اللغات تتداخل كما تتداخل أمواج البحر.

ظننت، في البداية، أن هذا التنوع لا بد أن يصنع عالمًا أكثر عدلًا.
كم كنت ساذجًا. فالاختلاف بين البشر لا يصنع الظلم. لكن الطريقة
التي ينظر بها بعضهم إلى بعض... هي التي تصنعه.

نزلت من السفينة، وأنا أحمل حقيبتى الصغيرة. وقفت لحظةً على
الرصيف. كان الهواء مختلفًا. ورائحة الأرض مختلفة. حتى ضوء
الشمس بدا وكأنه يسقط بطريقةٍ لم أعرفها من قبل.

شعرت بالغربة. لكنها لم تكن الغربة التي عرفتها في لندن. هناك
كنت غريبًا لأنني بعيد عن وطني.

أما هنا...

فكنت أشعر أنني دخلت عالمًا لم يقرر بعد كيف سينظر إليّ.

هل سأكون محاميًا؟

أم هنديًا؟

أم مجرد رجلٍ بلونٍ لا يعجب البعض؟

لم أكن أعرف.

استقبلني ممثلو الشركة التي دعنتني. كانوا لطفاء. وتحدثوا معي عن

القضية التي جئت من أجلها. شرحوا تفاصيل العقود. وأسماء الخصوم. ومواعيد الجلسات. كنت أستمع باهتمام. لكن شيئاً في داخلي كان منشغلاً بأمرٍ آخر. كنت أشعر أن القضية التي يتحدثون عنها ليست إلا الباب. أما الغرفة الحقيقية... فما زالت مغلقة.

وفي الطريق إلى مقر إقامتي، نظرت من نافذة العربة. كانت المدينة تتحرك أمامي بسرعة. لكن أكثر ما لفت انتباهي، لم يكن جمال المباني. ولا اتساع الشوارع. بل تلك المسافات غير المرئية بين الناس. رأيت نظرات قصيرة. وحركات صغيرة. وطريقة يقف بها بعض الرجال أمام آخرين. كانت هناك حدود لا ترسمها الخرائط. بل ترسمها العيون. ولم أكن أفهمها بعد. لكنني شعرت بها. كما يشعر المرء ببرودة خفيفة تسبق العاصفة.

في تلك الليلة، جلست وحدي في غرفتي. فتحت النافذة. وتركت نسيم أفريقيا يدخل بهدوء. أخرجت دفتر يومياتي الصغير. وبقيت أهدق في الصفحة البيضاء طويلاً. ثم كتبت جملة واحدة:

"لقد وصلت."

أغلقت الدفتر.

ولم أضف شيئاً.

فبعض اللحظات لا تحتاج إلى كثرة الكلام. إنها تحتاج فقط إلى أن تُعاش.

تمددت على فراشي. وأغمضت عيني. كنت أظن أن الغد سيبدأ بقضية قانونية، واجتماعات مع التجار، وحياة هادئة تمتد عاماً ثم تنتهي. لكن القدر كان يبتسم في مكان لا أراه. فبعد أيام قليلة، لن أكون في قاعة محكمة. بل في عربة قطار. ولن يكون السؤال الذي سيواجهني متعلقاً بالقانون. بل بالكرامة. ولن يقرر ذلك اليوم مصير محام هندي شاب... بل سيوظف في داخلي فكرةً ستبدأ صغيرة، مثل

شرارة في ليلة مظلمة، ثم تمتد، عامًا بعد عام، حتى تضيء قلوب
الملايين. ولم أكن أعلم، وأنا أطفئ المصباح استعدادًا للنوم في أول
ليلة لي على أرض جنوب أفريقيا، أن التاريخ كان يقف خارج نافذتي
بصبرٍ عجيب، ينتظر صباحًا واحدًا فقط... ليترك باب حياتي.

قطار المصير

لم يكن الإنسان الذي نزل من السفينة هو الإنسان الذي صعد إليها.
ولم تكن الأرض التي استقبلتني مجرد أرضٍ جديدة.

كانت مرآة.

مرآة لم تعكس وجهي وحده... بل عكست العالم كما لم أراه من قبل.
لقد خرجت من الهند وأنا أحمل في ذهني فكرةً بسيطةً. جنّت لأدافع
عن قضيةٍ تجارية، ثم أعود بعد عام إلى وطني. كنت أظن أن الرحلة
قصيرة. وأن الحياة قد رتبت تفاصيلها كلها سلفًا. لكن الحياة، كما
علمتني مرارًا، لا تكشف أوراقها دفعةً واحدة. إنها تمنح الإنسان
صفحةً واحدة في كل مرة. ولا تسمح له أن يقرأ الصفحة التالية...
إلا بعد أن يعيش الأولى.

في صباحي الأول، فتحت نافذة الغرفة التي استأجرتها. دخل هواءٌ
مختلف. كانت له رائحة الأرض التي لم تمش فوقها قدمي من قبل.
في الهند، كانت الريح تحمل رائحة المطر، والبهارات، والنهر،
والحقول.

أما هنا...

فكانت تحمل شيئًا آخر. شيئًا لا أعرف له اسمًا. وربما كانت الغربية
نفسها لها رائحة.

وقفت طويلًا أحرق في الشارع. كان الناس يعبرون في صمتٍ منظم.
عربات تجرها الخيول. رجال يرتدون قبعات أوروبية أنيقة. نساء
بثياب إفريقية زاهية. تجار هنود يفتحون متاجرهم الصغيرة. وجنود
بريطانيون يسيرون بثقةٍ اعتادت أن ترى العالم خريطةً
للإمبراطورية.

كان المشهد يبدو هادئًا. لكنه، كلما أطلت النظر، كشف لي طبقاتٍ
خفية لا تراها العين لأول وهلة.

خرجت أمشي. لم أكن أحب أن أتعرف إلى المدن من خلال الخرائط.
الخرائط تعرف الشوارع. أما المدينة... فتسكن وجوه أهلها.

كنت أراقب الناس أكثر مما أراقب المباني. في لندن، كان الجميع
تقريبًا ينتمون إلى عالمٍ واحد. وفي الهند، رغم اختلاف الطبقات
والأديان، بقي الناس أبناء أرضٍ واحدة.

أما هنا...

فكان العالم كله قد اجتمع في شارعٍ واحد. لكن الاجتماع... لم يكن
يعني المساواة.

رأيت الأوروبي يمشي وكأن الرصيف صُنع من أجله.

ورأيت الإفريقي يفسح الطريق دون أن يطلب منه أحد.

ورأيت الهندي يتحدث بصوتٍ منخفض، حتى حين يكون على حق.

كان هناك نظامٌ لا تكتبه القوانين على الورق. بل تكتبه العيون. يكفي
أن ينظر إنسانٌ إلى آخر... حتى يعرف كل واحدٍ منهما أين يُسمح له
أن يقف.

أدهشني ذلك.

فأنا رجل قانون. وأؤمن أن الحقوق تُكتب في الدساتير. لكنني بدأت
أكتشف أن أخطر القوانين... هي تلك التي لا يجرؤ أحد على كتابتها.

دعاني أحد التجار الهنود إلى تناول الغداء. كان رجلًا كريمًا، مضى
على إقامته في جنوب أفريقيا سنوات طويلة. جلسنا نتحدث عن
القضية التي جنّت من أجلها. ثم، من غير مقدمات، قال:

"ستعتاد."

سألته:

"على ماذا؟"

ابتسم ابتسامةً غريبةً. ابتسامة من تعب من الشرح. وقال:

"على أن تُعامل كأنك أقل من غيرك."

ساد الصمت. ظننت أنه يببالغ. فقلت له:

"ولكننا رعايا الإمبراطورية البريطانية مثلهم."

هز رأسه ببطء. ثم قال:

"في الأوراق... نعم. أما في الشوارع... فالأوراق لا تتكلم."

ظلت هذه العبارة تتردد في داخلي طويلاً. لقد درست القانون سنوات.

وكنت أوّمن أن النصوص قادرة على حماية الإنسان.

أما ذلك الرجل...

فكان يحدثني عن عالمٍ لا يقرأ النصوص أصلاً.

وفي الأيام التالية، بدأت أرى ما كان يقصده. في محطة البريد، وقف

موظفٌ أبيض يخاطب رجلاً هندياً يكبره سنًا كما لو كان طفلاً. وفي

متجرٍ صغير، رأيت زبونًا أوروبيًا يدخل بعد آخر هندي، فيُخدم أولاً.

وفي الطريق، لاحظت أن بعض الناس يغيرون نبرة أصواتهم حين

يتحدثون إلى أصحاب البشرة المختلفة. كانت التفاصيل صغيرة. لكن

الظلم لا يبدأ كبيرًا. إنه يبدأ بإشارة. ثم بكلمة. ثم بنظرة. ثم يصبح،

مع مرور الزمن، نظامًا كاملًا لا يتذكر أحدٌ كيف بدأ.

كنت أعود كل مساء إلى غرفتي، وأنا أحمل أسئلةً أكثر من الأجوبة.

كيف يمكن لبلدٍ يضم هذا العدد من الشعوب أن يبني حياته على هذا

القدر من المسافات؟ ولماذا يحتاج الإنسان إلى أن يشعر بأنه أعلى

من غيره حتى يطمئن إلى نفسه؟

كلما فكرت في الأمر، ازدادت يقينًا أن العنصرية لا تهين ضحيتها

وحدها. إنها تهين من يمارسها أيضًا. لأنها تعلمه أن يرى اللون قبل

الإنسان. والشكل قبل الروح. وهذه، في رأيي، إحدى أشد صور الفقر. فليس أفقر من قلب فقد القدرة على رؤية البشر كما خلقهم الله.

وذات مساء، خرجت وحدي إلى أطراف المدينة. كانت الشمس تميل نحو الغروب. لون السماء يشبه النحاس المصهور. والأرض الإفريقية تمتد حتى تلامس الأفق. جلست فوق صخرة. وأخذت أتأمل ذلك الاتساع. كم هي سخية هذه الطبيعة. لا تفرق بين من يمشي فوقها. ولا تسأل الطيور عن لون أجنحتها قبل أن تسمح لها بالطيران. النهر لا يختار من يشرب منه. والشمس لا تنتقي البيوت التي تمنحها الدفء.

قلت في نفسي:

لو أن الإنسان تعلم قليلاً من الطبيعة... لكانت الأرض أكثر رحمة. وفي أثناء عودتي، مررت بمحطة القطار. وقفت أتأمل العربات القادمة والمغادرة. لم يكن في الأمر ما يلفت النظر. محطة كسائر المحطات. مسافرون يحملون حقائبهم. موظفون يطلقون الصفارات. وأطفال يلوحون لمن يغادر. ابتسمت.

لم أكن أعلم أن هذا المكان العادي، الذي مررت به بلا اكتراث، سيصبح بعد أيام قليلة أكثر مكانٍ غير حياتي. وأن مقعداً في إحدى تلك العربات، سيعلمني من معنى الكرامة أكثر مما علمتني مكتبات لندن كلها.

عدت إلى غرفتي تلك الليلة. فتحت دفترتي الصغير. كتبت:

"إنني أشعر أن هذه البلاد تخفي شيئاً خلف هدوئها."

ثم توقفت.

حاولت أن أكتب أكثر. لكن الكلمات أبت أن تأتي.

أغلقت الدفتر. وأطفأت المصباح. ولم أكن أعلم أنني كنت أنام للمرة الأخيرة، قبل أن أستيقظ على الرجل الذي سأصبحه.
فبعض الأيام تمر في حياتنا كأى يوم.
ثم نكتشف، بعد سنوات، أنها كانت آخر أيام الإنسان القديم...
وأول أيام الإنسان الجديد.

ثمة أوراقٌ نحملها لأننا نؤمن أنها تحميننا.

شهادةٌ جامعية.

جوازُ سفر.

عقدٌ قانوني.

أو تذكرةٌ قطار.

نمنحها ثقتنا، لأنها تحمل ختمًا رسميًا، فنظن أن العدالة قد سكنت الحبر الذي كُتبت به. لكنني تعلمت، في ذات يوم، أن الورق لا يستطيع أن يدافع عن صاحبه، إذا كان العقل الذي يقرأه قد قرر مسبقًا ألا يرى فيه إلا لون البشرة.

استيقظت في ذلك الصباح مبكرًا. كان عليّ أن أسافر إلى مدينة بريتوريا لمتابعة القضية التي جئت من أجلها. راجعت أوراق الدعوى بعناية. وضعت المراسلات القانونية في حقيبتي الجلدية. ثم ارتديت بدلتى الأوروبية الداكنة، وربطت عنقي كما كنت أفعل في لندن. حين نظرت إلى المرأة، لم أرَ إلا محامياً يستعد ليوم عملٍ جديد. لم يخطر ببالي أن المرأة ترى الإنسان كما يرى نفسه... أما العالم، فليس ملزمًا بأن ينظر إليه بالطريقة نفسها.

كان الهواء باردًا عندما وصلت إلى محطة القطار. المبنى يعج

بالمسافرين.

أصوات الحقايب على الأرض الحجرية. صفارة بعيدة تعلن اقتراب قطار. ورائحة الفحم المحترق تمتزج برائحة الحديد والزيت. أحببت المحطات دائماً. فهي أماكن لا تعرف السكون. كل إنسان فيها يحمل قصة. وكل قطار يجر وراءه أحلاماً لا تحصى.

وقفت لحظة أتأمل الوجوه. ثم تقدمت نحو شباك التذاكر. طلبت تذكرة من الدرجة الأولى.

نظر الموظف إليّ سريعاً.

ثم إلى بدلتي.

ثم إلى حقيبتي.

ولم يقل شيئاً.

ناولني التذكرة. دفعت ثمنها. وأخذتها وأنا أشعر براحة هادئة. كل شيء يسير كما ينبغي. القانون واضح. والإجراءات واضحة. والرحلة لن تستغرق إلا ساعات.

كم يبدو العالم بسيطاً... حين لا نعرف بعد ما يخبئه لنا.

وقفت على الرصيف أنتظر وصول القطار. كان الدخان الأسود يسبق القاطرة، كأنها تنفث أنفاسها الأخيرة قبل أن تدخل المحطة. ثم ظهرت. عملاقة ثقيلة. تهز الأرض بعجلاتها الحديدية. توقفت أمامنا بصرييرٍ طويل. وانفتحت الأبواب.

صعد الركاب، كلُّ إلى درجته. وصعدت معهم. أخرجت تذكرتي. أريتها للموظف. نظر إليها. ثم أشار إلى مقعدي. جلست قرب النافذة. وضعت حقيبتي إلى جانبي. وأخرجت بعض الأوراق لأراجعها قبل الوصول. لم أكن أفكر إلا في القضية. أما القضية الأخرى... فكانت تنتظرني دون أن أعرف.

تحرك القطار ببطء. ثم أخذت سرعته تزداد شيئاً فشيئاً. كانت الحقول تمتد خارج النافذة بلا نهاية. والسماء واسعة، صافية، لا توهي بأن شيئاً سيعكر صفو ذلك النهار. كنت أقرأ ملف القضية، ثم أرفع رأسي أحياناً لأراقب الأشجار وهي تتراجع إلى الخلف.

كم يشبه السفر العمر. نحن نظن أن الأشجار هي التي تبتعد. بينما الحقيقة... أننا نحن الذين نمضي.

كان في العربة عدد قليل من الركاب.

رجلٌ يقرأ صحيفة.

وسيدة تنظر إلى الخارج.

وشاب يغط في نوم عميق.

ساد هدوءٌ جميل. ذلك الهدوء الذي يجعل الإنسان ينسى أن العالم قادر، في لحظة، على أن ينقلب رأساً على عقب.

بعد محطة قصيرة، صعد رجلٌ أوروبي. توقف عند باب العربة. نظر إلى الركاب. ثم وقعت عيناه عليّ. لم تكن نظرة استغراب. بل كانت شيئاً آخر. شيئاً يشبه الاعتراض. تقدم ببطء. ظل واقفاً لحظة. ثم خرج دون أن يقول كلمة.

عدت إلى أوراقي. ولم أعطه اهتماماً كبيراً. فقد اعتدت، منذ وصولي إلى جنوب أفريقيا، أن أرى نظراتٍ لا أفهم معناها. لكنني لم أكن أعلم أن بعض النظرات... تسبق العواصف.

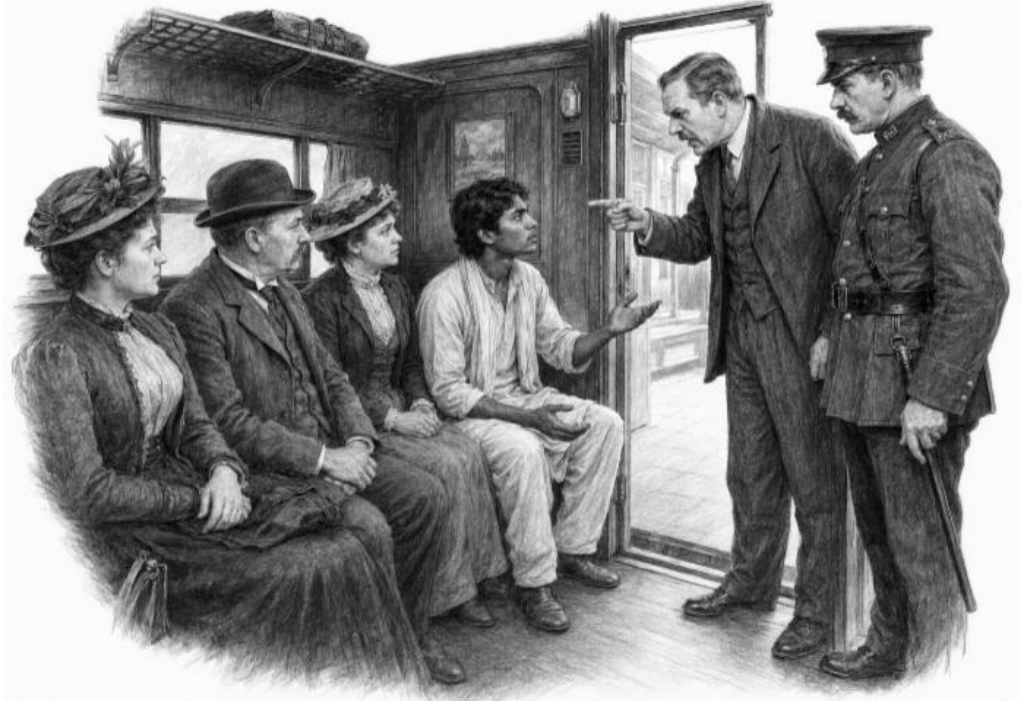
مرت دقائق.

ثم عاد الرجل. هذه المرة لم يكن وحده. كان معه موظف في القطار. تقدما نحوي. توقف الموظف أمام مقعدي. ثم قال بصوتٍ جاف:

"أرني تذكرتك؟"

ناولته إياها بهدوء. تأملها. أعادها إليّ. كانت صحيحة. ولم يكن فيها

أي خطأ. تنفست براحة. وظننت أن الأمر انتهى. لكن الموظف بقي واقفًا. أما الرجل الأوروبي، فكان ينظر إليّ كأن وجودي نفسه خطأ.



قال الموظف:

"عليك أن تنتقل إلى عربة الدرجة الثالثة."

ظننت أنني لم أسمع جيدًا. سألته بهدوء:

"ولماذا؟"

أجاب ببرود:

"هذه العربة مخصصة للبيض."

نظرت إليه. ثم إلى التذكرة في يدي. ثم عدت أنظر إليه. قلت:

"لكنني اشتريت تذكرة للدرجة الأولى، ودخلت بطريقة قانونية."

كنت أتحدث بلغة القانون التي تعلمتها. لغة الوقائع. لغة النصوص.

لغة الحقوق. لكنني بدأت أشعر أن الرجل الذي يقف أمامي لا يتحدث

اللغة نفسها.

ساد صمتٌ قصير. كان كافيًا لأسمع دقات قلبي.

شعرت بشيء غريب يتحرك في داخلي. لم يكن خوفًا. ولم يكن غضبًا. كان دهشة. دهشة رجلٍ اكتشف، فجأة، أن القانون الذي آمن به قد يتوقف عن العمل، لا لأن نصوصه ناقصة... بل لأن البشر ناقصون.

أمسكت التذكرة بقوة. حدقت فيها طويلاً. كانت الورقة كما هي. الختم واضح. والدرجة مكتوبة بوضوح. لكنها، في تلك اللحظة، فقدت كل سلطتها. وأدركت أن قيمة الورقة لا تأتي من الحبر الذي عليها... بل من الضمير الذي يقرأها.

رفعت رأسي ببطء. نظرت من النافذة إلى الحقول التي كانت تمضي في صمت. ثم نظرت إلى الموظف. كان ينتظر جوابي. ولأول مرة منذ وصولي إلى جنوب أفريقيا، شعرت أن القضية التي جنّت من أجلها لم تعد أهم قضية في حياتي. كان هناك سؤالٌ أكبر يقف أمامي.

هل أتنازل عن حقي، لأن الطريق أسهل؟

أم أتمسك به، مهما كانت العواقب؟

لم أكن أعرف أن الإجابة التي سأختارها بعد لحظات...

لن تغيّر رحلتي وحدها. بل ستغيّر الرجل الذي سيقضي بقية عمره وهو يحاول أن يجعل الكرامة حقًا لا امتيازًا.

وفي تلك اللحظة، بينما كان القطار يشق طريقه عبر سهول جنوب أفريقيا، لم أكن أعلم أن عجلاته الحديدية لم تكن تحملني نحو مدينة بريتوريا فقط... بل كانت تحملني نحو الموعد الأول مع التاريخ.

لا أستطيع أن أحدد اليوم الذي وُلدت فيه حقًا.

أهو ذلك اليوم الذي خرجت فيه من رحم أمي في بوربندر؟

أم اليوم الذي وقفت فيه شابًا أمام القاضي في بومباي، فاكتشفت هشاشتي؟

أم تلك الليلة...

ليلة باردة في محطة لم يكن أحد يعرف أن اسمها سيظل يرافق اسمي إلى آخر العمر؟

لقد أدركت بعد سنوات أن الإنسان لا يولد مرةً واحدة. إنه يولد كلما انهارت صورة قديمة عن العالم، وقام مكانها يقينٌ جديد. وكانت محطة بيتيرماريتسبورغ هي رحم ميلادي الثاني.

ظل موظف القطار واقفًا أمامي. كان وجهه جامدًا، كأن الكلمات التي يقولها لا تمر عبر قلبه. كرر طلبه:

"انتقل إلى الدرجة الثالثة."

نظرت إليه بهدوء. ثم إلى التذكرة في يدي. وأجبت بصوتٍ خافت، لكنه ثابت:

"لقد دفعت ثمن الدرجة الأولى، ولن أغادر مقعدي."

لم يكن في كلامي تحدٍ. ولا رغبة في الشجار. كنت أطالب فقط بما كنت أظنه حقًا بديهيًا. كنت ما أزال أعتقد أن الحوار قادر على إزالة سوء الفهم. لكنني لم أكن قد فهمت بعد أن المشكلة لم تكن في سوء الفهم. بل في فهم مشوه للإنسان نفسه.

اقترب الرجل الأوروبي خطوةً أخرى. كانت عيناه تحملان ذلك اليقين القاسي الذي لا يولد من المعرفة، بل من التعصب. قال وهو يشير إليّ:

"لا أريد أن أجلس مع هذا الهندي."

قالها ببساطة. كما لو أنه يطلب فتح نافذة. وكأن وجودي لم يكن وجود إنسان. بل خطأ يجب تصحيحه.

في تلك اللحظة لم تجرحني الكلمة نفسها. بل الطريقة التي خرجت بها. حين يفقد الإنسان القدرة على رؤية إنسانية غيره... تصبح اللغة نفسها أداة للإهانة.

خرج الموظف. وبعد دقائق عاد برفقة شرطي. كان الشرطي ضخم الجسد. تقدم نحوي بخطواتٍ ثقيلة. قال بلهجة لا تحتمل النقاش:

"إما أن تنزل بنفسك... أو سننزلك."

أحسست بأن العربة كلها تنظر إليّ. بعض الركاب أشاحوا بوجوههم. وبعضهم راقب المشهد بصمت. ولم يتكلم أحد.

لقد تعلمت يومها أن الظلم لا يعيش بقوة الظالم وحده. بل يعيش أيضاً بصمت الذين يشاهدونه ويقنعون أنفسهم بأن الأمر لا يعنيههم.

تشبثت بمقعدي. ليس عناداً. بل لأن شيئاً في أعماقي كان يرفض أن يعترف بأن الباطل أصبح قانوناً.

أمسك الشرطي بذراعي. شدني بعنف. سقطت حقيبتني على الأرض. تناثرت بعض أوراقني. واصطدمت كتفي بحافة المقعد. ثم وجدت نفسي على الرصيف البارد.

أغلق باب العربة. وأطلق القطار صفيره. وبدأ يتحرك. وقفت أنظر إليه. كانت النوافذ تمر أمامي واحدةً تلو الأخرى. ثم ابتلعه الظلام. وغادر... كأن شيئاً لم يحدث.

بقيت وحدي. أنا. وحقيبتني. وصقيع الليل.

كانت المحطة شبه خالية. الريح تعصف بين الأعمدة الحديدية. والبرد يتسلل إلى عظامي ببطء. لم يكن معي معطفٌ ثقيل.

جلست على مقعدٍ خشبي في غرفة الانتظار. كان المكان مظلمًا إلا

من مصباحٍ صغير، يرتجف ضوءه كما لو أنه هو أيضًا يرتعش من
البرد. وضعت يدي حول جسدي. لكن البرد لم يكن أشد ما يؤلمني.
ما كان يؤلمني حقاً... هو السؤال.

لماذا؟

ظل هذا السؤال يدور في رأسي بلا توقف.

لماذا حدث ما حدث؟

ألأنني خالفت القانون؟

لا.

ألأنني لم أملك تذكرة؟

بل كانت التذكرة في جيبتي.

ألأنني أسأت إلى أحد؟

لم أفعل.

إذن...

ما الجريمة؟

ولم أجد جواباً سوى جواب واحد.

أنني وُلدت هنديةً.

كم هو مرعب أن يتحول الميلاد، الذي لا يختاره الإنسان، إلى تهمة.

جلست ساعاتٍ طويلة في تلك المحطة. لم أنم. ولم أستطع القراءة.
كل ما كنت أفعله هو التفكير. كان بإمكانني أن أعود إلى الهند. أن
أترك هذه البلاد كلها. أن أقول لنفسي إن الأمر لا يستحق. وأن حياةً
هادئة في بومباي أفضل من الإهانة في أرضٍ غريبة.

كان ذلك الخيار معقولاً. وربما كان أكثر الخيارات حكمةً في نظر

الناس. لكن شيئاً في داخلي بدأ يقاوم. كان صوتاً خافتاً. في البداية، بالكاد أسمعُه. ثم أخذ يزداد وضوحاً. كان يقول لي:

"إذا سكت اليوم... فكم رجلاً آخر سيُنزَل من هذا القطار غداً؟"

رفعت رأسي. نظرت من نافذة غرفة الانتظار. كانت السماء مغطاة بالنجوم.

النجوم نفسها التي رأيتها فوق بوربندر.

وفوق لندن.

وفوق البحر.

لم تتغير.

قلت في نفسي:

عجيبٌ أمر السماء.

هي لا ترى أبيض وأسود.

ولا إنجليزيًا وهنديًا.

ولا سيّدًا وخادمًا.

كل تلك التقسيمات...

اختراعٌ بشري.

ولو أن الإنسان رفع رأسه أكثر إلى السماء... لربما انشغل بما يجمعه مع الآخرين، بدل أن ينشغل بما يفرقه عنهم.

وفي تلك الساعات، بدأت أراجع حياتي كلها. تذكرت أمي. تذكرت وصيتها. تذكرت خجلي في أول قضية. وتذكرت فشلي في بومباي. وفجأة، بدا لي أن كل تلك الهزائم لم تكن عبثاً. لقد كانت الحياة تهيئني لهذه الليلة. فلو كنت رجلاً اعتاد الانتصارات، لربما حطمتني هذه

الإهانة. أما أنا... فقد كنت قد تعلمت، من قبل، كيف أجلس مع ألمي دون أن أهرب منه.

كان البرد يشتد. لكن شيئاً آخر كان يشتعل. لم يكن غضباً. الغضب نارٌ تحرق صاحبها أولاً. ولم يكن رغبةً في الانتقام. فالانتقام لا يصنع عدالة. كان شعوراً جديداً لم أعرف له اسماً في تلك الليلة. شعوراً يقول إن الكرامة ليست ملكاً لرجلٍ واحد. وأن الإهانة، إذا سكت عنها صاحبها، قد تتحول إلى عادةٍ يورثها الناس لأبنائهم.
هناك...

في تلك المحطة الصغيرة، البعيدة عن عيون العالم، بدأت أفهم أن القضية التي جنّت من أجلها ليست عقداً بين شركتين. بل عقداً بين الإنسان وضميره.

ومع اقتراب الفجر، بدأ الضوء يتسلل ببطء إلى السماء. نهضت من مكاني. كان جسدي متعباً. لكن روحي لم تعد كما كانت. دخلت تلك المحطة محامياً يسافر لإنجاز مهمةٍ مؤقتة. وخرجت منها رجلاً يحمل سؤالاً لن يتركه ما دام حياً:

كيف يمكن للإنسان أن ينتصر على الظلم... دون أن يتحول هو نفسه إلى ظالم؟

لم أكن أعرف الجواب. بل سأقضي سنواتٍ أبحث عنه. لكنني كنت أعلم يقيناً أنني، في تلك الليلة، فقدت شيئاً إلى الأبد.

خرجت من محطة بيتيرماريتسبورغ، لكنني لم أخرج من تلك الليلة. كانت خطواتي تتحرك على الطريق. أما روحي... فبقيت جالسة على ذلك المقعد الخشبي البارد، حيث قضيت أطول ساعات عمري.

كنت أسير، لكن شيئاً في داخلي توقف. توقف عند السؤال الذي لم يفارقني منذ أن أغلقت أبواب القطار في وجهي:

ماذا أفعل الآن؟

أعود إلى الهند؟

أم أبقى في هذه البلاد التي استقبلتني بالإهانة؟

كان السؤال بسيطاً في ظاهره. لكنه كان يحمل بين حروفه مستقبل حياتي كلها.

جلست في غرفتي بعد عودتي. وضعت الحقيبة في زاوية الغرفة. نزعنا معطفي. ثم بقيت واقفاً أمام النافذة. كانت المدينة تستيقظ ببطء. العربات تملأ الطرقات. والناس يذهبون إلى أعمالهم، كأن شيئاً لم يحدث.

كم هو غريب أن يشعر الإنسان أحياناً بأن العالم كله ينبغي أن يتوقف احتراماً لألمه، بينما يمضي العالم في طريقه دون أن يلتفت. في البداية، كان ذلك يزعجني. ثم بدأت أفهم أن الحياة لا تتوقف عند جرح أحد. بل تطلب منه أن ينهض، أو تتركه خلفها.

حاولت أن أقنع نفسي بأن ما جرى حادثة فردية. ربما كان الموظف متعصباً. وربما كان الراكب الأبيض سيئ الخلق. وربما لن يتكرر الأمر.

لكنني، كلما كررت هذه الأعذار، شعرت أنني أخدع نفسي. فالظلم الذي يحتاج إلى كل هذه الأعذار... ليس حادثة. إنه نظام. والنظام لا يتغير إذا تجاهله الناس.

أخرجت ورقة بيضاء. جلست إلى الطاولة. ورسمت خطأ في منتصف الصفحة. كتبت على اليمين:

أعود إلى الهند.

وكتبت على اليسار:

أبقى في جنوب أفريقيا.

بدأت أكتب الأسباب:

إذا عدت... فسأعيش آمنًا. سأفتح مكتبًا للمحاماة. وسأنسى ما حدث مع مرور الوقت.

أما إذا بقيت... فربما أتعرض لإهاناتٍ أخرى. وربما أخسر عملي. وربما أخسر مستقبلي كله.

بدا القرار واضحًا. كل العقل كان يدعوني إلى العودة. لكن القلب... كان يرفض التوقيع.

سألت نفسي بصراحة لم أعهد لها من قبل:

تجاه من أشعر بالغضب؟

تجاه الرجل الذي رفض الجلوس بجانبني؟

أم تجاه الشرطي الذي دفعني خارج القطار؟

أم تجاه الموظف الذي نفذ الأمر؟

وبعد صمتٍ طويل، اكتشفت أنني لا أكره أحدًا منهم.

لقد آذوني.

لكن الكراهية لم تجد مكانًا في داخلي.

بل وجدت سؤالًا أكبر.

من الذي علّم هؤلاء أن لون الإنسان أهم من إنسانيته؟

كم يحتاج الظالم من أوهامٍ حتى يصدق أنه خُلق أعلى من غيره؟

وهل يكون هو أيضًا، بطريقةٍ ما، سجينًا لفكرةٍ مريضة؟

خرجت أمشي طويلًا في شوارع المدينة. كنت أراقب الناس. ورأيت

أن الذين بيتسمون والذين يعبسون، والذين يسرعون والذين يتمهلون،

جميعهم يشبهونني أكثر مما يختلفون عني.

كل واحدٍ منهم يحمل همًّا لا يراه الآخرون. كل واحدٍ يخاف من شيء. ويأمل في شيء. ويحب أحدًا. فكيف يستطيع إنسان أن يختزل كل هذا العالم الداخلي في لون الجلد؟ إن العنصرية، كما بدأت أفهمها، ليست مجرد ظلمٍ للآخر. إنها جهلٌ عميقٌ بحقيقة النفس البشرية.

في المساء، عدت إلى الغرفة. جلست على الأرض، وأسندت ظهري إلى الجدار. لم أشعل المصباح. كنت بحاجة إلى الظلام. فالظلام، أحيانًا، يجعل الإنسان يرى نفسه بوضوح. تذكرت طفولتي.

تذكرت ذلك الطفل الذي كان يخاف الليل.

كم كنت أظن أن الشجاعة تعني ألا أخاف. لكنني الآن أعرف أن الشجاعة هي أن تمشي نحو ما تخافه، لأن ضميرك يطلب منك ذلك. لقد كنت أخاف البقاء. لكنني كنت أخاف العودة أكثر. لا لأن الهند لم تعد وطني. بل لأنني كنت سأقضي بقية عمري أتساءل: ماذا لو بقيت؟

في تلك الليلة، لم أصلّ لكي يزيل الله عني المحنة. بل صليت أن يمنحني القدرة على فهمها.

هناك فرقٌ كبير بين الإنسان الذي يطلب النجاة من الألم... والإنسان الذي يطلب أن يفهم لماذا جاءه الألم.

كنت أشعر أن هذه الإهانة ليست نهاية الطريق. بل بدايته. وأن الله، الذي أغلق في وجهي باب القطار، ربما كان يفتح بابًا آخر، لا أستطيع رؤيته بعد.

وبينما كنت غارقًا في التفكير، تذكرت وجه أمي. لم أرها. لكنني استحضرت هدوءها. كانت تقول لي دائمًا إن الحقيقة لا تحتاج إلى الصراخ حتى تكون قوية. وإن الإنسان لا يقاس بما يستطيع أن يأخذه

من الدنيا... بل بما يستطيع أن يمنحه لها.

سألت نفسي:

إذا عدت الآن، ماذا سأمنح العالم؟

محامياً آخر؟

لكن إذا بقيت...

فربما أستطيع أن أمنح رجلاً واحداً شجاعة الوقوف حين يطلب منه الجميع أن ينحني.

وربما يكون رجلٌ واحد...

بداية أمة.

وقفت أمام المرأة. نظرت إلى وجهي طويلاً. كان هو الوجه نفسه الذي رأيته في لندن. وفي بومباي. لكن العينين لم تعودا كما كانتا. كان فيهما شيءٌ جديد. شيءٌ لم تصنعه الدراسة. ولا الكتب. ولا المحاكم. لقد صنعه ليلةٌ واحدة من الإهانة. حينها أدركت أن الجراح نوعان. جراحٌ تُضعف الإنسان. وجراحٌ تفتح فيه باباً لم يكن يعرف أنه موجود. وأيقنت أن هذه الليلة، على قسوتها، لم تكسرني. لقد كسرت فقط ذلك الرجل الذي كان يظن أن العدالة تعيش في القوانين وحدها.

وقبل أن أنام، فتحت دفترتي الصغير. وبقيت أحرق في الصفحة البيضاء طويلاً. ثم كتبت سطرًا واحدًا:

"لن أعود... ليس لأنني لا أشتاق إلى الهند، بل لأن هناك رجالاً ونساءً هنا لا يملكون رفاهية العودة."

أغلقت الدفتر. وأطفت المصباح. ولأول مرة منذ أن وطئت قدمي جنوب أفريقيا، لم أشعر أنني غريب. لقد بدأت أنتمي إلى قضية. والإنسان، حين يجد القضية التي تستحق أن يعيش من أجلها، يكتشف

أن الأوطان ليست دائماً الأماكن التي وُلد فيها... بل قد تكون الأماكن التي وُلدت فيها رسالته.

في تلك الليلة، لم أتخذ قرار البقاء في جنوب أفريقيا فحسب. بل اتخذت، من حيث لا أدري، القرار الذي سيقودني يوماً إلى أن أواجه إمبراطوريةً كاملة، لا بالسلاح، ولا بالكراهية... بل بشيءٍ كان ما يزال يولد ببطء في أعماقي.

الحقيقة.

فقدت إيماني بأن العدالة تُمنح تلقائياً لمن يستحقها. وربحت، في المقابل، إيماناً أعظم. أن العدالة لا تعيش إلا إذا وجد من ينهض كلما حاول الظلم أن يُسقطها.

منذ الليلة التي أنزلت فيها من القطار، لم يعد الألم يسكنني وحدي. صار يبحث عن وجوهٍ أخرى. كنت كلما نظرت إلى إنسانٍ هندي في شوارع جنوب أفريقيا، أسأل نفسي في صمت:

كم مرةً أهين هذا الرجل قبل أن ألتقيه؟

وكم مرةً ابتلع كرامته حتى يستطيع أن يعود مساءً إلى أطفاله حاملاً لقمة الخبز؟

لقد اكتشفت أن الجراح، حين تصيب الإنسان وحده، تكون حادثة. أما حين تصيب أمةً كاملة... فإنها تتحول إلى تاريخ.

دعاني بعض أفراد الجالية الهندية إلى اجتماعٍ صغير في منزل أحد التجار. كان البيت متواضعاً. لا تزين جدرانُه اللوحات الفاخرة، بل صورٌ قديمة لأهلٍ تركوا الهند منذ سنوات، وما زالوا يعيشون على أمل العودة.

جلس الرجال في دائرة.

كان بعضهم يرتدي الثياب الهندية التقليدية. وبعضهم ارتدى البذلات الأوروبية. لكنني، وأنا أنظر إلى وجوههم، شعرت أنهم جميعًا يرتدون شيئًا واحدًا لا تراه العين.

الإرهاق.

إرهاق الإنسان الذي يتعب كل يوم في إثبات أنه يستحق أن يُعامل كإنسان.

بدأ الحديث هادئًا. سألوني عن حادثة القطار. حكيت لهم ما جرى. كنت أظن أنني سأرى الدهشة في عيونهم. لكنني لم أرها. رأيت شيئًا أكثر إيلاّمًا.

الاعتیاد.

كانوا يصغون إليّ كما يصغي الطبيب إلى مريضٍ يعرف أعراضه كلها. لم يقاطعني أحد. ولم يبدُ على أحدهم الغضب. وكأن الإهانة أصبحت خبرًا عاديًا. وحين انتهيت، ساد الصمت. ثم قال شيخٌ تجاوز السبعين:

"مرحبًا بك في جنوب أفريقيا."

لم تكن جملة سخريّة. كانت جملة عزاء. وبدأ كل واحدٍ يروي حكايته.

قال أحدهم إنه ضُرب لأنه سار في شارعٍ مخصص للبيض. وقال آخر إنه مُنع من دخول فندق، رغم أنه كان يملك المال الكافي.

وروى ثالث أنه اضطر إلى خلع عمامته أمام موظفٍ حكومي، لأن الأخير رأى فيها إهانةً لسلطته.

كانت القصص تختلف. لكنها تنتهي دائمًا بالنهاية نفسها.

إذلال.

كنت أستمع إليهم، وأشعر أنني لا أسمع حكايات رجال. بل أسمع حكاية شعب.

تحدث شابٌ لم يتجاوز الخامسة والعشرين. كان صوته منخفضًا. قال:

"في البداية، كنت أغضب. ثم تعبت. والآن... لم أعد أشعر بشيء." توقفت الكلمات في الهواء. وشعرت بقشعريرةٍ تسري في جسدي. ليس لأن ما قاله قاسٍ. بل لأنه أخطر من القسوة. فالإنسان، حين يعتاد الظلم، لا يكون الظالم قد انتصر على جسده فقط. بل انتصر على روحه. وهذا هو الانتصار الذي لا يحق له أن يحدث. سألتهم:

"ولماذا لا تحتجون؟"

نظر بعضهم إلى بعض. ثم ابتسم أحدهم ابتسامةً حزينة. وقال: "ومن يسمعنا؟"

كانت الجملة قصيرة. لكنها بدت لي أثقل من الجبال.

كم من المظلومين في العالم لا يحتاجون إلى من ينقذهم أولاً... بل إلى من يسمعهم. فالإنسان يستطيع أن يحتمل الجوع. ويحتمل الفقر. لكن أصعب ما يحتمله... أن يشعر أن صوته لا يصل إلى أحد.

جلست صامتًا. كنت أراقب وجوههم. ورأيت شيئًا غريبًا. كل واحدٍ منهم كان يحمل الندبة نفسها، لكنها ظهرت في مكانٍ مختلف. هذا فقد ثقته. وذاك فقد حلمه. وثالث فقد شجاعته. أما الرابع... فقد فقد إيمانه بأن العدالة ممكنة أصلاً. عندها أدركت أن الظلم لا يسرق المال فقط. إنه يسرق المستقبل. يجعل الإنسان يعيش يومه، لأنه لم يعد يصدق أن الغد يمكن أن يكون أفضل.

وبعد انتهاء الاجتماع، خرجت مع رجلٍ مسن كان يعمل تاجرًا منذ

أكثر من ثلاثين عامًا. سرنا في الطريق بصمت. ثم قال لي:
"يا بني... نحن لا نطلب أن نكون سادة. ولا نطلب أن يحكمنا أحد
منا. نريد فقط أن نستطيع السير في الشارع دون أن نخاف."
توقفت عن المشي. تأملت كلماته طويلًا. كم هو متواضع حلم الإنسان
حين يُسلب منه كل شيء. لا يعود يطلب المجد. ولا الثروة. بل يطلب
حقًا بسيطًا، يولد به كل طفل على هذه الأرض. أن يمشي مرفوع
الرأس.

وفي تلك الليلة، عدت إلى غرفتي وأنا أحمل وجوههم معي. لم أعد
أستطيع أن أفكر في نفسي وحدي. كانت كل قصة سمعتها تستقر في
قلبي، كأنها تخصني أنا. وللمرة الأولى، فهمت معنى غريبًا.
أن الألم، إذا بقي حبيس صاحبه، قد يقتله. أما إذا أصبح جسرًا يعبر
به إلى آلام الآخرين... فقد يتحول إلى قوة.

وربما لهذا السبب يسمح الله لبعض الناس أن يتألموا. ليس
ليعذبهم. بل ليجعل قلوبهم أوسع.

جلست إلى مكثبي. فتحت ملف القضية التجارية التي جئت من أجلها.
قرأت صفتين. ثم أغلقتها. لم أعد أستطيع أن أرى الأوراق بالطريقة
نفسها. كانت الأرقام والعقود والبنود القانونية تبدو صغيرة أمام تلك
الوجوه التي رأيتها.

سألت نفسي:

ما قيمة أن أربح قضيةً لشركة... إذا بقي آلاف الرجال يخسرون
قضيتهم كل صباح، لمجرد أنهم وُلدوا بلونٍ أو عرقٍ لا يرضي
غيرهم؟

هناك بدأت أفهم أن رسالتي، إن كانت لي رسالة، لن تقف عند حدود
مكتب محاماة. لقد خرجت من الهند لأدافع عن نزاع بين تاجرين.
لكن الله، فيما يبدو، كان يريد أن يعرّفني إلى نزاعٍ أقدم بكثير. النزاع

بين كرامة الإنسان... وكبرياء الظلم.

وقبل أن أنام، أخرجت دفترتي الصغير. لم أكتب عن نفسي هذه المرة. كتبت أسماء الرجال الذين التقيتهم. وبجانب كل اسم، كتبت كلمة واحدة.

"كرامة."

ثم أغلقت الدفتر.

وأدركت أنني لم أعد أرى الجالية الهندية مجموعةً من الغرباء الذين جمعتني بهم المصادفة. لقد أصبحت أراهم مرآةً لجرحي. وإذا كان جرحي قد أيقظني من غفلاتي... فربما كانت جراحهم هي التي ستعلمني كيف يتحول الألم، إذا حمله الإنسان بصدق، إلى رسالةٍ لا تخص شعباً واحداً، ولا قارةً واحدة... بل تخص الإنسان أينما كان.

منذ طفولتي، كنت أوّمن أن القانون هو أقرب ما صنعه الإنسان إلى العدالة. ولهذا اخترت أن أدرسه. ولأجل ذلك قطعت البحار إلى لندن. وقضيت سنواتٍ طويلة بين الكتب، أحفظ المواد، وأفهم السوابق القضائية، وأتلم كيف تُبنى الأحكام. كنت أظن أن العدالة تشبه معادلةً رياضية. إذا كانت الوقائع صحيحة... وكان القانون واضحاً... فلا بد أن تكون النتيجة عادلة. لكن جنوب أفريقيا أخذت تلك الفكرة من يدي برفق... ثم حطمتها أمام عيني.

كل صباح، كنت أدخل المحاكم مرتدياً بدلتني السوداء. أحمل الملفات نفسها التي يحملها المحامون البيض. وأتحدث باللغة القانونية نفسها. وأستشهد بالنصوص ذاتها. لكنني كنت أشعر، منذ أن أخطو داخل المبنى، أن هناك محاكمةً أخرى تجري بصمت. محاكمةً لا علاقة لها بالقضية. ولا بالأدلة. ولا بالشهود. كانت محاكمةً للون وجهي. ولأصلي. ولاسمي.

وكم هو مؤلم أن يدخل الإنسان قاعةً بصفته محامياً... ثم يُجبر على الدفاع أولاً عن حقه في أن يُعامل كإنسان.

في إحدى الجلسات، كنت أنتظر دوري للمرافعة. دخل أحد المحامين الأوروبيين. صافح زملاءه. ثم مرت عيناه عليّ. توقف قليلاً. وسأل موظف المحكمة:

"هل هذا الرجل مترجم؟"

أجاب الموظف:

"إنه محامٍ."

بدت الدهشة على وجهه. لم ينظر إليّ مرةً أخرى. لكنه ترك في داخلي سؤالاً ظل يرافقني طويلاً. كيف يمكن لإنسان أن يستغرب أن يكون رجلٌ من عرقٍ آخر قادراً على التفكير؟

إن الاستعلاء لا يبدأ بالإهانة.

بل يبدأ بالدهشة من المساواة.

كنت أراجع القوانين المحلية. أقرأ المواد بنداً بنداً. وأحاول أن أفهم كيف استطاع الظلم أن يجد لنفسه مكاناً داخل نصوصٍ يفترض أنها وُضعت لتحقيق الإنصاف. واكتشفت أن القانون قد يكون عادلاً في عباراته... وظالماً في تطبيقه. فالنصوص لا تتحرك وحدها. إنها تحتاج إلى بشر.

وإذا امتلأت قلوب البشر بالتعصب...

فإن أجمل القوانين تصبح عاجزة.

عندها أدركت أن المشكلة لم تكن في الحبر. بل في اليد التي تفسره.

وذات يوم، جاءني عاملٌ هندي بسيط. كان يحمل قبعته بين يديه،

وكأنه يخشى أن يلوث بها مكتبي. جلس أمامي في تردد. وروى لي قصته. كان قد تعاقد مع أحد أصحاب المزارع. عمل أشهرًا طويلة. وحين طالب بأجره، طُرد من العمل، وقيل له إن بإمكانه أن يشتكي حيث يشاء.

سألني بصوتٍ خافت:

"هل سينصفني القانون؟"

نظرت إليه. ثم إلى يديه الخشنتين، اللتين حفرت الشمس خطوطها فيهما. أردت أن أجيبه كما تعلمت في الجامعة.
أن أقول له:

"إذا أثبتنا الوقائع، وكسبنا الدعوى، فستحصل على حقاك."

لكن الكلمات توقفت في حلقي. لأنني لم أعد واثقًا من ذلك. وكان أصعب ما يواجه المحامي... أن يعجز عن أن يعد المظلوم بالعدل.

خرج الرجل من عندي. وبقيت أفكر في سؤاله. هل كنت، طوال سنوات الدراسة، أتعلم كيف أكسب القضايا؟ أم كيف أخدم العدالة؟ هناك فرق هائل بين الأمرين. فقد يكسب المحامي قضيةً خاسرة أخلاقيًا. وقد يخسر قضيةً، لكنه ينتصر للحق.

ومنذ ذلك اليوم، بدأت أشعر أن المحاماة ليست فن الانتصار في المحاكم. بل فن الدفاع عن كرامة الإنسان، مهما كانت النتيجة.

في إحدى الأمسيات، كنت أسير قرب مبنى المحكمة. وقفت أتأمل أعمدته العالية. كانت شامخة. صلبة. توحى لكل من يراها بأن العدالة تسكن بينها. لكنني سألت نفسي:

هل تكفي الأعمدة العالية لتجعل البناء عادلاً؟

إن المعبد لا يصبح مقدسًا بسبب الحجارة. بل بسبب القلوب التي تدخله. وكذلك المحاكم. قد تكون الجدران عظيمة. لكنها، إن خلت من الضمير، لا تزيد على كونها حجارةً مرتبةً باتقان.

كلما ازددت احتكاكًا بالمحاكم، ازداد يقيني أن القانون وحده لا يكفي.

إنه يشبه المصباح. ينير الطريق. لكنه لا يجبر أحدًا على السير فيه. وقد يحمل الظالم المصباح نفسه الذي يحمله المظلوم.

لكن أحدهما يبحث عن الحق...

والآخر يبحث عن وسيلةٍ ليبرر باطله.

ولهذا بدأت أطرح على نفسي سؤالًا جديدًا. كيف يمكن إصلاح المجتمع، إذا كان القانون نفسه أسيرًا للمجتمع؟ وهل يبدأ التغيير من النصوص... أم من القلوب؟

كنت أعود كل ليلة إلى غرفتي مثقلًا بهذه الأسئلة. أفتح كتبي القديمة التي جئت بها من لندن. أقلب صفحاتها. فأبتسم.

لم تكن الكتب مخطئة. لكنها كانت ناقصة. لقد علمتني كيف أفسر القانون. أما الحياة... فكانت تعلمني لماذا وُجد القانون أصلًا. لقد وُجد ليحمي الضعيف. فإذا أصبح الضعيف يخاف منه... فلا بد أن شيئًا عميقًا قد انكسر.

وفي ليلة هادئة، جلست أمام النافذة. كانت المدينة تغرق في السكون. ورفعت بصري إلى السماء. سألت نفسي:

ما العدالة؟

أهي حكمٌ يصدره قاضٍ؟

أم مادةٌ يكتبها مشرّع؟

أم شيءٌ أقدم من ذلك كله؟

شعرت أن العدالة ليست اختراعًا بشريًا. إنها قانونٌ زرعه الله في

ضمير الإنسان قبل أن تُكتب أول مادة قانونية على الأرض. ولهذا، حين يصمت الضمير... تعجز المحاكم عن تعويض غيابه.

أخرجت دفترتي الصغير. كتبت فيه:

"القانون الذي لا يحمي كرامة الإنسان... ليس إلا ظلًا للعدالة، لا العدالة نفسها."

ثم بقيت أهدق في تلك الجملة طويلًا. كنت أشعر أنها لا تتحدث عن جنوب أفريقيا وحدها. بل عن العالم كله. وعن نفسي أيضًا. فأنا لم أعد أريد أن أصبح محاميًا بارعًا فحسب. لقد بدأت أبحث عن شيء أصعب. أن أصبح رجلًا، إذا وقف أمام قانونٍ ظالم، لم يسأل أولًا:

كيف أربح القضية؟

بل سأل:

كيف

أربح إنسانيتي؟

وحين أغلقت دفترتي، لم أكن أعلم أنني أبتعد خطوةً أخرى عن صورة المحامي التقليدي التي حلمت بها في شبابي. وأنني، دون أن أشعر، كنت أقترب من الطريق الذي سيجعلني أو من يومًا بأن أعظم القوانين لا تُكتب في دفاتر المحاكم... بل تُكتب في ضمير الإنسان، ثم تُترجم إلى أفعالٍ تغير وجه التاريخ.

لا أذكر أنني اتخذت قرارًا في حياتي كان أكثر هدوءًا... ولا أكثر ضجيجًا.

لم تُقرع الطبول. ولم تُلقَ الخطب.

ولم يكن هناك جمهور يصفق لرجلٍ أعلن أنه سيواجه الظلم.

كنت وحدي. في غرفة صغيرة، يتسلل إليها ضوء الصباح بخجل. لكنني كنت أشعر أن الكون كله يصغي إلي ذلك الصمت. فبعض العهود لا تُعقد بين الإنسان والناس. بل بين الإنسان ونفسه. والعهود التي يشهدها الضمير... أصعب من كل العهود.

وضعت أمامي أوراق القضية التجارية التي جئت من أجلها. تصفحتها صفحةً صفحةً.

العقود.

الأرقام.

المطالبات.

الاعتراضات.

كل شيء كان منظمًا. واضحًا. قابلاً للحل.

ثم رفعت رأسي. وتذكرت وجوه الرجال الذين التقيتهم في تلك الليلة. وتذكرت العجوز الذي قال لي:

"نريد فقط أن نمشي دون أن نخاف."

وفجأة شعرت أن تلك الأوراق، على أهميتها، أصبحت أصغر من أن تحتل كل ما يدور في قلبي. لقد جئت إلى جنوب أفريقيا من أجل قضية واحدة. لكن جنوب أفريقيا كانت تضع أمامي قضية شعب كامل.

خرجت أمشي وحدي. كنت أحتاج إلى أن أسمع أفكارى بعيدًا عن أصوات الناس. وصلت إلى مكانٍ مرتفع، يطل على المدينة. جلست فوق صخرة. ومن هناك رأيت البيوت، والطرقات، والمحطة، والمحكمة. بدت كلها صغيرة. وحين تصغر الأشياء أمام عينيك، تبدأ برؤية الصورة التي كانت مختبئة بينها. أدركت أن ما رأيته منذ وصولي لم يكن أحداثًا منفصلة. القطار. المحكمة. قصص العمال.

صمت الناس. كلها كانت فصولاً من روايةٍ واحدة.

رواية اسمها...

الكرامة المهدورة.

سألت نفسي:

ولماذا أنا؟

هناك آلاف الهنود هنا. وفيهم رجال أكبر مني سنًا. وأغنى مني مالًا.

وأوسع مني خبرة. فلماذا أشعر أن هذا الطريق يناديني أنا؟

ثم ابتسمت.

لأنني تذكرت أن الله، في التاريخ كله، لم يكن يبحث دائمًا عن أقوى

الرجال. بل عن أكثرهم استعدادًا لأن يقول: نعم.

قد لا أكون الأقدر. لكنني كنت مستعدًا لأن أبدأ.

وأحيانًا...

تكون البداية أهم من القدرة.

كانت الفكرة التي تقلقني أكثر من غيرها هي الخوف. ليس خوفي

أنا. بل خوف الناس. لقد رأيت رجالًا أقوىاء في أجسادهم. لكنهم

انهزموا في داخلهم. والإنسان، إذا أقنعه الظالم بأنه عاجز، أصبح

يحتاج إلى سنوات طويلة حتى يستعيد ثقته بنفسه. وهناك فهمت أن

المعركة الحقيقية لن تكون مع القوانين وحدها. بل مع الخوف.

فالاستبداد لا يعيش بالسلح فقط. إنه يعيش لأن الخوف يمدّه بالطعام

كل يوم. فإذا توقف الناس عن إطعامه... بدأ يذبل.

لكنني كنت أعرف أيضًا أن الغضب لا يصلح قائدًا. رأيت في حياتي

رجالًا أشعلهم الغضب، فانتهوا رمادًا. ورأيت آخرين دفعتهم

الكراهية إلى أن يشبهوا من كانوا يقاومونه.

وسألت نفسي:

إذا كنت سأحارب الظلم بظلمٍ آخر... فما الذي سيتغير؟

لن تتغير إلا الأسماء.

أما الألم...

فسيبقى هو نفسه.

هناك، لأول مرة، بدأت أشعر أن الطريق الذي أبحث عنه لا يمكن أن يولد من الانتقام. بل من شيءٍ أعمق. شيءٍ يجعل الإنسان ثابتًا دون أن يكون قاسيًا. وقويًا دون أن يكون عنيفًا. ولم أكن قد وجدت الاسم بعد. لكنني كنت أشعر أن الفكرة قد بدأت تنبض في داخلي، كما ينبض قلب طفلٍ لم يولد بعد.

عدت في المساء إلى مقر إقامتي. جلست إلى مكتبي. وأحضرت ورقةً بيضاء. لم تكن رسالة. ولم تكن مذكرة قانونية. كانت وعدًا. وعدًا لن يقرؤه أحد غيري. كتبت فيه:

"لن أسمح للإهانة التي وقعت عليّ أن تبقى حادثةً شخصية. سأجعلها بدايةً لفهمٍ جديد. لن أطالب بكرامتي وحدي. بل بكرامة كل إنسان يُعامل كما لو أنه أقل من غيره. وسأحاول، ما استطعت، أن أقاوم الظلم دون أن أسمح له بأن يزرع الكراهية في قلبي." توقفت.

أعدت قراءة الكلمات.

ثم شعرت أنها لا تكفي.

فالعهود الحقيقية لا تُكتب بالحبر.

إنها تُكتب بالأيام.

طويت الورقة. ووضعتها داخل دفترتي الصغير. ولم أخبر أحدًا بما

كتبت.

فالقرارات العظيمة، في بدايتها، تكون هشة.

تشبه البذرة.

لو كشفتها للريح قبل أوانها، ربما ماتت.

أما إذا تركتها في صمت الأرض...

فقد تصبح يوماً شجرةً يستظل بها الملايين.

في تلك الليلة، لم أنم سريعاً. كنت أهدق في سقف الغرفة. وأفكر في السنوات القادمة. لم أكن أعرف كم ستطول إقامتي هنا. ولا كم مرة سأعرض للإهانة. ولا كم باباً سيُغلق في وجهي. لكنني كنت أعرف شيئاً واحداً. أنني، إذا غادرت جنوب أفريقيا الآن، فسأعود إلى الهند بجسدٍ سليم... وروحٍ مكسورة. أما إذا بقيت... فربما تُكسر أشياء كثيرة في حياتي. لكن روعي ستظل واقفة. وأدركت أن الإنسان لا يخسر حين يتألم من أجل قضية يؤمن بها. إنه يخسر فقط... حين يعيش عمره كله هارباً من واجبه.

وقبل أن أطفئ المصباح، فتحت نافذتي. كان الليل ساكناً. ورفعت بصري إلى السماء. تذكرت النجوم التي رأيتها فوق بوربندر. وفوق لندن. وفوق بيتيرماريتسبورغ. كانت هي نفسها. لم تتغير. عندها فهمت أن الحقيقة تشبه النجوم. قد تحجبها الغيوم. وقد لا يراها الناس. لكنها لا تختفي. وإذا كان الله قد خلق الكون قائماً على قوانين ثابتة... فلا بد أن العدالة أيضاً قانون. قد يتأخر ظهوره. لكنه لا يموت.

أغلقت النافذة. وأطفأت المصباح. ولم أكن أعلم أن العهد الذي قطعته على نفسي في تلك الغرفة الصغيرة، لن يبقى عهد رجلٍ واحد. بل سيصبح، مع مرور السنوات، عهد أمةٍ كاملة. ولم أكن أدرك أن التاريخ لا يبدأ دائماً بمعركةٍ عظيمة... بل قد يبدأ برجلٍ يجلس وحده

في الليل، ويقرر، بصمتٍ لا يسمعه أحد، أن يخوض معركته الأولى... ضد الخوف الذي يسكن داخله.

بعد تلك الليالي التي بدّلت روعي، لم يعد الصمت ممكناً. لقد أدركت أن الإنسان يستطيع أن يحتمل الظلم حين يظنه قدرًا، لكنه يبدأ بالتمرد عليه حين يكتشف أنه من صنع البشر. ولأن البشر صنعوه... فالبشر قادرون على تغييره.

كان هذا الاكتشاف صغيرًا في ظاهره. لكنه كان، بالنسبة إليّ، أشبه بشرارة تسقط في غابة جافة. قد لا يراها أحد في لحظتها. لكنها، إن وجدت ما يغذيها، تستطيع أن تتحول إلى نار تضيء ليلاً طويلاً.

بدأت أزور بيوت الهنود واحدًا تلو الآخر. لم أكن أذهب إليهم بصفتي محاميًا. ولا رجلاً يريد الشهرة. بل رجلاً يبحث عن الحقيقة.

كنت أجلس على الأرض مع العمال. وأجلس في المكاتب مع التجار. وأستمع أكثر مما أتكلم. لقد اكتشفت أن الإصغاء أول أشكال الاحترام. وأن أكثر الناس ألمًا... هم الذين لم يجدوا من يسمعهم. كان كل بيت أدخله يضيف إلى قلبي حكاية جديدة. حتى شعرت أنني لم أعد أحمل قلبي وحدي. بل أحمل قلوبهم جميعًا.

وفي أحد الأيام، قال لي تاجرٌ هندي:

"كل واحدٍ منا يشكو وحده. ثم يعود إلى عمله. وغداً تتكرر القصة." ظللت أفكر في كلماته طويلاً. لقد كان محقًا. إن الظلم يحب العزلة. يفرح حين يجعل كل مظلوم يظن أنه وحده. لأن الإنسان المنعزل ينكسر بسهولة. أما حين يكتشف أن ألمه مشترك... فإنه يبدأ باستعادة قوته.

هناك بدأت تتشكل في ذهني فكرةٌ جديدة. لسنا بحاجة إلى بطلٍ واحد.

بل إلى ضمائر كثيرة تستيقظ معًا. اقترحت أن نجتمع. لا لنبكي على ما حدث. ولا لنتبادل الشكوى. بل لنسأل أنفسنا سؤالاً واحداً:

ماذا نستطيع أن نفعل؟

كانت الفكرة بسيطة. لكنني رأيت في عيون بعضهم ترددًا عميقًا.

قال أحدهم:

"وإذا غضبت السلطات؟"

وقال آخر:

"وماذا لو خسرنا أعمالنا؟"

وقال ثالث:

"لقد حاول غيرنا من قبل، ولم يتغير شيء."

كنت أفهم خوفهم. لأنني كنت، قبل أيام فقط، أحمل الخوف نفسه. لكنني بدأت أؤمن أن الشجاعة ليست غياب الخوف. بل رفض أن يكون الخوف هو الذي يتخذ القرارات.

تقرر أن يُعقد الاجتماع في قاعة متواضعة تعود لأحد أبناء الجالية.

وفي اليوم المحدد، دخلت القاعة قبل الجميع. كانت المقاعد الخشبية مصطفة في هدوء. والغرفة بسيطة، لا زينة فيها. وقفت في وسطها أتأمل المكان. ثم ابتسمت. كم هو عجيب أن التاريخ لا يحب القصور. إنه كثيرًا ما يبدأ في أماكن صغيرة لا يلتفت إليها أحد. في غرفة ضيقة. أو على ظهر سفينة. أو في زنزانة. أو على مقعد بارد في محطة قطار. بدأ الناس يتوافدون. وجوه أعرفها. وأخرى أراها للمرة الأولى. تجار. وعمال. وشباب. وشيوخ. ورجال جاءوا مترددين، كأنهم يخشون أن تُحسب عليهم مجرد المشاركة.

جلست أنظر إليهم. ولم أرَ فيهم طوائف، ولا مهناً، ولا طبقات. رأيت

شيئاً واحداً فقط. أناساً أنهكهم الصمت.

وقفت لأتحدث. كانت تلك واحدة من اللحظات التي لا يغادر فيها الإنسان ذاكرته أبداً. لم أكن خطيباً مفوهاً. ولم أكن أبحث عن التصفيق. بل كنت أتكلم كما لو أنني أحدث نفسي.

قلت لهم:

"ما حدث لي في القطار، يمكن أن يحدث لأي واحدٍ منكم. وما يحدث لكم كل يوم، يمكن أن يحدث لي. ولهذا... فإن قضيتنا ليست قضية رجل. بل قضية كرامة."

ساد الصمت. ذلك الصمت الذي يولد حين تلامس الكلمات مكاناً كان الناس يخفونه حتى عن أنفسهم.

ثم تابعت:

"لن نستعيد احترام الآخرين لنا، إذا كرهنناهم. ولن نستعيده، إذا خفنا منهم. سنستعيده حين نحترم أنفسنا أولاً، ونقف معاً، لا ضد أحد... بل مع الحق."

لم يكن الاجتماع ثورة. ولم تصدر عنه قرارات تهز الإمبراطورية. كل ما حدث أن مجموعة من الرجال خرجوا من القاعة وهم يشعرون بأنهم لم يعودوا وحدهم. قد يبدو ذلك أمراً صغيراً. لكنه، في نظري، كان أعظم ما تحقق في ذلك اليوم. فالطغيان لا يخشى السلاح في بدايته. إنه يخشى أن يكتشف الناس أنهم قادرون على الوقوف جنباً إلى جنب.

بعد انفضاض الاجتماع، بقيت وحدي في القاعة. كانت المقاعد فارغة. والهدوء يملأ المكان. مررت بيدي على أحد المقاعد الخشبية. وفكرت:

قبل ساعات، كان هذا المكان صامتاً. أما الآن... فقد امتلأ بالأمل.

والأمل، إذا دخل قلب إنسان، يصبح قوةً لا تُقاس بعدد الجنود، ولا بحجم الجيوش. لقد بدأت أفهم أن التغيير لا يولد من لحظة الغضب. بل من لحظة الإيمان. الإيمان بأن الإنسان، مهما بدا ضعيفًا، يستطيع أن يغير مجرى التاريخ إذا رفض أن يتخلى عن ضميره.

خرجت من القاعة، وكانت الشمس تميل نحو المغيب. أقلت أشعتها الذهبية على الطرقات، فكانها كانت تمنح كل شيء لوناً جديداً. سرت ببطء. ولم أكن أشعر أنني أسير وحدي. كانت أصوات الرجال الذين التقيتهم تمشي معي.

وأحلامهم.

وخوفهم.

ورجاؤهم.

شعرت أن الطريق الذي بدأ بحقبة محامٍ شاب جاء إلى جنوب أفريقيا ليكسب قضية قانونية... قد أصبح طريقاً آخر تماماً. طريقاً لا أعرف نهايته. لكني أعرف أنه لن يسمح لي بالعودة إلى الرجل الذي كنت عليه.

وفي تلك الليلة، فتحت دفتر يوميّاتي الصغير. كتبت:

"لا يبدأ التغيير حين يسقط أول حجرٍ في جدار الظلم. بل يبدأ حين ينهض أول إنسان، ويؤمن أن الجدار ليس قدرًا."

أغلقت الدفتر. ورفعت رأسي إلى السماء. لم أكن أرى المستقبل. لكنني كنت أشعر به. كان يقترب ببطء، كما يقترب الفجر من الأفق قبل أن يراه أحد. ولم أكن أعلم أن الشرارة الصغيرة التي وُلدت في تلك الاجتماعات المتواضعة، ستكبر عامًا بعد عام، حتى تصبح فلسفةً كاملة، لا تقوم على السلاح، ولا على الانتقام، بل على قوةٍ أعظم من كل قوة... قوة الحقيقة حين تجد قلبًا لا يخاف.

ولادة فلسفة

اللاعنف

حين كنت طفلاً، كنت أظن أن الكتب تشبه المصابيح. تكشف للإنسان ما لا يراه في الظلام. لكنني، بعد سنوات طويلة، اكتشفت أن الكتب العظيمة لا تشبه المصابيح... بل تشبه المرايا. إنها لا تخبرك من تكون. بل تجعلك ترى نفسك كما لم ترها من قبل. ولذلك، كلما تغير الإنسان... قرأ الكتاب نفسه بطريقة مختلفة.

بعد أن بدأت معركتي مع قوانين جنوب أفريقيا، شعرت أن التجربة وحدها لم تعد تكفي. كان الألم يعلمني كثيراً. لكن الألم، إذا لم يجد فكرةً تهديه، قد يتحول إلى غضب.

أما أنا...

فلم أكن أريد أن يقودني الغضب. كنت أبحث عن شيءٍ أعمق. عن حقيقة تستطيع أن تصمد، حتى عندما يخسر صاحبها كل شيء. ولهذا عدت إلى الكتب. لا هرباً من الواقع... بل بحثاً عن معنى الواقع.

أخرجت من مكتبتي نسخةً قديمةً من البهاغافاد غيتا أو "أنشودة الإله" أو "أغنية الرب"، وهي أحد أهم النصوص الروحية والمقدسة في الديانة الهندوسية وجوهر الفلسفة اليوغية

كنت قد قرأتها من قبل. لكنني أعترف أنني، في شبابي، كنت أقرأها بعين طالبٍ يبحث عن المعرفة. أما الآن... فكنت أقرأها بعين رجلٍ يبحث عن نفسه.

كم هي غريبة الكتب الخالدة. إنها لا تتغير أبداً... لكن القارئ هو الذي يتغير. ولهذا تبدو وكأنها تكتب نفسها من جديد في كل مرة. جلست ساعات طويلة أقلب صفحاتها. لم أكن أبحث عن آيةٍ أستشهد بها في خطاب. ولا عن حكمةٍ أزين بها حديثاً. كنت أبحث عن طريق. وكان الطريق يختبئ بين الكلمات، كما يختبئ النهر تحت الضباب.

توقفت طويلاً عند فكرة أداء الواجب دون تعلق بالنتيجة. في البداية، بدت لي فكرةً صعبة. كيف يستطيع الإنسان أن يعمل سنوات، وهو لا يضمن النجاح؟

ثم بدأت أفهم. إن الذي يجعلنا عبيدًا للفشل ليس الفشل نفسه... بل تعلقنا بالثمرة. أما إذا صار الواجب هو الغاية... فإن الإنسان يصبح حرًا، سواء انتصر اليوم أم بعد عشرين عامًا. وهناك شعرت أنني وجدت حجرًا جديدًا أبني عليه حياتي. لن أعمل لأنني واثق من النصر. بل لأن الحق يستحق أن يُعمل له. ثم عدت إلى العهد الجديد. كنت قد قرأته أيام إقامتي في لندن. لكنه عاد إليّ هذه المرة بصوتٍ مختلف. توقفت عند دعوة المسيح إلى محبة الأعداء. واعترف أنني، حين قرأتها أول مرة، حسبتها مثاليةً بعيدة عن الواقع. أما الآن، بعد ليلة القطار، وبعد ما رأيته من ظلم، أصبحت أسأل نفسي:

هل يستطيع الإنسان حقًا أن يحب من يهينه؟

ظل السؤال يرافقني أيامًا.

ثم أدركت أن المحبة لا تعني قبول الظلم. ولا تعني الاستسلام له. بل تعني أن ترفض أن تسمح للظالم بأن يحول قلبك إلى نسخة من قلبه. قد يجرح جسدي. لكن ليس من حقه أن يعلمني الكراهية.

كانت هذه الفكرة شاقة. لكنني شعرت أنها الطريق الوحيد الذي لا ينتهي إلى دائرة لا تنتهي من الانتقام.

وفي تلك السنوات، وصلنتني كتابات رجلٍ روسي لم ألقه قط... لكنني شعرت أنه يعرف شيئًا مما كنت أبحث عنه. كان ذلك هو ليو تولستوي.

كنت أقرأ كلماته ببطء. لا لأنها معقدة. بل لأنها كانت تطلب من القارئ أن يكون صادقًا مع نفسه. كان يكتب عن الضمير، وعن القوة الأخلاقية، وعن أن الإنسان يستطيع أن يهزم الشر إذا رفض أن يصبح جزءًا منه.

أغلقت أحد كتبه ذات مساء، وقلت لنفسي:

"ما أعجب العالم. رجل يعيش في أقصى الشمال، في روسيا، يستطيع

أن يمد يده إلى رجلٍ هندي يعيش في جنوب أفريقيا، دون أن يلتقيا.
الأفكار لا تعرف الحدود. ولهذا تخافها الإمبراطوريات أكثر مما
تخاف البنادق."

ثم جاءني كتاب «إلى هذا الأخير» لجون رسكن. قرأته في رحلة
بالقطار. وحين وصلت إلى الصفحة الأخيرة، لم أعد الرجل نفسه.
لم يكن الكتاب يتحدث عن السياسة.

بل عن الإنسان.

عن قيمة العمل.

وعن كرامة العامل.

وعن أن المجتمع لا يقاس بثروة أغنيائه، بل بكرامة أضعف أفراده.
أغلقت الكتاب، وبقيت أحرق من نافذة القطار طويلاً. كنت أرى
الحقول تمر أمامي. لكنني، في الحقيقة، كنت أرى حياتي كلها تمر
أمامي. لقد كنت أعيش، مثل كثيرين، مؤمناً بأن النجاح يعني أن
يرتفع الإنسان فوق الآخرين.

أما رسكن...

فجعلني أفهم أن النجاح الحقيقي هو أن يرتفع الإنسان مع الآخرين.
ومنذ تلك اللحظة، بدأت فكرة المجتمع الذي يعيش أفراده متساوين
تتشكل في خيالي، قبل أن تتحول لاحقاً إلى واقع.

لكنني تعلمت شيئاً آخر لا يقل أهمية. كل كتابٍ عظيم يحمل جزءاً
من الحقيقة. ولا يحمل الحقيقة كلها.

كان بعض الناس يسألونني:

أي كتابٍ غير حياتك؟

فكنت أبتسم. وأقول في نفسي: لم يغيرني كتاب واحد. لقد غيرتني
الحياة وهي تقرأ الكتب معي.

فلو قرأت البهاغافاد غيتا دون أن أُطرد من القطار، لفهمتها بطريقةٍ أخرى.

ولو قرأت تولستوي وأنا أعيش في راحة، لما شعرت بحرارة كلماته. إن التجربة هي التي تمنح الحروف روحها. أما الحروف وحدها... فتبقى حبرًا على ورق.

وفي إحدى الليالي، جمعت الكتب كلها أمامي.

البهاغافاد غيتا.

العهد الجديد.

تولستوي.

ورسكن.

ظللت أنظر إليها طويلًا.

ثم سألت نفسي:

كيف يمكن لهذه الكتب المختلفة أن تتفق، رغم أنها خرجت من أممٍ وثقافاتٍ وعصورٍ متباعدة؟

وكان الجواب بسيطًا بصورةٍ أدهشتني. لأن الحقيقة لا تملك وطنًا. الإنسان هو الذي يقسم الأرض إلى أمم. أما الحكمة... فهي تسافر بحرية. وحين تصل إلى قلبٍ مستعد، تستقر فيه، مهما كان لونه أو لغته أو دينه.

ومنذ ذلك اليوم، لم أعد أقرأ لأزداد علمًا فقط. بل لأزداد تواضعًا. كلما ازدادت قراءة، ازدادت يقينًا بأن الحقيقة أكبر من أن يحتكرها رجل، أو دين، أو أمة. وأن الله، في حكمته، نثر بذور النور في أماكن كثيرة، حتى يظل الإنسان محتاجًا إلى الإصغاء للآخر، لا إلى احتقاره. وربما لهذا السبب لم أشعر يومًا أن الكتب كانت تتنافس في داخلي. بل كانت تتحاور. وكان قلبي... هو القاعة التي يجلسون فيها

جميعًا.

وفي تلك الليلة، أغلقت آخر كتاب. وأطفأت المصباح. لكنني شعرت أن نورًا آخر قد اشتعل في داخلي. لم يكن نور المعرفة. فالمعرفة قد تجعل الإنسان أكثر ذكاءً. أما الذي بدأ ينمو في روعي... فكان الحكمة. والحكمة، كما بدأت أفهم، ليست أن تعرف كيف تنتصر على خصمك. بل أن تعرف كيف تنتصر على نفسك أولاً.

وهناك، بين صفحات الكتب، لم أولد قارئًا جديدًا... بل بدأت أولد إنسانًا جديدًا. إنسانًا يؤمن أن الحقيقة ليست فكرة تُكتب في كتاب... بل حياة ينبغي أن تُعاش، ولو كلفت صاحبها عمره كله.

ثمة كلماتٌ يولدها القاموس.

وثمة كلماتٌ يولدها التاريخ.

الأولى يستطيع الإنسان أن يحفظ معناها في دقائق.

أما الثانية...

فإنها تحتاج إلى أعوامٍ من الألم حتى تُفهم.

وكلمة ساتياغراها لم أبتكرها وأنا جالس خلف مكتب، أبحث عن اسمٍ جميل لفكرةٍ جديدة. لقد خرجت من بين الجراح. ومن ليالٍ طويلة قضيتها أسأل نفسي سؤالًا واحدًا:

كيف يمكن للإنسان أن يقاوم الشر... دون أن يصبح جزءًا منه؟

كلما اتسعت لقاءاتي مع أبناء الجالية الهندية، ازداد عدد الذين كانوا ينتظرون مني جوابًا.

كانوا يقولون:

"ماذا نفعل؟"

وكان السؤال، في ظاهره، بسيطاً. لكنه كان يحمل آلاف الأسئلة الأخرى.

هل نحمل السلاح؟

هل نرد الإهانة بإهانة؟

هل نحرق ممتلكاتهم كما يحرقون كرامتنا؟

هل نخاف ونسكت؟

كنت أستمع إليهم، وأشعر أن كل جوابٍ متسرع قد يصنع كارثةً تمتد إلى أجيال. فالزعيم لا يُقاس بما يوقظ في الناس من غضب... بل بما يمنعهم من أن يضيعوا في غضبهم.

جلست أياماً طويلة أراقب نفسي قبل أن أراقب الآخرين. كنت أعرف أن في داخلي غضباً. ولم أخجل من الاعتراف بذلك. فالإنسان الذي لا يغضب أمام الظلم... فقد شيئاً من إنسانيته. لكنني كنت أخاف من شيءٍ آخر. أن يتحول غضبي إلى قائد. فالغضب أعمى. وإذا أمسك بيد صاحبه، قاده غالباً إلى المكان الذي كان يريد الهرب منه.

رأيت كثيراً من الثورات تبدأ بالحديث عن الحرية... ثم تنتهي بصناعة سجونٍ جديدة. ورأيت كثيراً من المظلومين، حين امتلكوا القوة، يقلدون جلاديهم دون أن يشعروا.

هناك أيقنت أن المشكلة ليست في تبدل المواقع. بل في تبدل القلوب.

بدأت أبحث عن طريقٍ ثالث.

طريقٍ لا يشبه الاستسلام.

ولا يشبه الانتقام.

كنت أشعر أن الله لا يمكن أن يضع الإنسان بين خيارين كلاهما هزيمة.

إما أن يخضع للباطل...

أو يتحول إلى باطلٍ آخر.

لا بد أن هناك طريقًا لم نكتشفه بعد. وكان هذا الإيمان هو الذي أبقاني أبحث.

في إحدى الليالي، كتبت على ورقة ثلاث كلمات.

الخوف.

العنف.

الحقيقة.

ظللت أهدق فيها طويلاً.

ثم سألت نفسي:

أي هذه الكلمات يملك القدرة على تغيير العالم؟

الخوف يصنع العبيد.

والعنف يصنع المقابر.

أما الحقيقة...

فقد تصنع إنساناً حراً.

ومنذ تلك اللحظة، بدأت أشعر أن الحقيقة ليست مجرد فضيلة أخلاقية.

إنها قوة.

بل ربما كانت أعظم قوة عرفها الإنسان. لأن السلاح يستطيع أن يجبر الجسد. أما الحقيقة... فتخاطب الضمير.

لكن الحقيقة وحدها لا تكفي. فالإنسان قد يعرف الحقيقة... ثم يخاف أن يدفع ثمنها. وهناك فهمت أن التمسك بالحقيقة يحتاج إلى شجاعة. شجاعة لا تقوم على العضلات. بل على الاستعداد لتحمل الألم.

كان عليّ أن أجد اسمًا لهذه القوة الجديدة. قوة لا تضرب. ولا تهرب.
ولا تساوم على الحق. بل تقف ثابتة، مهما اشتدت العاصفة.

بدأنا نتبادل الآراء. كان بعض الأصدقاء يقترح أسماءً مختلفة. لكنها
جميعًا كانت تبدو ناقصة. فهي تصف الاحتجاج. ولا تصف الروح
التي تقوده. ثم خرجت الكلمة إلى النور.

ساتياغراها.

ساتيا... أي الحقيقة.

وأغراها... أي التمسك الثابت، أو القوة التي لا تتراجع.

حين نطقت الكلمة لأول مرة، شعرت أنها ليست اسمًا اخترعناه. بل
حقيقة كانت تبحث منذ زمنٍ طويلٍ عن صوت.

قلت لرفاقي:

"لسنا ندعو إلى مقاومةٍ سلبية."

فالمقاومة السلبية قد تكون مجرد ضعفٍ لا يجد وسيلةً أخرى.

أما ما نريده... فهو فعلٌ إيجابي. أن نقول للظالم: لن نطيع ظلمك.
لكننا لن نكرهك. لن ننفذ قانونًا يهين كرامتنا. لكننا لن نحمل السلاح
في وجهك. سنقبل السجن. وسنقبل الضرب. وسنقبل الخسارة. لكننا
لن نبيع الحقيقة.

ساد الصمت.

كان بعضهم ينظر إليّ في حيرة. كأنهم يسمعون لغةً جديدة. ولم أكن
ألومهم. فحتى أنا... كنت ما أزال أتعلمها.

اعترض بعض الحاضرين.

قال أحد الشباب:

"وكيف يهزم الأعزل رجلًا يحمل بندقية؟"

ابتسمت. ثم سألته:

"وكم بدقيةً تستطيع أن تقتل فكرة؟"

سكت.

فأكملت:

"الرصاصة تستطيع أن تخترق الجسد. لكنها لا تستطيع أن تجبر الإنسان على أن يؤمن بالكذب. وإذا بقي الضمير حيًا... فإن الهزيمة ليست هزيمة."

لم أكن أقول ذلك لأنني أستخف بالألم. لقد كنت أعرف قسوته. لكنني كنت أوّمن أن الألم، إذا اختاره الإنسان دفاعًا عن الحق، يتحول من عبءٍ إلى شهادة.

وفي الأيام التالية، بدأنا نختبر هذه الفكرة. كنا نرفض بعض القوانين الظالمة. لا في الخفاء. بل علنًا. ونعلن سبب رفضنا. ثم ننتظر العقوبة. لم نهرب. ولم نقاوم رجال الشرطة. كان بعضهم يظن أن هذا ضعف. لكنني كنت أرى فيه شجاعةً من نوع آخر. فمن السهل أن يضرب الإنسان خصمه وهو غاضب. أما أن يقف أمامه أعزل، ثابتًا، وهو يعلم أنه سيُضرب... فذلك يحتاج إلى قوةٍ لا تمنحها الذراع. بل يمنحها الضمير.

وذات مساء، بينما كنت أعود إلى غرفتي بعد اجتماع طويل، أدركت أن الكلمة التي ولدت بيننا لم تعد ملكًا لنا. لقد بدأت تعيش حياةً مستقلة. كنت أشعر أن ساتياغراها ليست خطةً سياسية. ولا حيلةً لمواجهة الاستعمار. إنها طريقةٌ جديدة لفهم الإنسان. فالخصم ليس عدوًا ينبغي سحقه. بل إنسانٌ ضل طريقه. ومهمتي ليست أن أكسره... بل أن أوقظ ما بقي حيًا في ضميره. وقد يبدو ذلك حلمًا ساذجًا. لكنني كنت قد تعلمت من الحياة أن أعظم التغييرات تبدأ دائمًا بما يسخر منه العقلاء.

وفي تلك الليلة، فتحت دفنري الصغير.

كتبت كلمةً واحدة.

ساتياغراها.

ثم بقيت أهدق فيها طويلاً.

كانت مجرد حروف.

لكنني كنت أشعر أنها تحمل عمراً كاملاً لم أعشه بعد.

أغلقت الدفتر.

وأطفأت المصباح.

ولم أكن أعلم أن هذه الكلمة الصغيرة، التي وُلدت في قلب جنوب أفريقيا، ستعبر المحيطات، وتدخل السجون، وتقف في وجه إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس. ولم أكن أدرك أن الناس، بعد سنوات، سيظنون أن قوة اللاعنف تكمن في الهدوء. بينما كنت أعرف الحقيقة. إن اللاعنف ليس هدوء الضعفاء... بل شجاعة الأقوياء الذين اكتشفوا أن أعظم انتصار لا يتحقق حين يسقط الخصم على الأرض... بل حين يقف الإنسان، رغم كل شيء، دون أن تسقط إنسانيته.

لم أكن أظن، وأنا أدرس القانون في لندن، أنني سأقف يوماً أمام قاضٍ لا لأدافع عن متهم... بل لأكون أنا المتهم. ولم يخطر ببالي أن الرجل الذي تعلم كيف يطلب البراءة بالحجج، سيطلب يوماً الإدانة لنفسه.

لكن الحياة، كلما مضت بي، كانت تعلمني أن العدالة ليست دائماً في أن يخرج الإنسان من المحكمة حراً.

أحياناً...

تبدأ الحرية من اللحظة التي تُغلق فيها أبواب السجن.

بعد أن بدأت فكرة ساتياغراها تنتشر بين أبناء الجالية الهندية، لم يطل الأمر حتى بدأت السلطات تشعر بأن شيئاً غير مألوف يحدث. لقد اعتادت الإمبراطوريات أن تواجه البنادق. أما الرجال الذين يعلنون مخالفة القانون علناً، ثم يتقدمون بأنفسهم إلى السجن... فهؤلاء لم تعرف كيف تتعامل معهم.

كان رجال الشرطة ينظرون إلينا في حيرة.

نحن لا نهرب.

ولا نقاوم.

ولا نشتم.

ولا نضرب.

لكننا، في الوقت نفسه، نرفض الطاعة.

وكأننا نقول لهم:

إن أجسادنا بين أيديكم... لكن ضمائرنا ليست ملكاً لأحد.

جاء اليوم الذي وقفت فيه أمام القاضي. كانت القاعة مكتظة. رأيت وجوهاً كثيرة. بعضها جاء بدافع الفضول. وبعضها جاء ليرى كيف سينتهي أمر ذلك المحامي الهندي الذي أخذ يتحدث عن الحقيقة كما لو كانت أقوى من الإمبراطورية.

قرأ القاضي لائحة الاتهام. ثم رفع رأسه نحوي. وسألني:

"هل تعترف بأنك خالفت القانون؟"

كان السؤال بسيطاً. لكنه حمل في داخله مفارقةً لم أستطع تجاهلها.

نعم... لقد خالفت القانون. لكنني لم أخالف العدالة.

وهناك فرقٌ بين الاثنين، قد تعجز المحاكم أحياناً عن رؤيته.

أجبت بهدوء:

"نعم، لقد خالفت هذا القانون."

ساد همسٌ في القاعة.

ثم أكملت:

"لأن طاعة الضمير، في نظري، أسمى من طاعة القانون حين يتعارضان."

لم أقل ذلك تحديًا للقاضي. بل احترامًا للحقيقة. فأنا لم آتٍ لأنكر ما فعلت. بل جنّت لأتحمل مسؤوليته. ومنذ تلك اللحظة، شعرت أنني لم أعد أقف في قاعة محكمة. بل أقف أمام ضميري.

صدر الحكم.

السجن.

لم أشعر بالخوف. ولم أشعر بالراحة. شعرت بشيء يشبه السكينة. فالإنسان، حين يدفع ثمن ما يؤمن به، يتوقف عن الخوف من الحساب.

اقتادني الحراس. أغلقت الأبواب الحديدية خلفي. ودخلت الزنزانة لأول مرة. كانت صغيرة. جدرانها باردة. وسريرها الخشبي قاسٍ. ونافذتها ضيقة، لا تسمح إلا بخيطٍ رفيع من الضوء.

جلست في الركن. وأخذت أتأمل المكان. كم يبدو السجن قويًا. لكنه، في الحقيقة، لا يملك إلا الجدران. أما ما وراء الجدران... فليس في سلطانه.

في الأيام الأولى، كان السجناء ينظرون إليّ باستغراب. كان بعضهم لصوصًا. وبعضهم قتلة. وبعضهم رجالًا أرهقتهم الحياة حتى قادتهم إلى الجريمة.

جلس أحدهم إليّ جواري يومًا. وسألني:

"وماذا سرقت؟"

ابتسمت. وقلت:

"حاولت أن أسرق قليلاً من العدالة."

ضحك. ثم ظل ينظر إليّ طويلاً، كأنه لم يفهم.

لكنني، بعد أيام، وجدته يشاركني قطعة الخبز التي حصل عليها. وهناك أدركت أن الإنسان لا يحتاج دائماً إلى الاتفاق معك... يكفي أن يشعر بصدقك.

كان العمل في السجن شاقاً. ننظف. ونحمل. ونكسر الحجارة. وكان العرق يختلط بالغبار حتى لا يعود الإنسان يميز بينهما. لكنني لم أعد أرى العمل عقوبة. لقد تعلمت من جون رسكن أن العمل الشريف لا ينتقص من كرامة الإنسان. بل يكشفها. كنت أراقب يديّ وهما تمتلئان بالخدوش. ثم أتذكر أنني، قبل سنوات، كنت أخجل من الأعمال اليدوية. فابتسم. لقد كانت الحياة، مرةً أخرى، تعلمني درساً لم أجده في الجامعات. أن اليد التي تحمل القلم... لا ينبغي أن تخجل من حمل المعول.

وكان الليل هو معلمي الأكبر. حين يخيم الصمت، ويغفو السجناء، كنت أجلس قرب النافذة الصغيرة. أنظر إلى قطعة السماء التي تسمح لي بها القضبان. وأتأمل.

هل أنا سجين؟

كان جسدي، بلا شك، داخل الزنزانة.

لكن روحي...

لم أشعر يوماً أنها كانت أكثر حريةً من تلك الأيام.

هناك فهمت سرّاً غريباً. قد يعيش إنسانٌ في قصر، لكنه عبدٌ لخوفه. وقد يعيش آخر في زنزانة، لكنه حر، لأنه لا يخاف إلا أن يخون.

ضميره. ومنذ أن فهمت ذلك... لم أعد أخشى السجن.

وذات صباح، جاء أحد الحراس. كان رجلاً شديد الصرامة. ناولني الطعام دون أن ينظر إليّ. لكنني شكرته. رفع رأسه متعجباً. وفي اليوم التالي، رد عليّ التحية. وبعد أسبوع، سألني عن الهند. ثم صار يقف أحياناً دقائق إضافية ليتحدث معي.

عندها أدركت أن اللاعنف لا يغير القوانين فقط. إنه يبدأ بتغيير العلاقات الصغيرة بين البشر. فالرجل الذي جاء ليحرسني... لم يعد يرى فيّ مجرد سجين. وأنا أيضاً لم أعد أراه مجرد حارس. لقد بدأ كل واحد منا يرى الآخر إنساناً. وكان ذلك، في نظري، انتصاراً لا تصنعه المحاكم.

ومرت الأيام.

ثم جاء يوم الإفراج. فتح السجن الباب. وقال:

"يمكنك المغادرة."

خرجت. كانت الشمس أكثر دفئاً مما أتذكر. والهواء أكثر نقاءً. لكن الذي تغير حقاً... لم يكن العالم.

بل أنا.

دخلت السجن وأنا أظن أن الحرية تعني أن يسير الإنسان حيث يشاء. وخرجت منه وأنا أعلم أن الحرية الحقيقية هي أن يعيش الإنسان كما يمليه عليه ضميره، ولو كانت خطواته محصورة بين أربعة جدران.

وفي تلك الليلة، عدت إلى دفترتي الصغير. فتحتة ببطء. ثم كتبت:

"السجن لا يهزم الإنسان. الذي يهزمه... أن يخاف السجن أكثر مما يخاف الكذب."

أغلقت الدفتر. ورفعت رأسي نحو السماء. لم أكن أشعر أنني خرجت

من تجربة قاسية. بل من مدرسة. مدرسة لم يكن فيها أساتذة. ولا كتب. ولا شهادات. لكنها منحتني درسًا سيبقى معي حتى آخر يومٍ من حياتي. لقد دخلت السجن لأنني رفضت قانونًا ظالمًا.

أما حين خرجت...

فكنت أعلم أن الإمبراطوريات تستطيع أن تبني آلاف السجون. لكنها تعجز دائمًا عن سجن فكرةٍ اختارت أن تسكن في ضمير الإنسان.

كل فكرةٍ عظيمة تواجه امتحانًا لا مفر منه. فإما أن تبقى كلماتٍ جميلة تُلقى في الخطب... وإما أن تتحول إلى حياة. وكنت أخشى، أكثر من أي شيء، أن تصبح اللاعنف مجرد فلسفةٍ نحسن الحديث عنها، ثم نعجز عن العيش بها.

كنت أرى أن الإنسان لا يملك الحق في دعوة الآخرين إلى طريقٍ لم يمش فيه بنفسه. ولهذا بدأت أسأل نفسي سؤالًا جديدًا:
إذا كنت أو من بالمساواة...

فهل أعيشها؟

وإذا كنت أو من بكرامة العمل...

فهل أعمل بيدي؟

وإذا كنت أدعو الناس إلى البساطة...

فهل ما زلت أسيرًا لما تعودت عليه من مظاهر الراحة؟

كانت تلك الأسئلة أقسى عليّ من أسئلة المحاكم. فالقاضي يستطيع أن يحاكم أفعالي. أما الضمير... فيحاكم نواياي أيضًا.

في تلك السنوات، كنت أزداد اقتناعًا بأن المجتمع الذي نحلم به لا يمكن أن يولد من الشعارات وحدها. إنه يحتاج إلى مكانٍ صغير

يُجرب فيه الناس الحياة التي يريدون أن يبنوها. مكانٍ لا يكون فيه السيد أعلى من العامل. ولا الغني أفضل من الفقير. ولا المتعلم أرفع شأنًا من الأمي. بل يكون الإنسان محترمًا لأنه إنسان.

ومن هنا بدأت فكرة إنشاء مجتمع صغير يعيش هذه المبادئ كل يوم، لا في المناسبات والخطب. ولم يكن هدفي أن أبنى مزرعةً فحسب... بل أن أبنى إنسانًا جديدًا.

حين بدأنا العمل فيما صار يُعرف لاحقًا باسم مزرعة تولستوي، لم يكن المكان فخماً. لم تكن هناك مبانٍ شاهقة. ولا أثاث فاخر. كانت الأرض واسعة، والسماء أقرب مما اعتدت أن أراها في المدن. وكان الصمت يملأ الصباح، حتى إن زقزقة الطيور كانت تبدو كأنها أول خطابٍ في يومٍ جديد.

وقفت أتأمل ذلك المكان. ثم قلت في نفسي:

كم هو كريم هذا التراب. إنه لا يسأل الزارع عن دينه. ولا عن لغته. ولا عن لون بشرته. إنه يعطي ثماره لكل من يزرعه بإخلاص. وليت البشر يتعلمون من الأرض.

بدأنا نعيش معاً.

رجالاً ونساءً.

شباباً وأطفالاً.

لم يكن بيننا خدم.

ولم يكن أحد معفياً من العمل.

كنت أستيقظ مع الفجر. أحمل الماء. وأكنس الأرض. وأزرع. وأطهو أحياناً. ولم أكن أشعر أنني أتنازل عن مكانتي كمحامٍ. بل كنت أشعر أنني أستعيد إنسانيتي. لقد أدركت أن المهنة لا تمنح الإنسان قيمته. بل الطريقة التي يؤدي بها أي عمل، مهما بدا بسيطاً.

كان بعض الزائرين ينظرون إليّ في دهشة. كيف لمحامٍ درس في لندن أن يحمل الفأس؟ وكيف لرجلٍ يخاطب المسؤولين أن ينظف الأرض بيديه؟

كنت أبتسم. ثم أقول لهم:

"إذا كنت أرى أن العامل أخي... فكيف أطلب منه أن يقوم بما أرفض أنا القيام به؟"

لقد تعلمت أن الكرامة لا تُقاس بنظافة الثياب. بل بنظافة الضمير. وأن اليد التي تتسخ بالطين في سبيل الخير... أنقى من يدٍ ناعمة لا تعرف إلا الأوامر.

أما الأطفال، فقد كانوا أساتذتي الحقيقيين. كنا نعلمهم القراءة. لكننا كنا نعلمهم أيضًا أن يزرعوا. وأن يصلحوا أدواتهم. وأن يحترموا العمل اليدوي كما يحترمون الكتاب. كنت أراقبهم وهم يركضون بين الأشجار. ثم أسأل نفسي:

أي عالمٍ سنترك لهم إذا ربيناهم على أن بعض الأعمال شريفة، وبعضها مهين؟

إن المجتمع الذي يحتقر العامل... إنما يحتقر اليد التي تبني مستقبله. ولهذا كنت أريد أن يكبر الطفل وهو يعلم أن حمل المعول ليس أقل شرفًا من حمل القلم.

وكانت الحياة في المزرعة بسيطة.

نأكل طعامًا متواضعًا.

ونرتدي ثيابًا متواضعة.

ونقتسم ما لدينا.

لم يكن الفقر هدفًا.

لكن التحرر من عبودية الترف كان هدفًا.

لقد رأيت كثيرين يملكون أشياء كثيرة... لكن الأشياء كانت تملكهم.
وكانوا يخافون فقدانها أكثر مما يخافون فقدان مبادئهم.

أما أنا...

فكنت أريد أن أتعلم كيف أعيش بما أحتاج إليه، لا بما أشتهيه.
فالإنسان، كلما كثرت قيوده، ظنها نعمًا. ولا يكتشف أنها كانت أغلاً إلا حين يجرؤ على التخلي عنها.

وفي المساء، كنا نجلس معًا بعد انتهاء العمل.

لا فرق بين محامٍ وعامل.

ولا بين غني وفقير.

نتحدث.

ونقرأ.

ونتناقش.

وكنت أشعر أن المجتمع الحقيقي لا يُبنى في قاعات السياسة. بل
حول مائدةٍ يجلس إليها الجميع دون أن يشعر أحدهم أنه أعلى من
الآخر. هناك فهمت أن الديمقراطية لا تبدأ عند صندوق الاقتراع. بل
تبدأ حين ينظر الإنسان إلى أخيه، فلا يرى فيه تابعًا أو منافسًا... بل
شريكًا في الإنسانية.

ولم تكن الحياة سهلة.

كانت هناك خلافات.

وتعب.

وأيامٌ يشتد فيها الحر أو المطر.

وكان بعض الناس يتركون المزرعة لأنهم لم يحتملوا بساطتها.

ولم أكن ألومهم.

فالتخلي عن العادات القديمة أصعب بكثير من اكتساب أفكارٍ جديدة.

إن تغيير الرأي قد يحتاج إلى ساعة.

أما تغيير أسلوب الحياة...

فقد يحتاج إلى عمر.

ولهذا كنت أرى أن المزرعة ليست اختبارًا للأجساد بل للنفوس.

وذات صباح، كنت أحرث قطعةً صغيرة من الأرض. توقفت قليلًا، ونظرت إلى الأخاديد التي صنعها المحراث. ثم خطر لي أن الإنسان يشبه الأرض. لا تعطي أجمل ثمارها إلا بعد أن تشقها السكة.

والألم، مهما بدا قاسيًا، قد يكون هو المحراث الذي يهيئ الروح لاستقبال البذور.

عندها فهمت لماذا لم أعد ألعب التجارب الصعبة. فلولاها، لبقيت أرض قلبي صلبة حجرية، لا ينبت فيها شيء.

وفي آخر ذلك اليوم، جلست وحدي عند حافة الحقل. كانت الشمس تغيب ببطء، وتغمر السنابل بلونٍ ذهبي يشبه الوعد. فتحت دفثري الصغير. وكتبت:

"إذا أردت أن تغير العالم... فابنِ أولاً عالمًا صغيرًا تستطيع أن تعيش فيه كما تؤمن."

أغلقت الدفتر، وأخذت حفنةً من تراب المزرعة بين يدي. كان ترابًا عاديًا، لا يختلف عن أي ترابٍ آخر. لكنني كنت أعلم أن الأرض لا تصبح مقدسة بسبب طبيعتها... بل بسبب القيم التي تُزرع فيها.

وهكذا لم تعد مزرعة تولستوي، في نظري، مجرد مكانٍ للإقامة. لقد أصبحت مختبرًا للروح. وفيها أدركت أن الحقيقة، إذا بقيت في الكتب، قد تُعجب العقول. أما إذا نزلت إلى الحقول، وإلى الأيدي

المتعبة، وإلى الخبز الذي يقتسمه الناس، وإلى الحياة اليومية... فإنها تتحول من فكرة تُقرأ... إلى حياة تُلهم التاريخ.

تعلمت منذ طفولتي أن النار لا تميز بين ما تلتهمه. فإذا اشتعلت في بيت، أحرقت الأثاث والذكريات معاً. وإذا اشتعلت في غابة، لم تسأل الأشجار عن أعمارها.

ولهذا كنت أخاف النار.

لا لأنها تحرق الخشب... بل لأنها كثيراً ما تبدأ في الأشياء، ثم تنتهي في القلوب.

لكنني، في جنوب أفريقيا، شهدت ناراً من نوعٍ آخر. ناراً لم تُشعل لتلتهم البشر... بل لتوقظ ضمائرهم.

كانت السلطات قد فرضت على الهنود قوانين جديدة، تُلزمهم بحمل وثائق تسجيل خاصة، أشبه بختمٍ دائم يذكرهم كل يوم بأنهم مواطنون من درجةٍ أدنى. لم تكن تلك البطاقات مجرد أوراق. كانت إعلاناً رسمياً بأن الكرامة يمكن أن تُقاس بختمٍ حكومي. وكان المطلوب منا أن نحملها معنا حيثما ذهبنا، وأن نبرزها كلما طلبها موظف أو شرطي.

تساءلت يوماً:

كيف يمكن لورقةٍ صغيرة أن تحمل كل هذا القدر من الإهانة؟

ثم أدركت أن الطغيان لا يبدأ بالسلاسل. بل يبدأ حين يقنع الإنسان أن المهانة أمرٌ طبيعي.

اجتمعنا طويلاً.

تناقشنا.

واختلفنا.

كان بعض الإخوة يقولون:

"لنحمل البطاقات مؤقتًا، حتى تمر العاصفة."

وقال آخرون:

"لنمزقها في الخفاء."

أما أنا، فكنت أشعر أن الحقيقة لا تعرف الخفاء. إذا كنا نرفض هذا القانون، فعلينا أن نرفضه في وضوح النهار.

لا لنذل أحدًا...

بل لأننا نحترم أنفسنا.

فالإنسان الذي يخفي إيمانه خوفًا، يمنح الخوف سلطةً أكبر مما يستحق.

وفي صباح اليوم المحدد، تجمع المئات.

رجالٌ بملابس العمل.

تجار.

شيوخ.

وشباب.

وكان في وجوههم ذلك المزيج الغريب من القلق والعزم. كنت أنظر إليهم، وأشعر أن كثيرين منهم لا يخشون السجن بقدر ما يخشون التردد.

فالقرار، حين يُتخذ، يريح القلب، حتى لو قاد إلى الألم.

أما التردد...

فهو السجن الذي لا أبواب له.

وُضع وعاءٌ معدني كبير في وسط المكان. كانت الشمس تميل نحو

الغروب، والرياح تمر بين الوجوه في هدوء.

أخرجت بطاقتي. تأملتها طويلاً. لم تكن تحمل سوى اسمي وبعض البيانات. لكنها، بالنسبة إليّ، كانت تحمل معنىً آخر. كانت تقول لي كل يوم:

"أنت أقل."

ولهذا لم أعد أراها وثيقةً إدارية. بل رمزاً لعلاقةٍ مختلفة بين الإنسان والسلطة. رفعتها قليلاً، حتى رآها الجميع. ثم قلت:

"إننا لا نحرق قانوناً. ولا نحرق دولة. إننا نحرق خوفنا من الظلم."

ألقيت البطاقة في النار. اشتعلت سريعاً.

ثم تبعتها بطاقةٌ أخرى.

ثم ثالثة.

ثم عشرات.

ثم مئات.



كانت الأوراق تلتف داخل اللهب، وتتحول إلى رماد. لكنني كنت أشعر أن الذي يحترق، في الحقيقة، ليس الورق. بل ذلك الخوف القديم الذي عاش طويلاً في قلوبنا.

كان بعض الرجال يبتسمون.

وبعضهم يبكي.

ورأيت شيخاً عجوزاً يقبل بطاقته قبل أن يلقيها في النار، كأنه يودع سنواتٍ طويلة من الصمت.

لم نهتف.

ولم نكسر نافذةً واحدة.

ولم نمد يداً إلى أحد.

كانت النار وحدها تتكلم.

وكان صمتنا أعلى من كل الشعارات.

رأيت رجال الشرطة يقفون على مسافة. ينظرون إلينا بدهشة. لقد اعتادوا أن يروا الحشود الغاضبة وهي تكسر وتحرق. أما هؤلاء الذين يحرقون أوراقهم، ثم يقفون في هدوء ينتظرون الاعتقال... فكانوا شيئاً جديداً على عالم السياسة. وهناك فهمت أن اللاعنف لا يربك الخصم لأنه ضعيف. بل لأنه لا يشبه أي شيء اعتاد عليه.

وبعد انتهاء التجمع، بدأت الاعتقالات. تقدم بعض رجال الشرطة.

لم نهرب.

ولم نتفرق.

كان كل واحدٍ منا يعرف أن السجن ينتظره. لكن أحداً لم يتراجع.

كنت أنظر إلى الوجوه، وأرى فيها خوفاً طبيعياً. لكنني كنت أرى

أيضًا شيئًا أقوى من الخوف.

الإيمان.

والإنسان، إذا اجتمع فيه الخوف والإيمان، ثم انتصر الإيمان...
يصير أقوى مما كان يتخيل.

اقتادونا إلى مراكز الاحتجاز. وفي الطريق، سألني أحد الضباط:

"أما كان أسهل لك أن تحتفظ ببطاقتك وتنتهي القصة؟"

ابتسمت. ثم قلت:

"نعم. كان سيكون أسهل. لكن ليست كل الطرق السهلة تستحق أن
نسير فيها."

نظر إليّ طويلًا، ولم يجب. وأنا أيضًا صمت. لأن بعض الأسئلة لا
تحتاج إلى جدال. إنها تحتاج إلى زمن.

وفي الزنزانة، أخذت أتأمل ما حدث.

تذكرت النار.

وتذكرت وجوه الرجال.

ثم خطر لي أن التاريخ كثيرًا ما يتذكر الحروب لأنها كانت صاحبة.
لكنه ينسى أن بعض أعظم الانتصارات بدأت بأفعال هادئة، لم يراق
فيها دم.

قد يظن الناس أن ما أحرقناه لم يكن سوى أوراق. لكنني كنت أعرف
أننا أحرقنا شيئًا أثقل منها. لقد أحرقنا فكرة أن الإنسان يجب أن يطيع
كل قانون، حتى لو كان يهين إنسانيته.

وفي تلك الليلة، فتحت دفترتي الصغير. كانت رائحة الدخان ما تزال
عالقة في ثيابي. كتبت:

"حين تحرق الكراهية، تولد حرب."

و حين تحرق الخوف، تولد حرية."

أغلقت الدفتر. ثم أغمضت عيني. ولم أرَ ألسنة اللهب التي التهمت الوثائق. بل رأيت نارًا أخرى، أكثر هدوءًا، وأكثر بقاءً. نارًا اشتعلت في ضمائر الرجال الذين وقفوا حول ذلك الوعاء المعدني. ولم تكن تلك النار تحتاج إلى حطب. كانت تتغذى بالحقيقة. ولهذا لم تستطع السجون أن تطفئها. ولم تستطع القوانين أن تخمدتها. ولم تستطع الإمبراطورية، على اتساعها، أن تمنع شرارتها من الانتقال من قلب إلى قلب.

وهكذا أدركت أن أعظم الثورات ليست تلك التي تترك المدن رمادًا. بل تلك التي تترك الإنسان، بعد انتهائها، أكثر إنسانيةً مما كان قبلها.

حين كنت صغيرًا، كنت أظن أن النصر يشبه ما يرويه الجنود بعد الحروب.

مدينة تُفتح.

وجيشٌ ينسحب.

ورايةٌ ترتفع فوق الأسوار.

وكان التاريخ الذي تعلمناه في المدارس يتحدث دائمًا عن المنتصرين، كما لو أن العالم لا يعرف سوى لغة السيوف. لكن جنوب أفريقيا علمتني شيئًا لم أجده في أي كتاب. هناك اكتشفت أن أعظم الانتصارات هي تلك التي لا يستطيع أحد أن يحدد اليوم الذي بدأت فيه، ولا اللحظة التي انتهت عندها. إنها تنمو ببطء، كما تنمو الشجرة. لا يسمع أحد صوتها وهي تكبر. لكن الجميع يجلس في ظلها بعد سنوات.

مرت الأعوام، وأصبحت المقاومة السلمية جزءًا من حياة الجالية

الهندية. لم تعد الاجتماعات استثناءً. ولم تعد السجون تخيف الناس كما كانت في البداية. لقد تغير شيء عميق في النفوس. كان الرجل الذي يخفض رأسه أمام الشرطي، يقف الآن مستقيماً.

لا يتحداه.

ولا يهينه.

لكنه لم يعد ينظر إلى الأرض.

وهذا، في نظري، كان أول انتصار. فالاستبداد لا يعيش لأن الطغاة أقوياء فقط. بل لأنه ينجح في إقناع المظلوم بأنه صغير. وحين يستعيد الإنسان احترامه لنفسه... يبدأ جدار الظلم بالتصدع، حتى لو بدا قائماً.

كانت السلطات تظن أن السجن سيُنهكنا. لكنها فوجئت بأن كل اعتقال كان يجلب إلينا رجالاً جدداً. وكانت الغرامات المالية تُفرض علينا، فنزداد تمسكاً بما نؤمن به. وكانت القيود تُشد على أيدينا، فتزداد أرواحنا اتساعاً. أدركت يومها أن القوة التي تعتمد على الخوف، تخسر جزءاً من سلطانها كلما فقد الناس خوفهم. فالخوف، مثل النار، يحتاج إلى وقود. وحين يرفض الإنسان أن يغذيه... يبدأ بالانطفاء.

ولم تكن المعركة تدور في الشوارع وحدها. كانت تدور أيضاً خلف الأبواب المغلقة. جلسنا مع المسؤولين. وتحدثنا طويلاً. واختلفنا كثيراً. وكان بعضهم ينظر إلينا بازدراء. لكن بعضهم الآخر بدأ ينصت. لقد كنت أؤمن أن الحوار لا يعني التنازل. بل يعني أن تمنح خصمك فرصة ليكتشف الحقيقة بنفسه. فالإنسان الذي يُهزم بالقوة، ينتظر فرصة لينتقم. أما الذي يقتنع... فقد يصبح يوماً حليفاً للحق.

أذكر أحد المسؤولين البريطانيين، وقد قال لي بعد اجتماعٍ طويل:

"لا أفهمكم. لو حملتم السلاح، لفهمكم. ولو استسلمتم، لفهمكم. أما

أن ترفضوا أوامرنا، ثم تعاملونا باحترام... فهذا يربكنا." ابتسمت.

ولم أجد جوابًا أجمل من الصمت. لأنني أدركت أن اللاعنف لم يكن يربك السلطة وحدها. بل كان يربك المنطق الذي قامت عليه الإمبراطوريات. منطق القوة المجردة.

وبعد سنواتٍ من الاحتجاجات، والسجون، والمفاوضات، بدأت التغييرات تظهر. لم تكن كل مطالبنا قد تحققت. ولم تتحول جنوب أفريقيا إلى أرضٍ للعدالة بين ليلةٍ وضحاها. لكن قوانين جائزة أُعيد النظر فيها. وتخفت القيود عن كثيرٍ من أبناء الجالية. واعترفت السلطات ببعض الحقوق التي كانت تنكرها بالأمس.

كان البعض يقول لي:

"لقد انتصرنا."

لكنني كنت أتردد في استخدام هذه الكلمة. لأنني لم أشعر أن أحدًا قد هُزم. لقد تغير القانون. لكنني كنت أرجو أن تتغير القلوب أيضًا.

جلست ذات مساء أتأمل الطريق الطويل الذي قطعناه.

تذكرت ليلة القطار.

وتذكرت الزنزانة.

وتذكرت النار التي التهمت الوثائق.

وتذكرت مزرعة تولستوي.

كانت كل محطة تبدو مستقلة عن الأخرى. لكنني رأيتها الآن كخيطةٍ واحد. ولولا تلك الإهانة الأولى... لما وصلت إلى هذا الفهم. عندها أدركت أن الله قد يستخدم أكثر لحظات حياتنا قسوةً... ليصنع منها بداياتٍ لم نكن نتخيلها.

ومع مرور الوقت، بدأت ألاحظ تغييرًا لم أكن أتوقعه. لم يتغير الهنود وحدهم. بل تغير بعض الأوروبيين أيضًا. رجالٌ كانوا يسخرون منا بالأمس، يقتربون اليوم ليسألوا عن فلسفتنا. وبعض الصحفيين الذين تجاهلونا في البداية، يكتبون الآن عن المقاومة السلمية باحترام. حتى بعض رجال الشرطة، الذين قادونا إلى السجون، صاروا يحيوننا بابتسامةٍ خجولة.

هناك فهمت أن الإنسان، مهما ابتعد عن الحقيقة، يبقى في داخله مكانٌ صغير ينتظر من يوقظه. ولذلك لم أعد أنظر إلى أحدٍ بوصفه عدوًا أبدًا. فالعداوة، في كثيرٍ من الأحيان، ليست طبيعة الإنسان... بل نتيجة خوفه وجهله.

وفي إحدى الليالي، سألتني أحد الشباب:

"هل تشعر بالرضا؟"

فكرت طويلاً قبل أن أجيب. ثم قلت:

"أشعر بالامتنان."

لأن الرضا قد يوحي بأن الطريق انتهى. أما الامتنان... فهو اعتراف بأن كل خطوة كانت هدية، حتى تلك التي جاءت في ثوب الألم.

لقد علمتني جنوب أفريقيا أكثر مما علمتها أنا.

جئت إليها محامياً يبحث عن قضية.

فوجدت فيها قضيةً تبحث عن رجل.

وجئت أظن أنني سأغير بعض القوانين.

فإذا بها تغيرني أنا أولاً.

وفي الليلة الأخيرة قبل أن أبدأ التفكير الجاد في العودة إلى الهند، فتحت دفترتي الصغير. كانت صفحاته قد امتلأت بسنواتٍ من الخواطر والأسئلة والعهود. قلبت الأوراق ببطء. ورأيت بينها آثار

الدموع، وآثار الغبار، وحتى بقعًا صغيرة من رماد تلك الوثائق التي
أحرقناها يومًا.

ابتسمت.

ثم كتبت آخر سطور هذا الفصل من حياتي:

"ليس النصر أن أجبر خصمي على الانحناء. بل أن أجعله يكتشف،
وهو واقف، أن الحقيقة أعلى منّا جميعًا. فإذا انتهت المعركة، ولم
يبقَ في القلب حقد، ولم يبقَ في الروح رغبةٌ في الانتقام... فذلك هو
الانتصار الوحيد الذي يستحق أن يُورث للأجيال."

أغلقت الدفتر، ونظرت إلى الأفق البعيد. كنت أشعر أن رحلتي في
جنوب أفريقيا توشك على نهايتها. لكن شيئًا في داخلي كان يهمس
لي بأن الرحلة الحقيقية لم تبدأ بعد.

ففي الجهة الأخرى من المحيط...

كانت الهند تنتظرنني.

ولم تكن تنتظر محامياً عاد من الغربة. بل رجلاً تعلم، بعد سنواتٍ
طوالٍ من الألم والصبر، أن القوة ليست في القبضة المغلقة... بل في
اليد التي تستطيع أن تتركها مفتوحة، دون أن تترك فيها مكانًا
للكرهية.

ثمة مدنٍ نغادرها لأن أعمالنا انتهت فيها. وثمة مدنٍ نغادرها لأن
الحياة تدعونا إلى مكانٍ آخر. لكن جنوب أفريقيا لم تكن بالنسبة إليّ
مدينةً ولا بلدًا. لقد كانت العمر الذي وُلدت فيه للمرة الثانية. جنّت
إليها شابًا يحمل حقيبةً من الجلد، وشهادةً في القانون، وكثيرًا من
الأحلام الصغيرة. وأنا الآن أستعد لمغادرتها، كنت أشعر أنني لا
أحمل حقيبةً... بل أحمل سنينًا طوالاً من التجارب التي غيرت معنى
الحياة في داخلي.

كان المكان هو نفسه. لكن الرجل الذي سيغادره... لم يعد هو الرجل الذي وصل إليه.

بدأ خبر رحيلي ينتشر بين أبناء الجالية الهندية. كان بعضهم يرفض تصديقه. وقال لي أحد العمال، وقد ارتجف صوته:

"لقد تعودنا أن نراك بيننا. كيف سنواصل الطريق إذا رحلت؟"

ابتسمت له ابتسامةً امتزج فيها الفرح بالحزن. ثم قلت:

"إذا كان الطريق يعتمد على رجلٍ واحد، فهو طريقٌ ضعيف. أما إذا أصبح يعيش في قلوب الناس... فلن يموت برحيل أحد."

كنت أوّمن بذلك بصدق. فالأفكار التي تحتاج إلى صاحبها كي تبقى حية... ليست أفكارًا عظيمة. إنها مجرد ظلال لأصحابها.

أما الحقيقة...

فتستطيع أن تمشي وحدها.

في الأيام الأخيرة، أخذت أزور الأماكن التي صنعتني.

وقفت أمام محطة القطار التي أنزلت منها ذات ليلةٍ باردة. لم تكن تختلف كثيرًا عما كانت عليه. الأرصفة نفسها. والسكة نفسها. والقطارات تمضي كما كانت تمضي. لكنني وقفت هناك طويلاً. وأدركت أن الأماكن لا تتغير. الذي يتغير هو الإنسان الذي يعود إليها. في تلك الليلة القديمة، وقفت هنا مرتجفًا من البرد والإهانة.

أما اليوم...

فأقف وأنا أشعر بالامتنان.

لولا تلك الليلة... لما عرفت نفسي.

ولولا تلك الصفحة التي وجهها الظلم إلى كبريائي... لما تعلمت كيف أوجه قلبي نحو الحقيقة.

ثم ذهبت إلى المحكمة. المكان الذي دخلته أول مرة وأنا أظن أن العدالة تسكن بين الجدران. وقفت أمام بابها. ورفعت بصري إلى الأعمدة العالية. وتذكرت ذلك الشاب الذي جاء من لندن مؤمناً بأن القانون وحده يستطيع أن يصلح العالم. ابتسمت لذلك الشاب. لم يكن مخطئاً. لكنه كان يرى نصف الصورة فقط.

لقد علمتني السنوات أن القانون يحتاج إلى ضمير، كما يحتاج الجسد إلى روح. وأن النصوص، مهما بلغت دقتها، تعجز عن إنقاذ أمة إذا ماتت الأخلاق في قلوب أبنائها.

ولم أنس أن أزور مزرعة تولستوي. كانت الأشجار قد كبرت. وبعض الأطفال الذين كانوا يركضون بين الحقول أصبحوا شباباً يحملون مسؤولياتهم. جلست تحت شجرة غرستها بيدي قبل سنوات. وضعت كفي على جذعها. ثم أغمضت عيني. كم يشبه الإنسان الشجرة. لا يستطيع أن يمنح الآخرين الظل، إلا إذا قبل أولاً أن تمتد جذوره عميقاً في الأرض. وكانت جنوب أفريقيا هي الأرض التي امتدت فيها جذور روعي.

أقيم لنا لقاء وداعي.

اجتمع فيه العمال والتجار والنساء والأطفال.

لم يكن احتفالاً بانتصار.

بل لقاءً بين رفاق طريق.

تحدث كثيرون.

وبكى كثيرون.

أما أنا، فكنت أشعر أن الكلمات تضيق عن حمل ما في القلب.

وقفت أمامهم. ونظرت إلى الوجوه التي عاشت معي السجون، والاجتماعات، والهزائم الصغيرة، والانتصارات الهادئة لعقدين من الزمن. ثم قلت:

"إذا تعلمتم مني شيئاً، فانسوا اسمي، وتذكروا الفكرة. لا تجعلوا
الرجل أكبر من الحقيقة. فالرجل يرحل. أما الحقيقة... فإنها باقية."
ساد الصمت.

ذلك الصمت الذي لا يولده الحزن وحده.

بل يولده الامتنان أيضاً.

وفي الليلة الأخيرة، عدت إلى غرفتي. كانت حقائبي جاهزة. لكن
شيئاً في داخلي لم يكن مستعداً للرحيل. مشيت بين الأثاث القليل الذي
رافقني سنوات. لم يكن في الغرفة شيءٌ ثمين. ومع ذلك، شعرت أن
كل زاوية فيها تحمل ذكرى.

هنا كتبت أولى ملاحظاتي عن اللاعنف.

وهنا تلقيت خبر أول اعتقال.

وهنا سهرت ليالي طويلة أقرأ وأتأمل وأعيد بناء نفسي.

أدركت أن الإنسان لا يتعلق بالأماكن لأنها جميلة. بل لأنها شهدت
تحوله.

جلست قرب النافذة. وكان الليل هادئاً. رفعت بصري إلى السماء.

وتذكرت الطفل الذي كان يخاف الظلام في بوربندر.

والشاب الذي غادر الهند متجهاً إلى لندن ليصبح محامياً.

والرجل الذي وقف مرتجفاً في محطة بيتيرماريتسبورغ.

ثم نظرت إلى نفسي الآن.

ما أبعد المسافة بين هؤلاء جميعاً. ومع ذلك... كانوا جميعاً أنا.

وهنا فهمت أن الإنسان لا يولد مرةً واحدة. إنه يولد كلما اضطر إلى
التخلي عن نسخةٍ قديمة من نفسه.

وقبل أن أطفئ المصباح للمرة الأخيرة في تلك الغرفة، فتحت دفتري الصغير. كان قد امتلأ حتى آخر صفحة. لم يبق فيه مكانٌ لكلمةٍ جديدة.

ابتسمت. ثم كتبت على الهامش الضيق المتبقي:

"أغادر جنوب أفريقيا... لكن جنوب أفريقيا لن تغادرنى."

أغلقت الدفتر برفق. وشعرت أنني لا أغلق كتابًا. بل أغلق فصلًا من حياتي.

أما الكتاب...

فما زال في بدايته.

في الصباح، وأنا في طريقي إلى الميناء، التفتُ خلفي مرةً أخيرة.

لم أكن أودع المباني.

ولا الشوارع.

ولا البحر.

كنت أودع الرجل الذي جنئت به إلى هذه الأرض. ذلك المحامي الخجول، الذي كان يحسب أن القضايا تُربح في المحاكم وحدها.

تركته هناك.

وأخذت معي رجلًا آخر.

رجلًا تعلم أن الحقيقة قد تُسجن، لكنها لا تُهزم.

وأن الحب ليس ضعفًا، بل أشد أشكال القوة ندرًا.

وأن الإنسان يستطيع أن يقف في وجه إمبراطورية كاملة، إذا كان ضميره لا ينحني.

ولم أكن أعلم، وأنا أخطو نحو السفينة، أن جنوب أفريقيا لم تكن سوى

المدرسة.

أما الامتحان الأكبر...

فكان ينتظرنني على الضفة الأخرى من المحيط.

هناك...

في بلدي الأم ... الهند.

يقول الناس إن الإنسان يعود إلى وطنه بالطريق نفسه الذي غادره منه. لكنني اكتشفت أن هذا غير صحيح. فنحن لا نعبر البحر مرتين بالطريقة نفسها. لأن البحر، وإن بقي هو البحر... فإن الإنسان الذي يقف على ظهر السفينة يتغير.

وحين وقفت على سطح السفينة التي ستعيدني إلى الهند، لم أشعر أنني أعود فقط إلى أرضٍ تركتها منذ أكثر من عشرين عامًا. كنت أشعر أنني أعود إلى نفسي. إلى ذلك الشاب الذي غادر وطنه وفي يده شهادة قانون. ثم يعود إليه الآن، وفي قلبه شيءٌ لا تمنحه الجامعات، ولا تمنحه المحاكم، ولا تمنحه الكتب وحدها. حكمةٌ دفعت ثمنها من عمري.

وقفت عند حافة السفينة، أراقب الميناء يبتعد شيئًا فشيئًا. كانت الرافعات، والمخازن، والمباني، تصغر حتى بدت كأنها خطوطٌ رسمها طفلٌ على الأفق. ثم اختفت. ولم يبقَ أمامي إلا البحر.

كم يشبه البحر الزمن. كلما ابتعدت عن الشاطئ، بدا الماضي أصغر. لكن أثره... يبقى في القلب كما تبقى رائحة الملح في اليدين.

أغمضت عيني. ورأيت جنوب أفريقيا كلها تمر أمامي.

المحطة.

القطار.

المحكمة.

السجن.

مزرعة تولستوي.

الوجوه التي ضحكت معي.

والوجوه التي بكت.

والوجوه التي لم أرها بعد ذلك أبدًا.

لم تكن ذكريات. كانت أجزاءً من روحي.

سألني أحد المسافرين:

"هل أنت سعيد بالعودة؟"

ابتسمت. ثم بقيت صامتًا. لأن السؤال بدا لي أكبر من أن يُجاب بكلمة.

هل كنت سعيدًا؟

نعم.

وهل كنت حزينًا؟

نعم أيضًا.

فالإنسان لا يحزن لأنه يغادر مكانًا. بل لأنه يترك وراءه عمرًا كاملاً. وكانت جنوب أفريقيا عمرًا لا يمكن أن يتكرر.

في الليل، حين نام الركاب، بقيت وحدي على سطح السفينة. كانت السماء صافية. والنجوم تتناثر فوق الماء، حتى بدا البحر كأنه يحمل سماءً ثانية في أعماقه.

أخرجت دفترتي القديم. ذلك الذي رافقني في كل هذه السنوات. كانت صفحاته قد اصفرّت قليلاً. وامتلأت بحبرٍ باهت، وبقعٍ من المطر،

وآثار أصابعٍ متعبةٍ.

قلبت صفحاته ببطءٍ. كل صفحة كانت تحمل رجلاً لم أعده. في الصفحات الأولى، رأيت شاباً يخاف أن يخطئ. ثم رأيت رجلاً يغضب من الظلم. ثم رأيت إنساناً بدأ يتعلم كيف يحول الغضب إلى محبة، والألم إلى رسالة.

ابتسمت. ثم أغلقت الدفتر. لقد كان هذا الكتاب الصغير شاهداً على الرحلة كلها. لكنه لم يكن أهم ما خرجت به.

فالذي تغير...

لم يكن الورق. بل القلب الذي كان يكتب عليه.

بدأت أفكر في الهند. تركتها شاباً يحلم أن يصبح محامياً ناجحاً. لكنني سأعود إليها الآن، فأجدها ما تزال ترزح تحت حكم الإمبراطورية البريطانية. وكانت المفارقة التي رافقتني منذ سفري إلى لندن تعود إليّ من جديد. لقد ذهبت يوماً إلى قلب الإمبراطورية لأتعمق قانونها. ثم ذهبت إلى جنوب أفريقيا لأتعمق كيف يُستخدم ذلك القانون أحياناً لإذلال الإنسان.

أما الآن...

فأنا أعود إلى الوطن الذي ما زال يعيش تحت ظل تلك الإمبراطورية نفسها. لكنني لم أعد أحمل لها الغضب الذي حملته يوماً. بل أحمل فكرةً أريد أن أختبرها على أرضٍ أكبر. هل تستطيع الحقيقة أن تهزم إمبراطورية؟

لم أكن أعرف.

لكنني كنت مستعداً لأن أقضي بقية حياتي في محاولة الإجابة عن هذا السؤال.

كلما اقتربت السفينة من الهند، كان قلبي يخفق بطريقةٍ لم أعرفها من

قبل.

لم أكن أخشى الفشل. لقد علمتني جنوب أفريقيا أن الفشل ليس عيبًا.
العيب هو أن يتوقف الإنسان عن المحاولة. لكنني كنت أشعر بثقل
المسؤولية.

فالهند ليست جاليةً صغيرة.

إنها أمة.

ملايين البشر.

مئات اللغات.

وعشرات الديانات.

وفقرٌ عميق.

وغضبٌ عميق.

وأملٌ ينتظر من يوقظه.

سألت نفسي:

هل أستطيع أن أحدث فرقًا في وطنٍ بهذا الاتساع؟

ثم تذكرت أنني، قبل سنوات، كنت أطرح السؤال نفسه عن جنوب
أفريقيا.

وكان الجواب دائمًا يبدأ بخطوةٍ واحدة.

وفي صباحٍ صافٍ، بدأت سواحل الهند تلوح في الأفق. لم أرها
بوضوح في البداية. كانت مجرد خطٍ رفيع يفصل البحر عن السماء.
لكن ذلك الخط أخذ يقترب شيئًا فشيئًا، حتى بدأت الملامح تظهر.
عندها شعرت أنني لا أرى اليابسة فقط. بل أرى طفولتي. وأرى أمي
وأبي. وأرى الأزقة التي تعلمت فيها أولى خطواتي. وأرى الوطن

الذي غادرته فتى... وأعود إليه رجلاً.

شعرت برعشة خفيفة تسري في جسدي. ولم أخجل من دموع سقطت بصمت. فالرجال لا يكون لأنهم ضعفاء. بل لأن بعض اللحظات أكبر من أن تتحملها الكلمات.

وحين وطئت قدمي أرض الهند، انحنيت قليلاً. ولم يكن ذلك طقساً رسمياً. بل فعلاً خرج من أعماقي دون تفكير. لمست التراب مجدداً بيدي. ثم رفعتها إلى وجهي. شممت رائحته. كانت الرائحة نفسها التي عرفتها في طفولتي. لكنني لم أعد الطفل نفسه.

قلت في سري:

"يا هند... لقد تركتك أبحث عن مستقبلي. وأعود إليك الآن، لأن مستقبلي أصبح فيك."

في تلك اللحظة، شعرت أن كل الطرق التي سلكتها، وكل البحار التي عبرتها، وكل السجون التي دخلتها، وكل الكتب التي قرأتها، لم تكن إلا مقدمة لهذه الخطوة الصغيرة فوق تراب الوطن.

وقبل أن أغادر الميناء، فتحت دفثري للمرة الأخيرة في رحلة جنوب أفريقيا.

كتبت على الهامش:

"جنّت إلى أفريقيا محامياً يحمل حقيبة. وغادرتها إنساناً يحمل رسالة. أما الهند... فليست نهاية الرحلة. إنها بدايتها."

أغلقت الدفثري. ورفعت رأسي نحو السماء. كانت الشمس تشرق فوق الوطن. ولم أكن أعلم أن السنوات القادمة ستحمل لي السجون من جديد. والمسيرات. والجوع. والرصاص. والملايين الذين سيهتفون باسمي.

لكنني كنت أعلم شيئاً واحداً فقط. أن الرجل الذي نزل من القطار ذات ليلة في جنوب أفريقيا، وهو يرتجف من البرد والإهانة... قد

مات هناك. أما الذي عاد إلى الهند... فلم يعد يبحث عن حياة هادئة.
لقد عاد ليمنح حياته كلها لقضية أكبر من حياته.
وهكذا انتهت رحلتي في جنوب أفريقيا. لكن الحقيقة التي تعلمتها
هناك كانت قد بدأت للتو رحلتها الكبرى... في قلب الهند.

مغزل الحرية

وملح الأرض

حين عدت إلى الهند، لم أشعر أنني عدت إلى وطنٍ أعرفه. بل شعرت أنني عدت إلى كتابٍ كنت أحفظ عنوانه، ولم أقرأ صفحاته بعد.

لقد غادرت هذه الأرض شابًا في التاسعة عشرة من عمره، يحمل في قلبه صورةً صغيرةً عن الهند، رسمتها الأزقة التي نشأ فيها، وأحاديث الأسرة، وما قرأه في الكتب.

أما الآن، وبعد واحدٍ وعشرين عامًا، كنت أقف على ترابها، وأدرك أن الهند ليست مدينةً واحدة، ولا لغةً واحدة، ولا شعبًا واحدًا.

إنها قارةٌ ترتدي ثوب وطن.

ولهذا قلت لنفسي:

"قبل أن أطلب من الهند أن تسمعني... يجب أن أتعلم كيف أسمعها."

كان كثيرون ينتظرون أن أبدأ الخطب، وأن أهاجم الاحتلال البريطاني منذ اليوم الأول. لكنني كنت أشعر أن القائد الذي يتكلم قبل أن يصغي، يشبه الطبيب الذي يصف الدواء قبل أن يفحص المريض. ولهذا آثرت الصمت.

لم يكن صمتًا نابغًا من التردد. بل من الاحترام.

فالبلاذ التي غبت عنها أكثر من عقدين، لا يحق لي أن أدعي أنني أعرفها لمجرد أنني وُلدت فيها.

الوطن، مثل الإنسان، يتغير كل يوم. ومن يغادره طويلاً... يعود إليه غريبًا، حتى وإن كان يحمل اسمه في قلبه.

جاءني معلمي، غوبال كريشنا غوخال، ونصحتني نصيحةً لن أنساها ما حبيت.

قال لي:

"لا تتحدث عن الهند عامًا كاملًا... بل امش فيها."

بدأت الجملة بسيطة. لكنني شعرت أنها تختصر حكمة عمرٍ كامل.
فالأقدام، أحيانًا، تفهم ما تعجز عنه الكتب.

ومنذ تلك اللحظة، قررت أن أجعل القطار بيتي، والطريق مدرستي،
والقرى كتبي المفتوحة.

ركبت القطارات التي كانت تشق الهند من شمالها إلى جنوبها.

جلست في الدرجة الثالثة، حيث يجلس الفلاحون والعمال والبسطاء.
لم أفعل ذلك استعراضًا للتواضع. بل لأن الحقيقة، في أغلب الأحيان،
لا تسافر في الدرجة الأولى.

هناك، بين المقاعد الخشبية، كانت الهند الحقيقية تجلس. كانت رائحة
العرق تمتزج برائحة الفحم، وصوت الأطفال يختلط بصفير القطار،
والوجوه المتعبة تحمل حكاياتٍ لا تنتهي.

كنت أنصت أكثر مما أتكلم. فالإنسان، حين يصغي بإخلاص، يكتشف
أن لكل وجهٍ كتابًا، ولكل تجعيدةٍ تاريخًا.

كل محطةٍ كانت تفتح أمامي عالمًا جديدًا.

في قريةٍ، رأيت فلاحًا يحرث أرضًا ليست له، ويعلم أن معظم
محصوله سيذهب إلى مالكٍ لم يمسك المحراث يومًا.

وفي أخرى، رأيت امرأةً تحمل الماء مسافاتٍ طويلة، بينما طفلها ينام
على كتفها من شدة الإرهاق.

وفي ثالثة، رأيت أطفالًا حفاة يركضون خلف القطار، لا لأنهم
يريدون السفر... بل لأنهم لم يملكوا يومًا لعبةً يركضون خلفها.

كنت أعود كل مساءٍ إلى غرفتي، وأشعر أن قلبي صار أثقل من
حقيبتني.

كان الفقر في الهند مختلفًا عن كل ما رأيته من قبل.

في جنوب أفريقيا، رأيت ظلمًا واضحًا، يحمل وجهًا وقانونًا.

أما هنا... فكان الفقر قد أصبح جزءًا من المشهد، حتى كاد الناس يعتادونه.

وهنا يكمن أخطر أنواع الظلم. حين يتوقف الإنسان عن رؤية الجرح، لأنه اعتاد وجوده.

كنت أنظر إلى الأكواخ المصنوعة من الطين والقش. وأتساءل: كيف يمكن لأمةٍ تملك هذا التاريخ، وهذه الحضارة، أن ينام ملايين أبنائها جائعين؟

ولم أجد جوابًا واحدًا. بل وجدت آلاف الأسئلة.

ثم بدأت أرى ما هو أعمق من الفقر. رأيت الانقسام. الهند التي أحببتها لم تكن جريحة بسبب الاحتلال وحده. كانت مجروحة أيضًا بأيدي أبنائها. طبقاتٌ تفصل بين البشر. وأسماءٌ تحدد قيمة الإنسان قبل أن يتكلم.

رأيت رجالًا لا يسمح لهم بأن يشربوا من البئر نفسها التي يشرب منها غيرهم. ورأيت أطفالًا يولدون، وكأن المجتمع قد كتب مصيرهم قبل أن يتعلموا نطق أسمائهم.

وقفت طويلًا أمام هذه المشاهد. ثم سألت نفسي:

كيف نطلب الحرية من بريطانيا... إذا كنا لم نحرر بعضنا من احتقار بعضنا؟

كنت كلما دخلت قرية، اجتمع الناس حولي. لم يكونوا يعرفونني جميعًا. وكان بعضهم يسمع اسمي للمرة الأولى. لكنهم كانوا يريدون أن يتحدثوا. كنت أجلس على الأرض بينهم. لا على منصة. وأدعهم يحكون. كان أحدهم يشكو الضرائب. وآخر يشكو الجفاف. وثالث يبكي لأن ابنه مات دون طبيب. وأحيانًا، لم يكونوا يريدون حلولًا. كانوا يريدون فقط أن يجدوا من يسمعهم.

وهناك تعلمت أن الإصغاء قد يكون أول أشكال الرحمة.

وفي إحدى القرى، اقترب مني شيخٌ نحيل، تجاوز السبعين. نظر إليّ طويلاً. ثم أمسك يدي وقال:

"يا بني... لا تنسَ أننا لسنا أرقامًا في دفاتر الحكومة. نحن بشر."

لم تكن جملةً طويلةً. لكنها بقيت ترن في أذني أيامًا. لقد اختصر الرجل كل ما رأيته في رحلتي. فالاستعمار لا يبدأ حين يحتل الأرض. بل حين يجعل الإنسان يشعر أنه مجرد رقم. وكان عليّ أن أساعد أبناء وطني ليشعروا أنهم عادوا بشرًا، قبل أن يصبحوا مواطنين أحرارًا.

كلما طال السفر، ازداد يقيني بأن الهند لا تحتاج إلى قائدٍ يخطب فيها. بل إلى رجلٍ يفهمها. فلا يجوز لمن لم يذق غبار الطرقات، أن يتحدث باسم الذين يعيشون فيها. ولا يجوز لمن لم يسمع أنين الفلاحين، أن يضع لهم طريق الخلاص.

لقد علمتني المحاكم كيف أستمع إلى الشهود. لكن القرى علمتني كيف أستمع إلى الحياة نفسها. وكان هذا الدرس أعظم من كل ما تعلمته في الجامعات.

وذات مساء، بعد يومٍ طويلٍ من التجوال، جلست تحت شجرة نيم عظيمة على أطراف إحدى القرى. كانت الشمس تغيب ببطء، ويلتف الأطفال حول أمهاتهم، بينما يعود الفلاحون من الحقول بخطواتٍ أثقلها التعب. أخذت حفنةً من التراب بين أصابعي. ثم تركتها تنساب ببطء. وقلت في سري:

"لقد ظننت أنني عدت لأحرر الهند. لكنني أكتشف كل يوم أن الهند هي التي تحررتني."

كانت تلك الرحلات تنزع عني آخر بقايا الرجل الذي درس في لندن، وآخر آثار المحامي الذي عاش سنواتٍ في جنوب أفريقيا. كانت تعلمني أن القيادة لا تبدأ من المنابر... بل من الطريق. ولا تولد من التصفيق... بل من القدرة على أن تحمل في قلبك وجع الملايين،

وكأنه وجعك الشخصي.

وفي تلك الليلة، فتحت دفترتي الجديد للمرة الأولى منذ عودتي.
وكتبت:

"لن أقود الهند من المدن الكبرى. سأدع القرى تقودني إليها. فإذا
فهمت نبض القرية... فقد بدأت أفهم نبض الوطن."

ثم أغلقت الدفتر، ورفعت بصري نحو السماء. وشعرت أن رحلتي
الحقيقية لم تكن نحو القرى... بل نحو قلب الهند. ونحو قلبي أنا أيضاً.

لم أستيقظ يوماً، وأنظر في المرآة، فأرى فيها "المهاتما". ولم أخرج
من بيتي قائلاً لنفسي إنني سأصبح رمزاً لأمة. فالرموز التي يصنعها
الإنسان لنفسه، تموت معه. أما الرموز التي يصنعها الناس... فإنها
تولد رغماً عنه. ولهذا كنت أخاف من الألقاب أكثر مما أحبها. لأن
اللقب، إذا كبر، قد يحجب الإنسان الذي يقف خلفه.

بعد جولاتي الطويلة في القرى، بدأت ألاحظ تغيراً صغيراً في عيون
الناس. لم يكن تغيراً في نظرهم إليّ فقط... بل في الطريقة التي
كانوا ينظرون بها إلى أنفسهم عندما أتحدث معهم. الفلاح الذي كان
يخفض رأسه أمام الجميع، بدأ يرفع عينيه وهو يروي معاناته.
والمرأة التي اعتادت أن تقف في آخر الصفوف، بدأت تقترب لتسأل،
دون خوف. وأدركت أن القائد الحقيقي لا يجعل الناس ينظرون
إليه... بل يجعلهم ينظرون إلى أنفسهم بطريقة جديدة.

لم أكن أرثدي ما يرتديه السياسيون. ولم أكن أعيش كما يعيش
أصحاب النفوذ. كنت أزداد بساطة كلما ازدادت مسؤوليتي. وفي
البداية، لم يفهم كثيرون ذلك. قال بعضهم:

"كيف يقود أمة رجل يرتدي هذا الثوب البسيط؟"

وابتسمت. لأن السؤال كشف لي شيئاً مهماً. لقد اعتاد العالم أن يقيس الرجال بما يلبسون. أما أنا، فكنت أريد أن أقيس بما أحمله في ضميري. الثوب، في النهاية، قطعة قماش. لكن الإنسان هو الذي يمنحه معناه.

كنت أزور القرى، فأجلس على الأرض كما يجلس أهلها. أكل مما يأكلون. وأشرب من الماء نفسه. وأنام في البيوت الطينية إذا اقتضى الأمر. ولم يكن ذلك تمثيلاً. فالتمثيل يتعب صاحبه. أما الصدق... فلا يحتاج إلى جهد. كنت أشعر بالخجل إذا قدم لي أحدهم طعاماً أفضل مما يأكله هو. كيف أطلب من الفقير أن يثق بي... إذا كنت أرفض أن أشاركه حياته؟ لقد تعلمت أن المسافة بين القائد وشعبه لا تُقاس بالكيلومترات. بل بعدد الامتيازات التي يحتفظ بها لنفسه.

وذات يوم، بينما كنت أغانر إحدى القرى، اقتربت مني امرأة مسنة. كانت تحمل بين يديها قطعة قماشٍ نسجتها بنفسها. وضعتها على كتفي. ثم قالت بصوتٍ خافت:

"أنت تشبهنا."

لم تقل إنني خطيبٌ بارع. ولا محامٍ ناجح. ولا رجلاً عظيم. قالت فقط:

"تشبهنا."

ولم أتلقَ في حياتي وساماً أعظم من تلك الكلمات. فإذا فقد القائد شبهه بالناس... فقد طريقه إليهم.

ومع مرور الشهور، بدأ الناس يحيطون بي كلما وصلت إلى مدينة أو قرية. لم أكن أفهم سبب ذلك كله. كنت أرى نفسي الرجل نفسه الذي أخطأ كثيراً، وتعلم كثيراً، وما زال يتعلم. لكن الناس، حين يبحثون عن الأمل، قد يرون في إنسانٍ واحد ما هو أكبر من ذلك الإنسان. وكان هذا يخيفني. لأن الأمل إذا تعلق بشخص... قد ينكسر بموته. أما إذا تعلق بمبدأ... فإنه يبقى. ولهذا كنت أكرر دائماً:

"لا تتبعوا غاندي... اتبعوا الحقيقة."

ثم بدأت أسمع كلمةً جديدةً تتردد على الألسنة.

المهاتما.

الروح العظيمة.

كنت كلما سمعتها، أشعر بشيءٍ من الانقباض.

أي روحٍ عظيمة؟

أنا أعرف ضعفي أكثر مما يعرفه الناس.

أعرف ساعات الشك التي مررت بها.

وأعرف أخطائي، وترددي، وخوفي.

كيف يمكن لرجلٍ يعرف نفسه بهذا القدر أن يصدق أنه عظيم؟

لقد كنت أخشى أن يتحول اللقب إلى جدارٍ يفصلني عن إنسانيتي.

وفي إحدى المناسبات، ناداني أحد الخطباء أمام آلاف الناس:

"أيها المهاتما..."

ساد التصفيق. أما أنا، فشعرت بصمتٍ داخلي.

وقفت أمامهم. ثم قلت بهدوء:

"إذا رأيتم فيَّ خيرًا، فاعلموا أنه من الحقيقة التي أحاول خدمتها. أما

أنا... فلست إلا رجلًا يخطئ، ويحاول أن يتعلم من أخطائه."

لم أقل ذلك تواضعًا مصطنعًا. بل لأنني كنت أخاف من عبادة

الأشخاص. لقد رأيت في التاريخ كيف تتحول المحبة، إذا فقدت

عقلها، إلى صنم. ولا أريد أن أصبح صنمًا لأحد. لكن الناس لا

يصنعون رموزهم بالعقل وحده. إنهم يصنعونها بالقلوب. وكانوا،

كلما رأوني أرفض الامتيازات، وأصر على العيش بينهم، يزدادون

تعلقًا بي. وهنا فهمت مفارقةً عجيبة. كلما حاولت أن أهرب من

الصورة التي يرسمونها لي... ازدادت وضوحًا في أعينهم. ولم يعد أمامي إلا أن أقبل مسؤولية هذه المحبة، لا أن أستمتع بها. فالمحبة، إذا لم تتحول إلى مسؤولية، أصبحت إغراءً.

كنت أراقب الأطفال وهم يركضون خلفي في الطرقات. وأسمع الشيوخ يدعون لي. وأرى النساء يقدمن لي الماء والخبز وكأنني فردٌ من أسرهن. ولم أشعر يومًا أن هذا الحب موجةٌ إليّ وحدي. كنت أؤمن أنه موجه إلى الفكرة التي بدأت تكبر في قلوبهم. لقد كانوا يحتاجون إلى أن يصدقوا أن بإمكان الهند أن تنهض. وكنت، بالنسبة إليهم، مجرد مرآة تعكس هذا الرجاء. أما إذا انكسرت المرآة... فينبغي أن يبقى الرجاء.

وذات مساء، بعد لقاءٍ حاشد، عدت إلى غرفتي متعبًا. خلعت ثوبي البسيط. وجلست وحدي أمام مرآةٍ صغيرة. نظرت إلى وجهي مطولاً. رأيت التجاعيد التي حفرتها السنوات. ورأيت آثار التعب في العينين. ثم ابتسمت. وقلت لنفسي:

"إياك أن تصدق ما يقوله الناس عنك أكثر مما تصدق ما يقوله ضميرك."

فالضمير هو المرآة الوحيدة التي لا تجامل. أما الشهرة... فقد تجعل الإنسان يرى وجهًا لا وجود له.

وفي تلك الليلة، فتحت دفترتي. وكتبت:

"إذا أصبحت أكبر من الفكرة... فقد خنتها. وإذا أحبني الناس أكثر مما أحبوا الحقيقة... فعليّ أن أعيدهم إلى الحقيقة. فالرجال يرحلون. أما المبادئ، فهي وحدها التي ينبغي أن تبقى."

أغلقت الدفتر. وأطفأت المصباح. ولم أكن أعلم أن كلمة "المهاتما" ستنتشر في العالم كله، حتى تكاد تغطي على اسمي الحقيقي. لكنني كنت أعلم يقينًا أن أعظم انتصارٍ للإنسان ليس أن يرفع الناس صورته... بل أن يجعلهم، بعد أن يغادر، يعيشون حياةً أكثر عدلاً

ورحمةً وصدقًا. فإذا حدث ذلك... فلا يهم كثيرًا بأي اسم ينادونه.

حين كنت طفلًا، كنت أظن أن الثورات تبدأ بصوتٍ مرتفع. بخطبةٍ تهز الجماهير. أو بمدفعٍ يشق السماء. لكن السنوات علمتني أن أعظم الثورات قد تبدأ بصوتٍ لا يكاد يُسمع. صوت عجلةٍ خشبية تدور ببطء. حتى إن من يمر بجوارها قد لا يلتفت إليها. ومع ذلك...

كان ذلك الصوت، في نظري، أعلى من هدير المدافع.

كنت قد جبت الهند من أقصاها إلى أقصاها. ورأيت شيئًا يتكرر في كل قرية. رأيت أيدي اعتادت أن تعمل، لكنها فقدت عملها. ورأيت نساءً كن يغزلن القطن منذ أجيال، ثم جلسن في بيوتهن لأن الأقمشة القادمة من مصانع بريطانيا أصبحت أرخص، وأكثر انتشارًا. ورأيت رجالًا يزرعون القطن في أرضهم، ثم يبيعونه بثمنٍ زهيد، ليعود إليهم بعد أشهر في صورة قماشٍ بريطاني، يشترونه بأضعاف ما باعوا به محصولهم.

وقفت أمام هذه المفارقة طويلًا.

الهند تُنتج القطن... لكنها ترتدي قماش غيرها.

الفلاح يزرع... لكن المصنع البعيد هو الذي يجني الثمرة.

وأدركت أن الاحتلال لا يسرق الأرض فقط. بل يسرق الدورة الكاملة للحياة.

سألت نفسي:

كيف يستطيع شعبٌ أن يطالب بالحرية السياسية، وهو يعتمد في لباسه اليومي على مصانع من يحتل بلاده؟

هل يكفي أن نهتف ضد الإمبراطورية، بينما جيوبنا تمول مصانعها كل صباح؟

كان السؤال مؤلماً. لكنه كان ضرورياً.

لقد فهمت في جنوب أفريقيا أن الحرية لا تتجزأ. والآن بدأت أفهم أن الاستقلال السياسي، إذا لم يسبقه استقلال اقتصادي، قد يصبح مجرد علم جديد يرفرف فوق فقر قديم.

وفي أحد الأيام، أمسكت بعجلة غزل قديمة. كانت بسيطة إلى حد يدعو للشفقة. خشب خشن. ومحور يدور بصعوبة. وخيط رقيق يحتاج إلى صبر طويل. أدارها أحد الشيوخ أمامي. كان صريرها الخافت يملأ الغرفة. راقبت الخيط وهو يخرج من بين أصابعه ببطء. وفجأة، شعرت أنني لا أنظر إلى أداة. بل إلى فكرة. إلى وطن يحاول أن يغزل مستقبله بيديه.



منذ ذلك اليوم، أصبحت عجلة الغزل جزءاً من حياتي اليومية. كنت أجلس إليها كل يوم. أديرها بصبر. وأغزل الخيط كما يغزله آلاف الفلاحين والنساء في القرى.

سألني بعض الصحفيين:

"ألا ترى أن وقتك أثمن من أن تقضيه في غزل القطن؟"

ابتسمت. ثم قلت:

"إذا كان هذا العمل يرفع من كرامة إنسانٍ واحد، فليس في يومي ساعةٌ أثمن منه."

كانوا يظنون أنني أضيع وقتي. أما أنا، فكانت أرى أنني أستثمره في بناء معنى جديد للحرية. لم تكن عجلة الغزل مجرد وسيلة لإنتاج القماش. كانت مدرسة. تعلم الإنسان الصبر. فلا أحد يستطيع أن يغزل وهو متعجل. وتعلمه التواضع. فالخيط ينقطع إذا شددته بعنف. ويتعقد إذا أهملته. ويفسد إذا فقدت تركيزك. وكنت، كلما أدت العجلة، أشعر أنني لا أغزل القطن فقط. بل أغزل نفسي أيضاً. أغزل ما بقي في داخلي من استعجال، وكبرياء، ورغبة في النتائج السريعة. ثم بدأت أدعو الناس إلى العودة إلى الغزل اليدوي. لم يكن هدفي أن نحارب الآلات. فالآلة ليست عدواً. الذي يصبح عدواً هو النظام الذي يجعل الآلة سبباً في تجويع ملايين البشر.

كنت أقول لهم:

"كل خيطٍ تغزلونه بأيديكم... هو خطوةٌ صغيرة نحو استقلالكم."

وكان بعضهم يبتسم ساخرًا. كيف يمكن لعجلة خشبية أن تواجه أعظم إمبراطورية صناعية في العالم؟

لكنني كنت أومن أن الإمبراطوريات لا تسقط بضربة واحدة. إنها تتآكل حين يتوقف الناس عن الاعتماد عليها.

وبدأت العجلة تنتقل من بيتٍ إلى بيت. ومن قرية إلى أخرى. ورأيت مشهداً لن أنساه ما حييت. امرأة عجوز تجلس أمام بيتها الطيني، تدير العجلة بيدين أنهكهما العمر. وبجوارها حفيدتها الصغيرة تقلدها، وتضحك كلما انقطع الخيط.

وقفت أراقبهما طويلاً. ثم أدركت أن الحرية ليست شعاراً يردده الكبار. إنها عادةٌ يتعلمها الأطفال. فإذا نشأ الطفل وهو يصنع بعض ما يحتاج إليه بيديه، فلن يقبل بسهولة أن يعيش عبداً لغيره.

ومع مرور الوقت، أصبحت عجلة الغزل رمزاً للهند كلها.

لم أطلب ذلك. بل صنعه الناس. صار الأغنياء والفقراء يديرونها. وصار الطلاب يحملونها في المدارس. وصارت النساء يتباهين بما غزلته أيديهن. وأصبح القماش المحلي أكثر من مجرد ثوب. لقد صار إعلاناً صامتاً يقول:

"نحن قادرون على أن نعتمد على أنفسنا."

ولم يكن هذا الإعلان موجهاً إلى بريطانيا وحدها. بل كان موجهاً إلى الهنود أيضاً. كي يستعيدوا ثقتهم بأنفسهم.

وكان بعض السياسيين يعترضون عليّ. قالوا:

"نحن بحاجة إلى خططٍ اقتصادية كبيرة، لا إلى عجلةٍ بدائية."

ابتسمت. ثم قلت لهم:

"كل مشروع عظيم يبدأ بفعلٍ صغير. والأمة التي تحتقر الأعمال الصغيرة... لن تنجح في الأعمال الكبيرة."

لقد كنت أوّمن أن بناء الاقتصاد لا يبدأ في الوزارات. بل في البيت. وفي يد الفلاح. وفي المرأة التي تنسج ثوب أسرتها. وفي الطفل الذي يتعلم أن الإنتاج شرف، لا عبء.

وذاًت مساءً، جلست وحدي أدير العجلة. كان صوتها الرتيب يشبه نبض القلب. أخذت أتأمل دورانها. وفجأةً خطر لي أن التاريخ نفسه يشبهها. إنه لا يتحرك بقفزاتٍ مفاجئة كما نزن. بل يدور ببطء. ويحتاج إلى صبرٍ طويل. ومن يستعجل دورانه... قد يكسر محوره.

فتحت دفترتي الصغير.

ورسمت دائرة. ثم كتبت في وسطها:

"قد يظن الناس أنني أدير عجلة غزل. لكن الحقيقة... أنني أحاول أن أدير عجلة أمة كاملة، توقفت طويلاً عن الإيمان بقدرتها على صنع مصيرها."

أغلقت الدفتر. ثم واصلت إدارة العجلة. كانت الخيوط تتجمع أمامي شيئاً فشيئاً. خيطاً بعد خيط. دون ضجيج. ودون استعجال. وعندها أدركت أن الحرية نفسها تشبه هذا الخيط. لا تُنسج بضربة واحدة. ولا يصنعها بطلٌ واحد. بل تتكون من ملايين الخيوط الصغيرة، التي يغزلها ملايين البشر، بصبرٍ وإيمان، حتى تتحول، في يومٍ ما، إلى ثوبٍ واسع... يرتديه وطنٌ كامل.

كنت أوّمن أن الوطن لا يُبنى في الشوارع وحدها. ولا في السجون وحدها. ولا في القرى وحدها. بل يحتاج أيضاً إلى أماكن يجلس فيها المختلفون حول طاولةٍ واحدة، ويحاولون أن يجعلوا من اختلافهم قوةً، لا سبباً لانقسامهم.

ولهذا، حين بدأت أشارك في اجتماعات المؤتمر الوطني الهندي، لم أنظر إليها بوصفها اجتماعاتٍ سياسية فحسب. كنت أنظر إليها كما ينظر الطبيب إلى غرفة العمليات. فالكلمات التي تُقال هناك، قد تُنقذ أمةً كاملة... وقد تجرحها.

دخلت إحدى قاعات المؤتمر لأول مرة بعد عودتي إلى الهند. كانت القاعة تعج بالوجوه.

محامون.

وقضاة.

وشعراء.

وصحفيون.

وزعماء أقاليم.

وأصحاب مصانع.

ومتفقون جاءوا من جهات الهند الأربع.

وكانت الأحاديث تدور بلغاتٍ متعددة، حتى شعرت أن الهند كلها قد اجتمعت تحت سقفٍ واحد.

جلست في مكاني، وأخذت أراقب أكثر مما أتكلم. فقد تعلمت، خلال رحلاتي، أن من يستعجل الكلام، قد يحرم نفسه من فهم ما يدور حوله.

كان النقاش محتدمًا. لكل رجلٍ رأيه. ولكل رأيٍ أنصاره. بعضهم كان يرى أن الطريق إلى الحرية يمر عبر التفاوض الهادئ مع البريطانيين. وبعضهم كان يطالب بخطواتٍ أكثر جرأة. وكانت الكلمات ترتفع أحيانًا حتى تكاد تتحول إلى خصومة.

جلست أنظر إلى الوجوه. ثم خطر لي أن الأمة التي تريد الحرية، يجب أن تتعلم أولاً كيف تختلف دون أن تكره. فالاختلاف ليس مرضًا. الذي يقتل الأمم... هو تحويل الاختلاف إلى عداوة.

حين جاء دوري في الحديث، لم أبدأ بالسياسة. بل بدأت بالقري.

قلت لهم:

"لقد قطعت آلاف الأميال في الهند. ولم أجد الفلاحين يسألون عن خطاباتنا. كانوا يسألون عن الخبز. وعن الأرض. وعن الكرامة."

ساد الصمت. ثم أكملت:

"إذا لم يسمع هذا المؤتمر صوت القرى... فلن يسمعه التاريخ."

كنت أريد أن أخرج السياسة من القاعات المغلقة، لتعود إلى الطريق الذي جاءت منه.

فالوطن ليس ما نناقشه هنا. الوطن ينتظرنا خارج هذه الجدران.
ولاحظت شيئاً كان يقلقني. كثيرٌ من الحاضرين كانوا يرتدون بدلاتٍ
أوروبية أنيقة. ويتحدثون بلغةٍ إنجليزية لا تشوبها شائبة. ولم يكن في
ذلك عيبٌ بذاته. لكنني كنت أخشى أن تصبح السياسة بعيدةً عن
الناس. فإذا جلس القادة يتحدثون بلغةٍ لا يفهمها الفلاح... فكيف
سيدافعون عنه؟

كنت أقول لنفسي:

يجب أن تتعلم السياسة لغة الأرض. لا أن تطلب من الأرض أن تتعلم
لغتها.

وبمرور الاجتماعات، بدأت أطرح فكرةً بدت غريبةً للبعض.
قلت:

"لا أريد أن يبقى المؤتمر ناديًا للنخبة. أريده بيتًا للهند كلها."
كان بعض الحاضرين يبتسم ابتسامةً متحفظة.

كيف يمكن للفلاح البسيط أن يشارك في صنع القرار؟ وكيف يفهم
السياسة؟

ابتسمت بدوري. ثم قلت:

"الرجل الذي يعرف كيف يزرع القمح... يعرف من الحياة ما قد لا
يعرفه من قرأ ألف كتاب."

لقد كنت أو من أن الحكمة لا تُقاس بعدد الشهادات. بل بصدق التجربة.
وكانت اجتماعات المؤتمر تمتد ساعاتٍ طويلة. تتعب الأجساد.
وتجف الحناجر. لكنني كنت ألاحظ شيئاً آخر. كلما جلس الناس معاً،
واختلفوا، ثم عادوا إلى الحديث من جديد... ازداد احتمال أن يجدوا
طريقاً مشتركاً. أما إذا توقفوا عن الحوار... بدأت المسافات تكبر
بينهم.

ومنذ تلك الأيام، ازددت يقيناً بأن الكلمة الصادقة، مهما بدت ضعيفة، تستطيع أحياناً أن تمنع حرباً كاملة.

وذاذ يوم، احتدم النقاش حتى ظن بعض الحاضرين أن الاجتماع سينتهي بانقسام. وقف أحد الزعماء غاضباً، وضرب الطاولة بيده. ساد التوتر.

فنظرت إليه بهدوء، ثم قلت:

"إذا كنا لا نستطيع أن نتحمل اختلافنا داخل هذه القاعة... فكيف سنطلب من الهند كلها أن تتحد؟"

لم تكن الجملة طويلة. لكنها أعادت الهدوء إلى المكان.

وهناك فهمت أن القائد لا يُقاس بعدد الخطب التي يلقيها. بل بعدد اللحظات التي يمنع فيها الغضب من أن يصبح سيد الموقف.

ومع مرور الوقت، لم يعد المؤتمر مجرد مؤسسة سياسية في نظري. لقد صار صورةً مصغرةً عن الهند.

فيه الهندوسي والمسلم.

والسيخي والمسيحي.

وفيه الغني والفقير.

وابن المدينة وابن القرية.

وكان نجاحنا في الجلوس معاً، رغم كل اختلافاتنا، دليلاً على أن الوطن ممكن. أما إذا فشلنا نحن... فكيف سينجح الملايين؟

وفي إحدى الليالي، بعد انتهاء اجتماعٍ طويل، خرجت وحدي أسير في الطريق. كان القمر يضيء الشوارع بهدوء. وتذكرت القرى التي زررتها. وتذكرت الفلاحين الذين وعدتهم أن أحمل صوتهم.

ثم سألت نفسي:

هل يحق لي أن أضيع وقتي في صراعات الأشخاص، بينما هناك أمةٌ تنتظر؟

ومنذ تلك الليلة، قررت أن أحارب فكرةً جديدة. ليست الاحتلال وحده... بل احتلال الأنا. فكثيرٌ من الأمم لا يهزمها عدوها. بل يهزمها تضخم ذوات قادتها.

عدت إلى غرفتي. جلست أمام دفترتي الصغير. فتحت صفحةً جديدة. وكتبت:

"ليست الوطنية أن ينتصر رأيي. بل أن تنتصر الهند. فإذا خرجت من الاجتماع وقد ربحت الجدل، وخسر الوطن وحدته... فقد خسرت كل شيء."

أغلقت الدفتر. وأطفأت المصباح. لكن صوت النقاشات ظل يتردد في داخلي. ولم أعد أسمعها بوصفها أصوات رجالٍ يختلفون. بل بوصفها نبض أمةٍ كاملة، تتعلم، بعد قرونٍ طويلة من الصمت، كيف تتحدث مع نفسها. وكانت تلك، في نظري، بداية الحرية الحقيقية. فالاستقلال لا يبدأ يوم يرحل المحتل. إنه يبدأ يوم يتعلم أبناء الوطن أن يصنعوا مستقبلهم معًا، دون أن يحولوا اختلافهم إلى سلاحٍ يطعن بعضهم بعضًا.

كنت أظن، في سنوات شبابي، أن الأمة إذا اتفقت على هدفٍ واحد، فسوف تسير إليه بقلبٍ واحد. لكن الحياة علمتني أن الطريق إلى الهدف الواحد، قد يتشعب إلى عشرات الطرق. كل طريقٍ يظن أصحابه أنه الأقرب. وكل رجلٍ يرى في رأيه خلاص الوطن. ولذلك لم يكن الاحتلال البريطاني هو الخصم الوحيد الذي واجهته في الهند. كان عليّ أيضًا أن أتعلم كيف أعيش مع اختلاف أبناء وطني، دون أن يتحول الاختلاف إلى خصومة.

كنت أجلس في قاعات المؤتمر الوطني الهندي، فأشعر أحيانًا أنني
أجلس في صورة مصغرة للهند كلها.

هناك من يرى أن الوقت لم يحن بعد لمواجهة بريطانيا.

وهناك من يرى أن كل يوم تأخير هو خيانة للفقراء.

وهناك من يؤمن بالدستور والإصلاح التدريجي.

وهناك من لا يثق إلا بالثورة الشاملة.

ولم يكن أيّ منهم قليل الحب للهند.

لكن حب الوطن، وحده، لا يمنع اختلاف العقول.

تعلمت أن أميز بين نوعين من الخلاف. خلافٍ يبحث عن الحقيقة.

وخلافٍ يبحث عن الانتصار. الأول يجعل الإنسان أكثر تواضعًا كلما

طال النقاش. أما الثاني... فيجعله أكثر عنادًا. ولذلك كنت أراقب

نفسي قبل أن أراقب الآخرين. فقد يختبئ حب الذات داخل أجمل

الشعارات. وقد يتنكر الكبرياء في ثياب الوطنية.

كان بعض الشباب يأتون إليّ بعينين مشتعلتين. يقولون:

"لقد انتظرنا طويلًا. الكلمات لا تحرر الأوطان. الرصاص وحده

يفعل."

كنت أنظر إليهم فأرى نفسي حين كنت أصغر سنًا، قبل أن تعلمني

الحياة ثمن العنف. لم أشك يومًا في شجاعتهم. لكنني كنت أخاف أن

تتحول شجاعتهم إلى نارٍ تحرق ما يريدون إنقاذه.

فقلت لهم مرة:

"من السهل أن تطلق رصاصة. لكن الأصعب أن تبني وطنًا بعد أن

تسكت البنادق."

وفي المقابل، كان هناك رجالٌ يفضلون الصبر إلى ما لا نهاية. يرون

أن كل مواجهة مع الإمبراطورية مغامرة غير محسوبة. وكانوا

يدعون إلى الاكتفاء بالعرائض والاجتماعات والوعود. كنت أحترم إخلاصهم. لكنني كنت أشعر أن الخوف، إذا لبس ثوب الحكمة، يصبح أكثر خطرًا. فالحكمة لا تعني أن نؤجل الحق إلى الأبد. ولا أن نطلب من المظلوم أن ينتظر حتى يشيخ.

وأحيانًا، كانت الخلافات تمتد إلى أشخاص أحببتهم واحترمتهم. كنت أختلف معهم في الوسائل، لا في الغاية. وكان يؤلمني أن أرى رجالاً أفنوا أعمارهم في خدمة الهند، ثم يقفون متقابلين، كأنهم خصمان. فكنت أقول لنفسي:

"ما أسهل أن يجمعنا العدو. وما أصعب أن يجمعنا الوطن."

فالعدو يمنح الناس هدفًا واضحًا. أما الحرية... فتكشف كل اختلافاتهم الكامنة.

وكانت الصحف تزيد النار اشتعالًا. كل صحيفة تبحث عن عنوان كبير. وكل كاتب يختار جانبًا. وأحيانًا كنت أقرأ عن نفسي كلامًا لم أقله قط. أو أجد أن خلافًا صغيرًا قد تحول، في صفحات الجرائد، إلى معركة كبرى. فضحكت يومًا وقلت لأحد أصدقائي:

"الكلمة قد تكون أرحم من الرصاصة... لكنها قد تجرح أيضًا إذا فقدت أمانتها."

ومنذ ذلك الحين، أصبحت أكثر حذرًا فيما أقول. ليس خوفًا من النقد. بل خوفًا من أن تُستخدم كلماتي لإشعال نارٍ بين أبناء الوطن.

كان أصعب ما في السياسة ليس مواجهة البريطانيين. بل مقاومة الرغبة في كسب المعركة بأي ثمن. فقد يأتي يومٌ يغريك فيه الانتصار السريع. يغريك أن تهاجم منافسك. أن تشوّهه. أن تستغل خطأه. لكنني كنت أعود إلى سؤالٍ واحد:

إذا استخدمت الوسائل التي أرفضها عند خصمي... فما الذي بقي من قضيتي؟

لقد كنت أومن أن الوسيلة ليست طريقًا إلى الغاية. إنها جزءٌ منها.
فالطريق الملتخ بالكرهية... لا يمكن أن يقود إلى سلامٍ حقيقي.
وذات مساء، بعد اجتماع طويل امتلأ بالجدال، خرجت أمشي وحدي.
كانت الريح تحرك أوراق الأشجار. فوقفت أتأملها. كل ورقة تتحرك
بطريقةٍ مختلفة. لكن الجذع واحد. عندها خطرت لي فكرةٌ لن تفارقني
بعد ذلك.

ليست المشكلة أن تختلف الأغصان. المشكلة أن تنسى الشجرة
جذورها. وكذلك الأمة. لا يضيرها أن تتعدد الآراء. إنما يهلكها أن
تنسى المبادئ التي قامت عليها.

ومع مرور الأيام، بدأت أفهم أن دوري ليس أن أجعل الجميع يفكرون
مثلي. بل أن أساعدهم على ألا يكره بعضهم بعضًا. فالسياسة التي
تقتل الاحترام بين المختلفين... تزرع بذور الحرب الأهلية، حتى وإن
رفعت شعار الحرية. ولهذا كنت أمد يدي إلى من يوافقني، وإلى من
يعارضني. لا لأنني أتنازل عن قناعاتي. بل لأن الوطن أوسع من
قناعاتي وقناعاته معًا.

وفي إحدى الليالي، فتحت دفترتي الصغير، وكان التعب يثقل يدي.
كتبت:

"ليس أعظم انتصارٍ في السياسة أن أقنع الجميع برأيي. بل أن أخرج
من الخلاف، ويبقى الحب بيننا حيًا. فالرأي قد يتغير. أما الكراهية،
إذا استقرت في القلب، فإنها تعيش أطول من الاحتلال نفسه."

أغلقت الدفتر. ثم بقيت أحرق في المصباح حتى خفت نوره. وفكرت
أن الإمبراطوريات لا تستفيد من شيءٍ كما تستفيد من انقسام
خصومها. ولذلك، لم يكن واجبي أن أقاوم بريطانيا وحدها. بل أن
أقاوم، في كل يوم، ذلك العدو الخفي الذي يسكن داخل الإنسان...
وهو وهم أن الحقيقة كلها قد اختارت أن تسكن عقله وحده. وعندها

فقط، أدركت أن أصعب معارك الاستقلال ليست تلك التي نخوضها مع المحتل... بل تلك التي نخوضها مع غرورنا، ونحن نظن أننا نحارب من أجل الوطن.

لم أشعر يوماً باللحظة التي أصبحت فيها معروفاً. فالشهرة لا تأتي إلى الإنسان وهي تطرق بابه. إنها تتسلل إليه كما يتسلل الفجر إلى السماء. لا يرى أحد لحظة ميلاده. لكنه يلتفت فجأة، فيجد أن الليل قد انقضى.

وهكذا كانت علاقتي بالناس. لم أبحث عن قلوبهم. لكنني كنت أبحث عن الحقيقة. ولعل الحقيقة هي الطريق الأقصر إلى قلوب البشر.

بعد سنوات قليلة من عودتي إلى الهند، بدأت ألاحظ أن الرحلات التي كنت أقوم بها لم تعد كما كانت. في البداية، كنت أصل إلى قرية فلا يعرفني إلا عدد قليل. أما الآن، فقد أصبح الناس ينتظرون قبل وصولي بساعات. كان الأطفال يصعدون إلى أسطح البيوت ليروا القطار وهو يدخل المحطة. وكان الرجال يتركون الحقول مؤقتاً. وتخرج النساء من البيوت وهن يحملن أطفالهن، وكأنهن يردن أن يحتفظوا في ذاكرتهم بصورة ذلك الرجل النحيل الذي يرتدي ثوباً أبيض بسيطاً، ولا يحمل في يده سيفاً ولا بندقية.

كنت أنظر إليهم، وأسأل نفسي في صمت:

هل ينتظرونني...

أم ينتظرون الأمل الذي يظنون أنني أحمله؟

كانت الوجوه تتكاثر كلما تكاثرت الأسفار. وفي كل مدينة، كنت أرى شيئاً جديداً. رجلاً قطع أياماً سيراً على قدميه ليسمعني دقائق. امرأة جاءت من قرية بعيدة وهي تحمل رضيعها، لأنها قالت إن أبناءها يجب أن يعرفوا أن الخوف ليس قدرًا.

وشيخًا ضريرًا طلب فقط أن يلمس يدي، ثم قال مبتسمًا:

"لا أراك بعيني... لكنني أراك في أصوات الناس."

كانت تلك الكلمات تثقل روعي أكثر مما تفرحها. فكل محبةٍ يمنحها الناس لقائهم، تصبح دينًا في عنقه.

بدأت الصحف تكتب عني أكثر مما كنت أكتب أنا في دفترتي.

كل يوم، مقال.

وكل أسبوع، تحليل.

وكان الرسامون يرسمون صورتي. ويطبعونها في الجرائد والملصقات.

حتى إنني رأيت طفلًا يحمل ورقةً فيها وجهي، فنظر إليها، ثم نظر إليّ، وكأنه يقارن بين الصورة والرجل.

ابتسمت.

وفكرت أن الورق يستطيع أن يحمل الملامح... لكنه لا يحمل الحقيقة. فالإنسان ليس وجهًا. إنه رحلة.

ثم بدأت أدرك أن الناس لا يستمعون إلى كلماتي فقط. بل يراقبون حياتي.

كيف أكل.

وكيف أمشي.

وكيف أصافح الناس.

وكيف أعيش.

كان ذلك يخيفني أكثر من أي شيء آخر. فالخطيب يستطيع أن يختبئ خلف كلماته. أما الرجل الذي تصبح حياته كتابًا مفتوحًا... فعليه أن يكون صادقًا حتى في التفاصيل الصغيرة.

ومنذ ذلك الوقت، شعرت أن مسؤوليتي لم تعد تنتهي عند المنبر. بل تبدأ منه.

وكان بعض أصدقائي يقولون لي:

"لقد أصبحت أشهر رجل في الهند."

فأجيبهم ضاحكًا:

"إذا كانت الشهرة تعني أن يعرف الناس اسمي... فذلك أمر لا قيمة له. أما إذا كانت تعني أنهم عرفوا قيمة الحقيقة... فهذا فقط تصبح الشهرة نافعة."

كنت أخشى أن يتحول اسمي إلى غاية. لأن الأسماء، مهما عظمت، لا تحرر الأوطان. الذي يحررها هو الإيمان الذي يسكن القلوب.

ومع ازدياد شعبيتي، بدأت تصلني الرسائل من كل مكان.

رسائل من فلاحين.

ومن طلاب.

ومن نساء فقدن أبناءهن.

ومن عمال يشكون قسوة الحياة.

كانت الحقايب تمتلئ بالرسائل. وأحيانًا، كنت أقضي الليل كله أقرأها. لم أكن أستطيع الرد على جميعها. لكنني كنت أشعر أن كل رسالة هي أمانة. لقد كان الناس يكتبون إليّ، لا لأنهم يظنون أنني أملك الحلول كلها. بل لأنهم وجدوا أخيرًا من يصدق أن الآمهم تستحق أن تُسمع.

وذات يوم، وصلت إلى محطة قطار صغيرة. وما إن توقفت العربة حتى فوجئت بآلاف الناس. لم يكن في المحطة مكانٌ لقدم. كان بعضهم قد تسلق الأشجار. وبعضهم جلس فوق الأسطح. وكان الهتاف يعلو حتى غطى على صوت القطار. وقفت صامتًا. لم أرفع

يدي. ولم أخطب. اكتفيت بالنظر إلى تلك الوجوه. ثم شعرت بالخوف.

نعم...

الخوف.

لأنني رأيت في أعينهم ثقةً هائلةً. والثقة، إذا وُضعت في إنسان، تصبح امتحانًا لا ينتهي.

في تلك الليلة، لم أستطع النوم. ظل سؤالٌ واحد يدور في رأسي: ماذا لو أخطأت؟

أليس هؤلاء جميعًا بشرًا وضعوا شيئًا من أحلامهم في رجلٍ واحد؟ وهل يحق لي أن أقبل بذلك؟

ثم تذكرت ما تعلمته في جنوب أفريقيا. القائد ليس من يمنع نفسه من الخطأ. فذلك مستحيل. القائد هو الذي يعترف بخطئه قبل أن يكتشفه الناس.

ومنذ تلك الليلة، قررت ألا أدافع عن نفسي إذا أخطأت. بل أن أدافع عن الحقيقة، حتى لو وقفت ضدي.

ومع مرور الأشهر، بدأت ألاحظ أن شيئًا جديدًا قد ولد في الهند. لم يعد الناس يلتقون لأن غاندي سيأتي. بل صاروا يلتقون لأنهم يريدون أن يشعروا أنهم جزءٌ من قضية واحدة.

كان الفلاح يقف بجوار التاجر.

والعامل بجوار الأستاذ.

والهندوسي بجوار المسلم.

وكل واحدٍ منهم يرى في الآخر شريكًا في الطريق.

وهنا أدركت أن الشعبية ليست أن يحبك الناس. بل أن تجعلهم يحبون

بعضهم أكثر. فإذا جمعت القلوب... فقد نجحت. أما إذا جمعتها حول شخصك فقط... فقد صنعت صنماً جديداً.

وفي إحدى القرى، اقترب مني طفل لم يتجاوز العاشرة. كان يحمل في يده مغزلاً صغيراً صنعه بنفسه.

قال لي:

"أريد أن أصبح مثلك."

ابتسمت. وربتُ على رأسه. ثم قلت:

"لا... كن أفضل مني."

نظر إليّ متعجباً. فأكملت:

"إذا حاول كل جيل أن يكرر الجيل الذي قبله، فلن يتقدم الوطن خطوة واحدة. خذ مني المبادئ... ولا تأخذ مني الحدود."

تركته يمضي. وبقيت أنظر إلى المغزل الصغير في يده. وفكرت أن الهند لا تحتاج إلى غاندي آخر. إنها تحتاج إلى ملايين الهنود الذين يكتشف كل واحدٍ منهم غانديه الخاص في داخله.

وفي آخر تلك الليلة، جلست وحدي أمام دفتري. كانت أصوات الجماهير ما تزال تتردد في أذني. لكنني كتبت جملةً واحدة فقط:

"إذا صار اسمي أعلى من صوت الفقير... فقد فشلت. وإذا أصبحت صورتني أكبر من القضية... فقد ضللت الطريق. أما إذا نسيني الناس يوماً، وبقيت الحقيقة تسير بينهم... فذلك هو أعظم ما يمكن أن يتمناه إنسان."

أغلقت الدفتر، وأطفأت المصباح. مدركاً أن الشهرة ليست مكافأة. إنها اختبارٌ يومي. فكلما ازداد عدد الذين ينظرون إليك... ازداد واجبك في أن تنظر، أنت، إلى أعماق نفسك. لأن سقوط الرجل المجهول يؤذيه وحده. أما سقوط الرجل الذي تعلقت به أمة... فقد

يؤخر حلم أمةٍ كاملة.

ومنذ ذلك اليوم، لم أعد أخاف من سجون بريطانيا بقدر ما خفت من سجنٍ آخر، لا تُرى قضبانه... سجن الشهرة، حين يقنع الإنسان بأنه أصبح أكبر من الرسالة التي يحملها.

كنت أعلم، منذ أن وطئت قدمي أرض الهند، أن اليوم الذي سأقف فيه في مواجهة الإمبراطورية البريطانية سيأتي لا محالة. لكنني كنت أرفض أن أستعجل ذلك اليوم. فالزمن، في نظر كثير من الناس، عدوٌ يجب هزيمته.

أما أنا...

فكنت أراه معلمًا. يعلمنا أن البذور التي تُدفن اليوم، لا تصبح أشجارًا غدًا. وأن الأمة التي تريد أن تقطف ثمار الحرية، عليها أولاً أن تتعلم كيف تزرع جذورها في الصبر.

كان كثيرٌ من الشباب يأتون إليّ كل أسبوع. وجوههم منقّدة. وأيديهم ترتجف من الحماسة. وكان السؤال نفسه يتكرر:

"متى نبدأ الثورة؟"

فأجيبهم:

"لقد بدأت."

فينظرون إليّ في دهشة.

إذ كانوا ينتظرون موعدًا، وساعةً، وصرخةً تعلن البداية. لكنني كنت أرى أن الثورة الحقيقية لا تبدأ عندما ينزل الناس إلى الشوارع. بل عندما يتغير الإنسان في داخله. فمن لم يتحرر من الخوف... لن تحرره أي راية.

كنت أقول لهم:

"إذا أردتم أن تقاوموا بريطانيا، فابدؤوا بمقاومة الكذب. قاوموا الكسل. قاوموا الأنانية. قاوموا احتقار الفقراء. قاوموا الظلم الذي يمارسه الهندي على أخيه الهندي."

وكان بعضهم يبتسم، ظانًا أنني أهرب من المواجهة. لكنني كنت أعلم أن الأمة التي لم تنتصر على عيوبها، ستعيد إنتاج الطغيان حتى لو رحل المحتل. فالحرية ليست تبديل الحاكم. الحرية هي تبديل الإنسان.

ومنذ ذلك الوقت، بدأت أعد الناس للعصيان المدني. لكنني لم أبدأ بتعليمهم كيف يعارضون القانون. بل كيف يحترمون القانون العادل. فالعصيان، في نظري، لم يكن فوضى. ولم يكن تمرّدًا على النظام. بل كان رفضًا أخلاقيًا لقانونٍ فقد شرعيته لأنه فقد عدالته.

قلت لهم:

"إذا خالفتم قانونًا جائرًا، ثم هربتم من العقوبة... فأنتم لم تمارسوا العصيان المدني. العصيان الحقيقي هو أن تكسر القانون، ثم تقف أمام القاضي، وتعترف بما فعلت، وتقبل السجن بضميرٍ هادئ."

كان هذا الكلام غريبًا على كثيرين. لكنني كنت أوّمن أن قبول العقوبة هو الذي يكشف الفرق بين المجرم وصاحب الضمير.

وبدأت أعقد لقاءاتٍ طويلة مع المتطوعين. لم تكن لقاءاتٍ لتنظيم المظاهرات فقط. بل كانت دروسًا في تهذيب النفس.

كنت أسألهم:

"إذا شتمك جندي، ماذا تفعل؟"

فيجيب بعضهم:

"أشتمه."

فأهز رأسي. ثم أقول:

"إذن أنت لم تنتصر على نفسك بعد."

وأسأل آخر:

"إذا ضربك بعصاه؟"

فيقول:

"أضربه."

فأبتسم بحزن. وأدرك أن الطريق ما زال طويلاً.

لقد كنت أبحث عن رجالٍ يستطيعون أن يتحكموا في غضبهم أكثر مما يستطيعون تحريك أيديهم.

وأحياناً، كنت أجعلهم يتدربون على الصمت. كان ذلك يبدو أمراً عجيّباً. كيف يتدرب الإنسان على الصمت؟

لكنني كنت أقول لهم:

"الكلمة التي لا تستطيع السيطرة عليها... ستقودك يوماً إلى فعلٍ لا تستطيع السيطرة عليه."

فإذا تعلم الإنسان أن يضبط لسانه، أصبح أقدر على ضبط غضبه. وإذا استطاع أن ينتصر على غضبه... صار أقوى من كثير من الجيوش.

ثم بدأت أطلب منهم أن يتعلموا الانضباط.

أن يحضروا في الوقت.

أن يحافظوا على النظافة.

أن يحترموا خصومهم.

أن يساعدوا الضعفاء.

استغرب بعضهم. وقالوا:

"وما علاقة هذا بالاستقلال؟"

فقلت:

"كل العلاقة."

لأن الأمة التي لا تستطيع أن تنظم صفًا صغيرًا... لن تستطيع أن تنظم وطنًا كبيرًا. والحرية ليست أن يفعل كل إنسان ما يشاء. بل أن يعرف كل إنسان واجبه، ثم يؤديه بإخلاص.

كنت أعلم أن بريطانيا تنتظر منا خطأً واحدًا.

طلقةً واحدة.

حجرًا واحدًا.

عملاً عنيفًا واحدًا.

كي تقول للعالم:

"انظروا... هؤلاء ليسوا دعاة حرية، بل دعاة فوضى."

ولذلك كنت أشدد على أصحابي:

"لا تعطوا خصمكم السلاح الذي ينتظره."

كان أصعب ما في اللاعنف أنه يطالب الإنسان بأن يكون سيد نفسه في اللحظة التي يكون فيها الغضب في ذروته.

وهذا، في رأيي، أشجع من حمل السلاح.

وذات يوم، جاءني شابٌ في مقتبل العمر. قال بعصبية:

"لقد صفعتني جندي بريطاني أمام الناس. كيف تريدني ألا أرد؟"

نظرت إليه طويلاً. ثم قلت:

"لو صفعت وجهك، فقد آذاك وحدك. لكن إذا صفعتك أنت... فقد آذيت

القضية كلها."

ظل صامتًا. ثم انحنى ومضى. ولم أكن أعلم إن كان قد اقتنع. لكنني كنت أعلم أن معركة الإنسان مع نفسه لا تنتهي بجملة واحدة.

ومع مرور الشهور، بدأت أرى التغيير. لم يعد الناس يتدربون على المقاومة فقط. بل على ضبط النفس. رأيت رجالًا كانوا يغضبون لأتفه الأسباب، فإذا بهم يصبحون أكثر هدوءًا. ورأيت شبابًا كانوا يحلمون بالبندقية، فإذا بهم يحملون المغزل. ورأيت نساءً كن يظنن أن السياسة للرجال، فإذا بهن يصبحن جزءًا من الاستعداد الكبير.

وهناك أدركت أن الأمة بدأت تتغير. ليس لأن الاحتلال ضعف. بل لأن الشعب أصبح أقوى.

وفي إحدى الليالي، جلست وحدي بعد انتهاء اجتماع طويل مع المتطوعين. كان الصمت يملأ المكان. وأخذت أتخيل اليوم الذي سنعلن فيه العصيان المدني.

هل سيكون الناس مستعدين حقًا؟

هل سيصمدون أمام السجون؟

أمام الضرب؟

أمام الإذلال؟

ثم تذكرت جنوب أفريقيا. وتذكرت وجوه الرجال الذين دخلوا السجن وهم يبتسمون. فشعرت بشيء من الطمأنينة. إن الحقيقة، إذا وجدت قلوبًا تؤمن بها، تستطيع أن تجعل الإنسان يحتمل ما كان يظنه مستحيلًا.

فتحت دفترتي الصغير. وكانت يدي تتحرك ببطء. ثم كتبت:

"إنني لا أعدُّ شعبًا للعصيان. بل أعدُّه للطاعة... طاعة الضمير. فالإنسان الذي يطيع ضميره بإخلاص، قد يجد نفسه مضطرًا يومًا

إلى عصيان قانونِ جائرٍ. وعندئذٍ، لا يكون عاصياً في الحقيقة... بل
يكون أكثر الناس احتراماً للعدالة."

أغلقت الدفتر. ورفعت رأسي إلى السماء. وشعرت أن الهند كلها
تشبه قوساً مشدوداً. السنوات الماضية كانت تشد الوتر ببطء.
أما السهم...

فقد أوشك أن ينطلق.

ولم أكن أعرف بعد أي رمزٍ بسيطٍ سيختاره القدر ليوظف أمةً كاملةً.
لكنني كنت واثقاً أن لحظة المواجهة قد اقتربت. وأن البحر، في مكانٍ
ما من هذه البلاد الشاسعة، كان ينتظر أن يشهد ولادة الفصل الأعظم
في رحلتنا.

قضيت ليالي طويلة أسأل نفسي سؤالاً واحداً:

كيف يمكن لأمةٍ بأكملها أن تقول "لا"؟

لم يكن السؤال عن الشجاعة.

فقد رأيت الشجاعة في عيون الفلاحين، وفي صبر الأمهات، وفي
وجوه العمال التي حفرتها الشمس.

ولم يكن السؤال عن الكراهية.

فالهند، لو أرادت أن تكرهه، لوجدت ألف سبب.

كان السؤال عن الطريق.

كيف يستطيع ملايين البشر، ممن لا يملكون سلاحاً، ولا مالاً، ولا
سلطة، أن يقفوا في وجه أكبر إمبراطورية عرفها العصر؟

كنت أعلم أن الجواب لا يمكن أن يكون معقداً. لأن الحقيقة، كلما
اقتربت من الناس، ازدادت بساطة.

بدأت أقلب قوانين الاحتلال واحداً تلو الآخر.

الضرائب.

الاحتكارات.

التجارة.

الزراعة.

الجمارك.

كنت أقرأ النصوص القانونية كما كنت أقرأ وجوه الفلاحين. وأبحث عن القانون الذي لا يظلم الإنسان فقط... بل يهين كرامته أيضاً.

ثم توقفت عند قانونٍ بدأ، في ظاهره، صغيراً.

قانون الملح.

كانت الإمبراطورية قد احتكرت إنتاج الملح. ومنعت الناس من جمعه من البحر الذي خلقه الله لهم جميعاً. وفرضت عليهم أن يشتروا ملحهم منها، ويدفعوا عليه الضرائب.

أغلقت الملف.

وظللت صامتاً طويلاً.

أيمكن أن يكون هذا هو الطريق؟

أخذت حفنةً صغيرةً من الملح بين أصابعي. تأملتها كما يتأمل الفيلسوف حجراً عادياً، ثم يكتشف فيه معنى الكون.

كم يبدو الملح متواضعاً.

لا لون يلفت النظر.

ولا رائحة.

ولا بريق.

لكنه حاضرٌ على كل مائدة.
يدخل بيوت الأغنياء والفقراء.
يأكله الهندوسي، كما يأكله المسلم، والسيخي، والمسيحي.
يحتاج إليه الطفل كما يحتاج إليه الشيخ.
ولا يستطيع إنسان أن يستغني عنه طويلاً.
وفجأة، أدركت أن الملح لا ينتمي إلى طبقة.
ولا إلى دين.
ولا إلى إقليم.
إنه يشبه الحرية.
حقٌ بسيط...
لكن الحياة تفسد بدونه.
قلت لنفسي:

"إذا أردت أن توقظ أمةً كاملة، فلا تبدأ بما يفرقها. ابدأ بما يجمعها."
وكان الملح يجمع الهند كلها. فلا يوجد بيتٌ لا يعرفه. ولا أمٌّ لا تضعه
في طعام أطفالها. ولا عاملٌ لا يتذوقه مع خبزهِ اليابس. ولذلك، لم
يعد الملح في نظري مادةً بيضاء. بل صار لغةً يفهمها الجميع.

دعوت عددًا من رفاقي. جلست بينهم بهدوء. ثم سألتهم:

"لو أردنا أن نهز الإمبراطورية... فبأي شيء نبدأ؟"

تحدثوا عن الضرائب. وعن المحاكم. وعن المقاطعة. وعن المصانع.
استمعت إليهم جميعًا. ثم وضعت أمامهم قليلاً من الملح. نظروا إليّ
في دهشة. ابتسم أحدهم وقال:

"هل نمزح الآن؟"

فقلت بهدوء:

"كلا... إنني أتكلم بجديّة كاملة."

ساد الصمت.

شرحت لهم فكرتي. قلت:

"إن البريطانيين يستطيعون أن يمنعونا من دخول مصانعهم. وأن يغلقوا أبواب المحاكم. وأن يملؤوا السجون. لكنهم لا يستطيعون أن يمنعوا البحر من أن يهب ملحه."

ظلوا ينظرون إليّ. ثم بدأت أرى الفكرة تكبر في عيونهم. لقد أدركوا، كما أدركت، أن القوة ليست دائماً في الشيء نفسه. بل في المعنى الذي نحمله إليه.

كنت أعلم أن كثيرين سيسخرون من هذا الاختيار. كيف يمكن لحفنة ملح أن تهدد إمبراطورية تمتد من أقاصي آسيا إلى أفريقيا؟ لكنني كنت قد تعلمت، خلال رحلتي الطويلة، أن الطغاة يستهينون دائماً بالأشياء الصغيرة. إنهم يخافون البنادق. ولا يخافون حفنة ملح. ولهذا السبب بالذات... قد تهزمهم حفنة الملح. فما يراه المستبد تافهًا، قد يتحول، إذا لامس ضمير الناس، إلى زلزال.

وفي تلك الأيام، أخذت أتأمل البحر كثيرًا. كنت أقف على الشاطئ، وأراقب الأمواج وهي تأتي ثم تعود. لم تكن الأمواج تعرف شيئًا عن الإمبراطوريات. كانت تفعل ما فعلته منذ آلاف السنين. تمنح الملح لكل من يقترب منها.

فقلت في نفسي:

"أي غرورٍ هذا الذي يجعل إنسانًا يحتكر ما وهبته الطبيعة لجميع البشر؟"

لقد كان البحر، دون أن يتكلم، يلقني درسًا في العدالة. فالطبيعة لا تميز بين سيدٍ وخادم. ولا بين محتلٍ ومحتلٍ أرضه.

لكنني لم أكن أبحث عن انتصارٍ اقتصادي فقط. بل عن صحوةٍ روحية. كنت أريد أن يفهم الهندي البسيط أن مقاومة الظلم لا تبدأ دائماً في ساحات المعارك. قد تبدأ حين يرفض أن يدفع ثمنًا لحق خلقه الله حرًا.

كنت أريد أن يشعر كل رجلٍ وامرأة، وهما يلمسان حبات الملح البيضاء، بأن الحرية ليست فكرةً بعيدةً في كتب السياسة. إنها شيءٌ يمكن أن تحمله في كفك.

وقبل أن أعلن قراري، بقيت ليلةً كاملةً مستيقظًا. كنت أعلم أن هذه الخطوة قد تغير مجرى حياتي. وقد تغير مجرى الهند كلها.

فإذا فشلت...

فسوف يسخر الناس من رجلٍ ظن أن حفنة ملح تستطيع أن تصنع ثورة.

أما إذا نجحت...

فلن تكون الثورة ثورة الملح. بل ثورة الإنسان الذي اكتشف أن أبسط الأشياء، إذا ارتبطت بالحق، تصبح أقوى من المدافع.

وقبيل الفجر، فتحت دفثري الصغير للمرة الأخيرة قبل أن تبدأ المسيرة.

كتبت ببطء:

"إن الإمبراطوريات تعتقد أن قوتها تكمن في الجيوش. وأنا أؤمن أن قوة الشعوب تكمن في الضمير. واليوم... لن أرفع سيفًا. لن أحمل بندقية. سأحمل حفنةً من الملح. وسأرى أيهما أثقل في ميزان التاريخ."

أغلقت الدفتر. ووقفت أمام النافذة. كان الليل ينسحب بهدوء. وكان أول خيطٍ من الضوء يشق الأفق. شعرت أن الهند كلها تقف معي في تلك اللحظة، حتى وإن كانت لا تعلم بعد.

أما البحر...

فكان ينتظر.

ينتظر خطواتنا الأولى نحوه.

وينتظر أن يشهد كيف يمكن لحفنة صغيرة من الملح، خرجت من قلب الماء، أن تذيب هيبة إمبراطورية ظنت يوماً أن الشمس لا تغيب عنها.

مسيرة الكرامة

لا توجد فكرة عظيمة تولد في الشوارع. إنها تولد أولاً في عزلة طويلة، حيث لا يسمع الإنسان سوى صوت ضميره.

قبل أن أمشي نحو البحر، كنت قد قطعت آلاف الأميال داخل نفسي. وكانت المعركة الأولى، كما كانت دائماً، ليست مع بريطانيا... بل مع السؤال.

هل حان الوقت؟

ذلك السؤال ظل يرافقني ليالي طويلة.

كنت أعرف أن الهند تقف على حافة لحظةٍ لن تعود بعدها كما كانت. وكنت أعرف أيضاً أن الخطوة التالية قد تفتح باب الحرية... وقد تفتح أبواب السجون على مصاريعها. وفي مثل هذه اللحظات، لا يحق للقائد أن يستمع إلى حماسة الجماهير وحدها. بل عليه أن يستمع إلى ذلك الصوت الهادئ الذي لا يسمعه سواه.

صوت الضمير.

كانت البلاد تغلي. لم تعد الضرائب مجرد أرقام. ولا القوانين مجرد نصوص. لقد أصبح الاحتلال حاضراً في كل بيت.

في حفنة الملح.

وفي قطعة القماش.

وفي الأرض التي يزرعها الفلاح ولا يملك ثمرتها كاملة.

وكان الناس ينتظرون إشارة. لا لأنهم يجهلون الظلم. بل لأنهم كانوا يريدون أن يعرفوا كيف يقاومونه دون أن يصبحوا نسخةً أخرى من ظالمهم. وهنا أدركت أن مسؤوليتي لم تعد أن أوقف الغضب. فالغضب كان مستيقظاً منذ زمن. كانت مسؤوليتي أن أمنحه اتجاهًا. فالنهر، إذا لم يجد مجراه، تحول إلى فيضان.

جلست في إحدى الأمسيات، والهدوء يلف المكان. كان المغزل يدور

في زاوية الغرفة. وكان صوته الرتيب يشبه دقات ساعةٍ لا تقيس الزمن، بل تقيس الصبر.

وضعت أمامي ورقةً بيضاء. وظللت أهدق فيها طويلاً. كم تبدو الورقة خالية. لكنها، في بعض الأحيان، تحمل مستقبل أمة. كتبت في أعلاها كلمةً واحدة:

"المسيرة."

ثم توقفت.

لم تكن الكلمة هي التي تحتاج إلى التفكير. بل الطريق الذي سيمناها معناها.

بدأ رفاقي يتوافدون إلى المكان. وجوهٌ عرفتها في السجون. وفي القرى. وفي المؤتمرات. رجالٌ ونساءٌ صار اللاعنف جزءاً من أرواحهم. جلسوا حولي في دائرةٍ بسيطة. لا طاولة كبيرة. ولا مقاعد فاخرة. فالقرارات التي تصنع التاريخ لا تحتاج إلى الأثاث بقدر ما تحتاج إلى الصدق.

قال أحدهم:

"إلى أين سنسير؟"

وقال آخر:

"كم سيكون عدد المشاركين؟"

وسأل ثالث:

"ومتى تبدأ المواجهة؟"

أما أنا... فكنت أفكر في سؤالٍ آخر.

كيف نجعل كل خطوةٍ في الطريق رسالةً أخلاقية، لا مجرد حركةٍ سياسية؟

لم أكن أريد حشدًا ضخمًا منذ البداية. الجماهير قد تمنحك القوة. لكنها قد تمنحك الفوضى أيضًا. كنت أبحث عن رجالٍ يستطيعون أن يضبطوا قلوبهم قبل أن يضبطوا أقدامهم. رجالٍ إذا ضربوا... لم يردوا الضربة. وإذا أهينوا... لم تتحول الإهانة في صدورهم إلى رغبة في الانتقام.

قلت لهم:

"قد يرافقني آلاف الناس. لكنني سأبدأ بمن يستطيع أن يحمل الحقيقة قبل أن يحمل جسده."

كان العدد قليلًا. لكن الإيمان لا يُقاس بالأعداد. فالنار العظيمة تبدأ بشرارة. اخترت الرفاق واحدًا واحدًا. لم أسألهم عن قوتهم. ولا عن أعمارهم. ولا عن مكانتهم. كنت أسأل سؤالًا واحدًا:

"إذا سُجنت غدًا... هل ستبقى مبتسمًا؟"

كان بعضهم يجيب بسرعة.

أما الذين كنت أثق بهم أكثر... فكانوا يصمتون أولًا. لأنهم يعرفون أن السجن ليس كلمة. إنه امتحان. والابتسامة فيه ليست حركةً على الشفاه. بل قرارًا في القلب.

ثم بدأنا نتحدث عن الطريق. لم أكن أبحث عن أقصر طريقٍ إلى البحر. بل عن الطريق الذي يمر بأكبر عددٍ من القرى. كنت أريد للمسيرة أن تكون كتابًا مفتوحًا تقرأه الهند كلها. كل قريةٍ نزورها، تصبح صفحة. وكل لقاءٍ مع الناس، يصبح فقرة. وكل خطوة، تصبح جملةً تقول للإمبراطورية:

"لسنا مستعجلين... لكننا لن نتراجع."

كان الطريق طويلًا عمدًا. لأنني كنت أؤمن أن الأفكار تحتاج إلى الزمن كي تمشي من قلبٍ إلى قلب.

ورسمنا خط السير. من أشرم سابارماتي إلى ساحل داندي. مئات

الكيلومترات. وعشرات القرى. وأيامٌ طويلة من المشي.

نظر بعضهم إلى الخريطة وقال:

"أليس هذا مرهقاً؟"

ابتسمت. ثم وضعت إصبعي على الخط المرسوم. وقلت:

"لسنا ذاهبين إلى البحر فقط. نحن ذاهبون إلى ضمير الهند."

فالتريق الحقيقي لم يكن مرسومًا على الورق. كان مرسومًا في قلوب الناس الذين سنمر بهم.

لكنني كنت أعرف أن بريطانيا تراقبنا. كانت عيونها في كل مكان.

في التقارير.

وفي الصحف.

وفي رجال الشرطة.

وكان بعض أصدقائي يخشون أن تعتقلني الحكومة قبل أن تبدأ المسيرة.

قالوا:

"ربما ينتهي كل شيء قبل أن يبدأ."

فأجبتهم:

"إذا كان كل شيء يعتمد على رجلٍ واحد، فلا يستحق أن يبدأ."

كنت قد تعلمت أن الفكرة التي تموت باعتقال صاحبها... لم تكن فكرةً ناضجة. أما الفكرة الحقيقية... فتواصل السير حتى وإن بقي صاحبها خلف القضبان.

وقبل أيامٍ من الانطلاق، جلست أكتب رسالةً إلى نائب الملك البريطاني. استغرب كثيرون ذلك. قالوا:

"ولماذا تخبر خصمك بما ستفعل؟"

ابتسمت. لأنهم لم يفهموا بعد أنني لم أكن أحارب رجلاً. كنت أحارب الظلم.

كتبت إليه بصراحة. أخبرته بما أراه ظلمًا. وأخبرته بما أنوي فعله. ومنحته فرصةً لتجنب المواجهة. فإذا تجاهل الرسالة... فليكن العالم شاهداً على أننا لم نبدأ بالصدام. بل بدأنا بالكلمة. لقد كنت أو من أن الحقيقة لا تعمل في الظلام. ولذلك، لم يكن عندي ما أخفيه.

وفي الليلة الأخيرة، لم أنم إلا قليلاً. خرجت من غرفتي قبل الفجر. كان الأشرم ساكنًا. وأشجار النيم تقف في الظلام كأنها حراس صامتون.

جلست على الأرض. وأخذت حفنةً من التراب بين يدي. قلت في نفسي:

"غداً ستبدأ أقدامنا السير فوق هذا التراب. لكن هل ستسير أرواحنا بالثبات نفسه؟"

أغمضت عيني. ورأيت الطريق كله.

القرى.

الوجوه.

التهافت.

العصي.

السجون.

ورأيت البحر في النهاية، هادئًا كما لو أنه يعرف أننا قادمون إليه منذ زمن.

فتحت دفثري للمرة الأخيرة قبل الانطلاق. كتبت:

"غداً لن نمشي لنصل إلى الماء. سنمشي لنوقظ أمة. وقد يظن العالم أننا نسير من أجل حفنة ملح. لكنني أعلم أننا نسير من أجل شيء لا يرى. من أجل أن يتذكر الإنسان أن الكرامة، مثل البحر، لا يملكها ملك، ولا إمبراطور، ولا قانون. إنها هبة أقدم من كل الإمبراطوريات."

أغلقت الدفتر. ونهضت ببطء. كان الفجر قد بدأ يلون السماء. وسمعت أول العصافير تغني. شعرت أن الطبيعة كلها تستعد لرحلة لن تكون مجرد مسيرة على طريق ترابي. بل ستكون رحلة تمشي فيها أمة كاملة من الخوف... إلى الحرية. ولم أكن أعلم أن كل خطوة سأخطوها بعد شروق ذلك الصباح، لن تترك أثرها في تراب الهند وحده... بل في ضمير الإنسانية كلها.

في صباح الثاني عشر من آذار عام **1930**، لم يكن الفجر مختلفاً عن غيره. أشرقت الشمس بالهدوء نفسه. وغردت الطيور كما اعتادت كل صباح. وجرى نهر سابارماتي بصمته القديم. وكان العالم، في ظاهره، يبدو كما لو أن شيئاً لن يحدث.

لكن التاريخ لا يعلن عن نفسه بالضجيج. إنه يبدأ غالباً في صباح عادي، حين يقرر إنسان أن يخطو خطوة لا يستطيع الزمن بعدها أن يعود إلى الوراء.

في ذلك الصباح، خرجت من الأشم. لم أكن أحمل سلاحاً. ولا رايةً حربية. ولا أمراً عسكرياً. كل ما حملته كان عصاي الخشبية، وثوبي الأبيض، وإيماناً عميقاً بأن الحقيقة، مهما بدت ضعيفة، تستطيع أن تجعل إمبراطوريةً بأكملها ترتجف.

كان معي ثمانية وسبعون رجلاً. لم يكونوا جنوداً. ولم يكونوا أصحاب مناصب. كان بينهم المزارع، والنساج، والمعلم، والطبيب،

والعامل. وكان يجمعهم شيء واحد. أنهم قبل أن يخرجوا في هذه الرحلة، كانوا قد تصالحووا مع احتمال ألا يعودوا أحرارًا مرة أخرى. تأملت وجوههم واحدًا واحدًا. لم أرَ فيها الحماسة التي تسبق المعارك. بل رأيت سكينه تشبه سكينه الرهبان. وكان ذلك يطمئنني. فالثورات التي تبدأ بالغضب، كثيرًا ما تنتهي بالندم. أما التي تبدأ باليقين... فإنها تعرف طريقها.

وقفت أمام بوابة الأشرم. استدرت نحو من بقي فيه. قلت بهدوء:
"قد لا أعود إلى هنا."

ساد الصمت. لم يبك أحد. ولم يهتف أحد. كان الجميع يدرك أن بعض الجمل، إذا خرجت من القلب، تصبح أكبر من أن يعلق عليها أحد. ثم أدت ظهري للمكان الذي عشت فيه سنواتٍ طويلة. ومشيت. كانت الخطوة الأولى قصيرة. لكنني شعرت أنها أطول خطوة في حياتي.

في البداية، كان الطريق هادئًا. حقول القطن تمتد على الجانبين. وأشجار المانجو ترسم ظللاً خفيفة فوق التراب. وكان الفلاحون يرفعون رؤوسهم من بين السنابل، يتابعون الموكب بصمت. بعضهم لم يكن يعرف تفاصيل ما نقوم به. لكنه كان يشعر أن شيئاً مختلفاً يتحرك أمامه. فالحقائق العظيمة تُفهم أحيانًا بالإحساس قبل أن تُفهم بالكلمات.

كلما دخلنا قرية، كان الناس يخرجون لاستقبالنا. لم تكن هناك دعوات رسمية. ولا تنظيمات معقدة. كان الخبر ينتقل كما تنتقل النار في الحقول اليابسة.

"غاندي يمر من هنا."

فتخرج النساء يحملن الماء. ويجري الأطفال حفاة خلفنا. ويصطف الشيوخ على جانبي الطريق، يرفعون أيديهم بالدعاء. وكنت أتوقف

عند كل قرية. لا لألقي خطابًا سياسيًا. بل لأحدثهم عن شيء أبسط.
عن الكرامة. وعن الخوف. وعن الإنسان الذي لا يستطيع أن يكون
حرًا، إذا ظل ينتظر أن يمنحه غيره الحرية.

كنت أمشي ساعاتٍ طويلة كل يوم. وكان جسدي قد تجاوز الستين
من العمر. لكنني كنت أشعر أن كل خطوة تمنحني عمرًا جديدًا.
وحيث كان التعب يشتد، كنت أنظر إلى الرجال الذين يسرون خلفي.
فأجد في صمتهم قوة أكبر من كل الكلمات.

لقد كنا نمشي بإيقاع واحد. لا أحد يسبق الآخر. ولا أحد يحاول أن
يبدو بطلًا. فالرحلة لم تكن لتصنع بطلًا. بل كانت تصنع شعبًا.

وفي المساء، حين نتوقف للراحة، كانت القرى تتحول إلى مدارس
مفتوحة. يجلس الناس في دوائر واسعة. وأجلس بينهم كما يجلس
واحدٌ منهم.

لا منصة.

ولا حراس.

ولا مسافات.

كنت أقول لهم:

"لا تمشوا خلفي لأنني غاندي. امشوا مع الحقيقة، حتى لو سبقتني
يومًا."

ثم أحدثهم عن اللاعنف. وأجيب عن أسئلتهم. وكان أكثر ما يدهشني
أن الفلاح البسيط، الذي لم يدخل مدرسة قط، كان يفهم معنى الحرية
أسرع من كثيرٍ من السياسيين. لأن الجوع معلمٌ قاسٍ. لكنه صادق.

وفي كل ليلة، كانت الصحف تنقل أخبار المسيرة. وكل صباح، ينضم
إلينا أناسٌ جدد. كان بعضهم يصر على السير معنا. لكنني كنت أعتذر
بلطف. لقد اخترت العدد الأول بعناية. ولم أرد أن تتحول المسيرة
إلى فوضى.

فقلت لهم:

"إذا لم تستطيعوا المشي معنا، فامشوا في قراكم. كونوا أنتم بداية المسيرة هناك."

وفهم الناس الرسالة. فتحولت الهند كلها إلى طريقٍ واحد، وإن اختلفت الطرق.

أما الحكومة البريطانية، فكانت تراقب. رجال الشرطة يقفون بعيدًا. يدونون الملاحظات. ويرسلون التقارير. وكانوا ينتظرون. ينتظرون لحظة غضب. أو حجرًا يُرمى. أو كلمةً تحرض على العنف. لكنهم لم يجدوا شيئًا. لقد كنا نمشي في صمتٍ يربكهم. فالإمبراطوريات تعرف كيف تواجه الجيوش. أما الضمير... فليس له خطة عسكرية. وذات ظهيرة، اقترب منا صحفي أجنبي. سألني:

"هل تعتقد حقًا أن المشي سيغير العالم؟"

ابتسمت. ثم انحنيت قليلًا. وأشرت إلى قدمي المغربيتين. وقلت:

"كل طريقٍ في التاريخ بدأ بخطوة. لكن الفرق أن بعض الخطوات لا تغيّر مكان صاحبها فقط... بل تغيّر اتجاه الإنسانية."

كتب الصحفي ملاحظاته. أما أنا، فقد واصلت السير.

وكانت حرارة الشمس تزداد يومًا بعد يوم. وتتشقق الأرض تحت أقدامنا. وكان العرق يبيلل الثياب البيضاء. لكن أحدًا لم يشك. لأننا لم نكن نسير ضد الطبيعة. كنا نسير ضد الاستسلام. وهناك فرقٌ كبير. فالطريق المتعب ينتهي. أما الاستسلام... فقد يمتد عمرًا كاملًا.

وبعد أيام، لم تعد المسيرة تخصصنا وحدنا. لقد أصبحت الهند كلها تمشي. رأيت رجالًا يقلدوننا في ولاياتٍ لم نزرها. ونساءً ينظمن مسيراتٍ صغيرة في مدنٍ بعيدة. وأطفالًا يرسمون البحر على ألواحهم المدرسية. لم يعد البحر مجرد مكان. لقد صار وعدًا. وصار كل من يسير نحوه، يشعر أنه يسير نحو نفسه.

وفي إحدى الليالي، جلسنا على أطراف قرية صغيرة. كانت السماء مليئة بالنجوم. وكان الصمت يلف المكان. سألني أحد الرفاق:

"هل تظن أننا سنصل؟"

نظرت إلى الطريق الممتد أمامنا. ثم نظرت إلى السماء. وقلت:
"لسنا نسير لأننا نضمن الوصول. نحن نسير لأن التوقف لم يعد خيارًا."

ثم أضفت بعد صمتٍ طويل:

"إن الإنسان لا يُقاس بالمسافة التي يقطعها بقدميه... بل بالمسافة التي يقطعها بين الخوف والشجاعة."

وفي نهاية ذلك اليوم، فتحت دفثري الصغير تحت ضوء مصباح زيتي. كانت قدماي تؤلماني. لكن روعي كانت خفيفة. كتبت:

"كل خطوة نخطوها فوق هذا التراب، تمحو خطوةً من الخوف في قلب الهند. وقد يظن البريطانيون أننا نسير إلى البحر. لكن الحقيقة... أننا نسير إلى شيءٍ أبعد من البحر. نسير إلى اللحظة التي يكتشف فيها شعبٌ كامل أن الحرية لا تبدأ عندما يصل إلى الشاطئ... بل عندما يقرر ألا يعود إلى الوراء."

أغلقت الدفتر. ورفعت رأسي. كان هدير البحر ما يزال بعيدًا. لكنني كنت أشعر أن أمواجه قد بدأت بالفعل... تتحرك في قلوب ملايين الهنود.

بعد أربعة وعشرين يومًا من السير، لم تعد أقدامنا تحمل غبار الطريق وحده. كانت تحمل ذاكرة القرى التي عبرناها. ووجوه الأطفال الذين ركضوا خلفنا. ودموع الأمهات اللواتي ودعن أبناءهن وهم ينضمون إلى المسيرة. وكانت تحمل أيضًا سؤالًا ظل يرافق

الهند كلها:

ماذا سيحدث عندما نصل إلى البحر؟

كان العالم كله ينتظر. ولم يكن أحدٌ ينتظر معركة. فلا مدافع في الأفق. ولا خيول. ولا راياتٍ عسكرية. كان الجميع ينتظر رجلاً عجوزاً، يحمل عصاً خشبية، يسير نحو الماء. وفي ذلك المشهد وحده، كانت مفارقةً لم يعرفها التاريخ كثيراً: إمبراطوريةٌ تحشد قواينها وجيشها وشرطتها... في مواجهة رجلٍ ينحني ليلتقط حفنةً من الملح.

وصلنا إلى قرية داندي مع انبلاج الفجر. كان البحر هادئاً على غير عادته. تتقدم أمواجه ثم تعود، كما لو أنها تتنفس ببطء. وقفت أمامه طويلاً. لم أره بحرًا فقط. رأيتُه شاهداً قديماً على حضاراتٍ جاءت ورحلت. على ملوكٍ ظنوا أن سلطانهم أبدي. ثم ذابوا في ذاكرة الزمن، كما يذوب الملح في الماء. أما البحر... فبقي. وفي تلك اللحظة، شعرت أن الطبيعة أكثر حكمةً من السياسة. فالسياسة تعرف الامتلاك. أما البحر... فلا يعرف إلا العطاء.

كان آلاف الناس يقفون خلفي. لا يكاد يُسمع بينهم صوت. لم يكن الصمت خوفاً. بل رهبة. فالإنسان يدرك أحياناً أنه يقف على حافة لحظةٍ لن تتكرر.

التفت إليهم.

رأيت وجوهاً أنهكها السفر. لكن عيونها كانت تلمع كما لو أنها وصلت إلى وطنٍ جديد. ابتسمت لهم. ثم استدرت نحو البحر. خلعت نعلي. وسرت ببطء فوق الرمال الرطبة. كان كل شيء ساكناً. حتى الهواء بدا وكأنه توقف عن الحركة. ثم انحنيت. مددت يدي نحو الأرض. وأخذت بين أصابعي حفنةً صغيرة من الملح الذي تركه البحر بعد انحسار مياهه. رفعتها ببطء. لم تكن تزن أكثر من بضعة غرامات. لكنني شعرت أنها أثقل من جبال الهند كلها. رفعتها أمام

الناس. ثم قلت بهدوء:

"بهذه الحفنة الصغيرة... أكرس قانونًا ظالمًا."

لم تكن الجملة صاخبة. لكن صداها تجاوز البحر. وتجاوز الهند. وتجاوز ذلك العصر كله.

كم بدا المشهد بسيطًا. رجلٌ يلتقط الملح من الأرض. ولو رآه طفلٌ لا يعرف شيئًا عن السياسة، لما وجد فيه ما يثير الدهشة. لكن العبقرية، كما أدركت مرارًا، ليست في تعقيد الفكرة. بل في قدرتها على تحويل أكثر الأشياء بساطةً إلى أكثرها تأثيرًا.

لقد كان البريطانيون يملكون البنادق. أما نحن... فكنا نملك المعنى. والمعاني، إذا استقرت في قلوب الناس، تصبح أقوى من الجيوش.

بعدها، جلسنا على الشاطئ. وأخذنا نغلي ماء البحر في أوانٍ بسيطة. كان البخار يرتفع ببطء. ثم يبدأ الماء بالتبخر. ويبقى الملح. راقبت البلورات البيضاء وهي تتشكل شيئًا فشيئًا. وفكرت أن الحرية تشبهها. لا تظهر دفعةً واحدة. إنها تحتاج إلى صبر. وإلى حرارةٍ طويلة. وإلى إيمانٍ لا يمل الانتظار. ثم، في لحظةٍ لا ينتبه إليها أحد، تتجسد أمامك. لم يكن الملح الذي صنعناه كثيرًا. لكنه كان، في نظرنا، أثمن من الذهب. لأنه لم يكن مجرد مادة. لقد أصبح إعلانًا بأن الإنسان يستطيع أن يستعيد حقه بيديه.

اقتربت امرأةٌ عجوز. طلبت قليلًا من ذلك الملح. وضعت منه ذرةً على لسانها. ثم بكت. لم أفهم في البداية. فسألتها:

"لماذا تبكين؟"

قالت:

"لأنني لأول مرة أشعر أن هذا الملح ليس ملكًا للإمبراطورية... بل ملكٌ لله، وللفقراء، ولأطفالي."

حينها أدركت أن الثورة الحقيقية لا تحدث في القوانين. بل في شعور

الإنسان بأنه استعاد كرامته.

ولم تمضِ ساعات حتى بدأت الأخبار تنتشر في أنحاء الهند. لم يعد الأمر يخص داندي. في القرى الساحلية الأخرى، خرج الناس إلى البحر. وفي أماكن بعيدة، بدأوا يصنعون الملح بالطريقة نفسها. حتى الذين لم يكن البحر قريباً منهم، أعلنوا العصيان بوسائل أخرى.



كان المشهد مدهشاً. كأن حفنة واحدة من الملح قد تكاثرت حتى غطت وطناً كاملاً.

وهكذا، لم تعد المسيرة طريقاً. بل أصبحت عدوى. عدوى الحرية.

أما الحكومة البريطانية، فقد بدت حائرة. كيف تواجه هذا؟

هل تعتقل رجلاً لأنه حمل الملح؟

هل تزج بالنساء في السجون لأنهن غلبن ماء البحر؟

هل تمنع الأمواج من الوصول إلى الشاطئ؟

لقد كانت الإمبراطورية تعرف كيف تقمع التمرد المسلح. أما هذا

التحدي... فقد أربك منطقتها كله. لقد وضعناها أمام سؤالٍ لم تستطع الإجابة عنه. كيف تهزم فكرةً لا تحمل سلاحًا؟

وفي المساء، جلست وحدي على الشاطئ. كانت الشمس تغرق ببطء في البحر. وكانت الأمواج تمحو آثار أقدامنا على الرمال.

راقبتها طويلًا. ثم خطر لي أن التاريخ يشبه البحر. يمحو آثار الخطوات... لكنه لا يمحو أثر الفكرة التي دفعت صاحبها إلى المشي. فالناس قد ينسون عدد الكيلومترات التي قطعناها. لكنهم لن ينسوا اليوم الذي أصبح فيه الملح لغةً تتحدث بها أمةٌ كاملة.

ثم رفعت بصري إلى الأفق. كان البحر والسماء يلتقيان في خطٍ واحد. ولا أحد يستطيع أن يحدد أين ينتهي أحدهما ويبدأ الآخر. عندها فهمت أن الحرية تشبه الأفق. كلما اقترب الإنسان منها، اكتشف أنها ليست نقطة وصول. بل بداية رحلة جديدة.

لقد كسرنا قانون الملح. لكننا لم نكسر بعد قيود الاحتلال. ومع ذلك... كنت أشعر أن الإمبراطورية قد بدأت تتصدع من الداخل. ليس لأننا حرمانها من حفنة ملح. بل لأننا حرمانها من شيءٍ أخطر. حرمانها من خوف الناس.

وفي تلك الليلة، فتحت دفثري للمرة الأولى منذ أن وصلنا إلى داندي. كانت أصابعي ما تزال تحمل آثار الملح. تأملتها. ثم كتبت:

"اليوم لم أصنع الملح. بل صنعت برهانًا. برهانًا على أن أعظم الثورات قد تبدأ بحركةٍ يراها العالم تافهة. وبرهانًا على أن الإنسان، حين يمد يده إلى حق خلقه الله حرًا، يصبح أقوى من كل قانونٍ كُتب ليمنعه. إن الإمبراطوريات لا تسقط دائمًا تحت وقع المدافع. أحيانًا... تبدأ نهايتها عندما ينحني رجلٌ عجوز على شاطئ البحر، ويرفع بين أصابعه حفنةً صغيرة من الملح."

أغلقت الدفثري. وأغمضت عيني.

وكان هدير البحر، تلك الليلة، لا يشبه هدير الماء. كان يشبه صوت التاريخ... وهو يطوي صفحةً، ويستعد لكتابة أخرى.

لم يكن أكثر ما يقلقني بعد صناعة الملح هو رد فعل بريطانيا. كنت أعرف، منذ اللحظة التي رفعت فيها حفنة الملح بين أصابعي، أن السجن أصبح أقرب إليّ من بيتي. فالإمبراطوريات قد تتسامح مع الكلمات. وقد تتجاهل المقالات. لكنها لا تتسامح مع اللحظة التي يكتشف فيها الناس أن الخوف ليس قانوناً من قوانين الطبيعة.

كنت أعلم أن الاعتقالات قادمة. لكنني لم أكن أراها هزيمة. بل كنت أراها المرحلة التالية من الحوار بين الضمير والسلطة. فالسلطة، حين تعجز عن إقناع خصمها، تلجأ إلى القضبان.

ما إن انتشر خبر صناعة الملح حتى تحولت الهند كلها إلى ورشة عصيان. لم يعد البحر وحده يصنع الملح. أصبح الشعب كله يصنع المقاومة. في السواحل الغربية، خرج الصيادون مع الفجر يجمعون الملح كما لو أنهم يستعيدون ميراثاً قديماً سُرق منهم. وفي الجنوب، كانت النساء يغلّين ماء البحر في أوانٍ فخارية أمام بيوتهن. وفي البنغال، وفي مدراس، وفي بومباي، وفي القرى الصغيرة التي لم يكن أحد في لندن يعرف أسماءها، كان الناس يكررون الفعل نفسه. لقد لمست حفنة الملح شيئاً في أعماقهم. شيئاً كان نائماً منذ سنوات. شيئاً اسمه الكرامة.

وجدت الحكومة البريطانية نفسها أمام مشهدٍ لم تستعد له. كان بإمكانها أن تعتقل قائداً. لكنها لم تستطع أن تعتقل شعباً كاملاً. وكان بإمكانها أن تصادر أواني الملح. لكنها لم تستطع أن تصادر البحر.

وهكذا، بدأت آلة الإمبراطورية تعمل بالطريقة الوحيدة التي تعرفها. الاعتقالات. في كل صباح، كانت قوائم جديدة تصدر.

رجال.

ونساء.

وطلاب.

وعمال.

وصحفيون.

بل وحتى شيوخ تجاوزوا السبعين من العمر.

لم يعد السجن مكانًا للمجرمين. لقد أصبح مدرسةً للوطنية. كان بعض الضباط البريطانيين يشعرون بالحيرة. لقد اعتادوا أن يروا المتهمين يحاولون الهرب. أما هؤلاء، فكانوا يتقدمون نحوهم بهدوء. يقدمون أيديهم لتقيدهم. ثم بيتسمون.

أي منطقٍ هذا؟

لقد كانت الإمبراطورية تعرف كيف تكسر الأجساد. لكنها لم تعرف كيف تكسر إنسانًا قرر، بإرادته، أن يقبل السجن في سبيل الحقيقة. وكان ذلك يربكها أكثر من أي مقاومة مسلحة.

كنت أتابع أخبار المعتقلين كل يوم. كان بعضهم يرسل إليّ رسائل من داخل الزنازين. لم تكن رسائل شكوى. بل رسائل طمأنينة. كتب لي أحد الشباب:

"لا تقلق علينا. لقد أخذوا حريتنا... لكنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا سببها."

ظللت أعيد قراءة تلك الجملة مراتٍ كثيرة. ثم قلت في نفسي:

لقد نجحت الفكرة. حين يصبح السجين هو من يواسي القائد... فاعلم أن القضية أصبحت أكبر من أصحابها.

لكن الاحتلال لم يكتفِ بالاعتقال. كانت الهراوات تنهال على المتظاهرين. وكانت الصفوف الأولى تسقط أرضًا. ثم يتقدم الذين

خلفها. فيسقطون بدورهم. ثم يتقدم غيرهم. وكان الألم نفسه قد فقد قدرته على إيقافهم.

وفي إحدى المظاهرات، وقف رجال الشرطة في صفوفٍ مترابطة، يضربون الناس بلا رحمة. أما المتظاهرون... فلم يرفعوا أيديهم. كانوا يسقطون. ثم يحملهم رفاقهم بعيدًا. ويأتي آخرون ليقفوا في أماكنهم. ذلك المشهد، في نظري، كان أعظم من أي انتصارٍ عسكري. لأن الإنسان الذي يستطيع أن يحتل الألم دون أن يحقد... قد هزم خصمه قبل أن يهزمه في الواقع.

وكنت أقول دائمًا لمن حولي:

"إياكم أن تكرر هوا الجنود الذين يعتقلونكم."

فينظر إليّ بعضهم في دهشة. كيف لا يكرهون من يسلبهم حريتهم؟ فأجيب:

"لأن الكراهية هي السجن الحقيقي. أما الزنزانة... فقد تكون أحيانًا الطريق إلى الحرية."

لقد كنت أفرق بين الظالم والظلم. فالإنسان قد يتغير. أما الكراهية، إذا استقرت في القلب، فإنها تمنع صاحبه من رؤية الحقيقة.

ومع مرور الأيام، بدأت الحكومة تشدد قبضتها. كانت الصحف تُصادر. والاجتماعات تُمنع. والخطب تُراقب. لكن شيئًا واحدًا لم تستطع أن تمنعه. الهمس.

ذلك الهمس الذي ينتقل من بيتٍ إلى بيت. ومن أمٍ إلى ابنتها. ومن فلاحٍ إلى جاره.

لقد اكتشفت أن الأفكار، إذا خرجت من الكتب وسكنت القلوب، لا تعود بحاجة إلى الورق.

فالورق يمكن مصادرتة.

أما الذاكرة...

فلا.

ثم جاء اليوم الذي كنت أنتظره. قبل الفجر بقليل، سمعت طرفًا هادئًا على الباب. لم أحتج إلى أن أسأل من الطارق. كنت أعرف. ارتديت ثوبي الأبيض. وغسلت وجهي. وجلست لحظاتٍ في صمت. ثم خرجت.

وقف الضابط البريطاني أمامي. كان يحاول أن يبدو صارمًا. لكنني رأيت في عينيه شيئًا يشبه التردد.

قال باحترام:

"باسم حكومة جلالة الملك... أنت معتقل."

ابتسمت. وقلت:

"كنت أنتظرك."

نظر إليّ متعجبًا. أما أنا، فقد شعرت براحةٍ غريبة. فالإنسان، حين يحدث ما كان يتوقعه، يفقد الخوف منه.

ركبت السيارة التي ستأخذني إلى السجن. وكان الطريق الذي سرتة قبل أيام مع آلاف الناس، يبدو مختلفًا الآن. هذه المرة، لم تكن الجماهير حولي. لكنني لم أشعر بالوحدة. كنت أعرف أن المسيرة لم تعد تمشي على قدمي. لقد أصبحت تمشي في قلوب الملايين. ولو بقيت خلف القضبان سنواتٍ طويلة، فلن تستطيع تلك القضبان أن تمنع الفكرة من السفر.

وفي الطريق، مررنا بقرية صغيرة. رأينا امرأة عجوز. فعرفت السيارة. ورفعت يدها بالدعاء. ثم ركض خلفها أطفالٌ صغار. لم يكن في أيديهم شيء. لكنهم كانوا يلوحون لي بأغصان الزيتون وأغصان

النيم.

ابتسمت لهم. وفكرت أن المحتل يستطيع أن يأخذ الجسد. لكنه لا يستطيع أن يعتقل المحبة.

في زنرانتى الأولى، كان المكان ضيقًا. جدران حجرية. نافذة صغيرة يدخل منها خيط رفيع من الضوء. جلست على الأرض. وأخذت أتأمل ذلك الخيط. كم يبدو ضعيفًا. ومع ذلك، استطاع أن يشق الجدار كله. عندها خطرت لي فكرة. الحقيقة تشبه الضوء. لا تحتاج إلى قوة كي تدخل. يكفي أن تجد شقًا صغيرًا. ثم تتكفل هي بالباقي.

فتحت دفترى الذي سمحوا لي بالاحتفاظ به.

وكان آخر ما كتبته قبل أن يطفأ المصباح:

"اليوم دخلت السجن. لكنني لا أشعر أنني فقدت حريتي. فالحرية ليست بابًا مفتوحًا. ولا طريقًا بلا حراس. الحرية هي أن يبقى ضمير الإنسان طليقًا، حتى وهو خلف الجدران. وقد يظن البريطانيون أنهم اعتقلوا غاندى. لكن الحقيقة... أنهم اعتقلوا جسد رجل. أما الفكرة التي خرجت من داندى، فقد أصبحت الآن تمشي وحدها. وحين تمشي الأفكار بأقدام الشعوب... لا تعود كل سجون الأرض كافية لإيقافها."

أغلقت الدفتر. وأغمضت عيني. خارج الزنزانة، كان الليل هادئًا. أما الهند فقد بدأت، للمرة الأولى منذ قرون، تتعلم كيف تجعل من كل سجين منارة، ومن كل قيد خطوة جديدة نحو الحرية.

حين أغلقت خلفي أبواب السجن، ظن كثيرون أن المسيرة قد انتهت. فالناس اعتادوا أن يربطوا الحركات العظيمة بأسماء قادتها. وإذا غاب القائد، ظنوا أن القضية قد ماتت. لكنهم نسوا أن الأفكار تشبه

البذور. أخطر لحظاتها ليست حين تُرى فوق الأرض... بل حين تختفي تحتها. هناك تبدأ حياتها الحقيقية.

وهكذا كان الأمر مع مسيرة الملح. لقد اعتقلوا الرجل... لكنهم أطلقوا الفكرة.

في الأيام الأولى داخل السجن، لم تكن تصلني الأخبار إلا متقطعة. رسالةٌ سمحوا بمرورها. أو صحيفةٌ تأخرت أيامًا قبل أن تصل. لكن كل خبرٍ كان يخبرني بالشيء نفسه. الهند لم تتوقف. بل أصبحت أكثر حركة. في المدن الكبرى، خرجت مسيرات جديدة. وفي القرى البعيدة، استمر الناس في صنع الملح. وفي الأسواق، أخذ التجار يقاطعون البضائع البريطانية. أما السجنون... فكانت تمتلئ كل يوم أكثر. حتى بدا أن الإمبراطورية، وهي تحاول إخماد النار، كانت تزيدها اشتعالًا.

ثم بدأت الأخبار تأتي من خارج الهند. وللمرة الأولى، شعرت أن البحر الذي مشينا إليه لم يكن ينتهي عند شواطئ داندي. بل كان يصل إلى العالم كله.

نشرت الصحف البريطانية تفاصيل المسيرة. وبدأت صحف أوروبا وأمريكا تكتب عن "الرجل الذي تحدى الإمبراطورية بحفنة ملح." كان بعض الصحفيين يسخر في البداية. كيف يمكن لحدثٍ يبدو بهذه البساطة أن يحتل الصفحات الأولى؟ لكنهم، كلما تعمقوا في القصة، أدركوا أن المسألة لم تكن الملح. بل الإنسان. كان العالم يرى للمرة الأولى شعبًا كاملًا يقاوم واحدةً من أعظم القوى الاستعمارية، دون أن يحمل السلاح. وهذا ما جعل الحكاية أكبر من الهند نفسها.

بدأ المراسلون الأجانب يتوافدون إلى البلاد. كانوا يبحثون عن أماكن المسيرة. ويقابلون الفلاحين. ويتحدثون مع النساء اللواتي غلين ماء البحر.

لم يكونوا يجدون جيشًا.

ولا معسكرات تدريب.

ولا مخازن ذخيرة.

بل يجدون مغازل.

وأواني فخارية.

وأناسًا عاديين يؤمنون بأن الحق لا يحتاج إلى بندقية كي يدافع عن نفسه.

وقد بدا ذلك غريبًا على عالمٍ كان يقيس قوة الأمم بعدد مدافعها. وكنت أبتسم كلما قرأت أن بعض الصحف الغربية بدأت تطرح سؤالاً جديداً:

"هل تستطيع إمبراطورية أن تنتصر على شعبٍ يرفض أن يكرهها؟" كان هذا السؤال، في رأيي، أهم من كل المقالات. لأنه نقل النقاش من السياسة إلى الأخلاق.

لقد كانت بريطانيا تملك قوة القانون. لكنها بدأت تخسر قوة الضمير. والإمبراطوريات تستطيع أن تعيش زمنًا طويلًا بالقوة. أما إذا خسرت ضمير العالم... فإن سقوطها يبدأ، وإن تأخر.

ولم يقتصر الأمر على الصحافة. بدأ مفكرون، وكتاب، ورجال دين، وأساتذة جامعات، يناقشون ما يجري في الهند. كان بعضهم يؤيدنا. وبعضهم يشكك في جدوى اللاعنف. لكن الجميع، تقريبًا، اتفقوا على أن شيئًا جديدًا قد وُلد. طريقةً مختلفة في مقاومة الظلم. طريقةً لا تجعل الإنسان يشبه خصمه. وكان ذلك، بالنسبة إليّ، أعظم من أي انتصار سياسي. لأن الأفكار التي تعبر الحدود... تعيش أطول من الدول.

وكنت أتأمل هذه المفارقة.

قبل سنوات، حين سافرت إلى لندن طالبًا شابًا، كنت أتعلم قوانين

الإمبراطورية.

أما الآن...

فالإمبراطورية نفسها أصبحت موضوعًا للنقاش أمام العالم. ولم يكن الذي غير هذا كله سيفًا. ولا معركةً عسكرية. بل رجلًا انحنى على شاطئ البحر، ورفع حفنةً من الملح. عندها أيقنت أن التاريخ لا يغيره حجم الفعل. بل صدقه.

ومن داخل زنزانتي، كنت أشعر أن العالم أصبح أصغر. لم تعد الهند جزيرةً بعيدة. لقد أصبحت قصةً يتداولها الناس بلغاتٍ مختلفة. وكان أكثر ما أسعدني أن الأطفال في بلدانٍ لم أزرها قط، بدأوا يسمعون عن اللاعنف. وربما، دون أن يعلموا، كانوا يزرعون في قلوبهم بذرةً ستنتب بعد سنوات. فالفكرة التي تسافر مع الأطفال... لا تموت.

لكنني كنت أحذر نفسي من شيءٍ آخر. من الإعجاب. فالعالم يحب أن يصنع الأبطال. ثم يحب، بعد ذلك، أن يهدمهم. ولهذا كنت أقول لمن يزورني:

"لا تجعلوا العالم يتحدث عن غاندي. اجعلوه يتحدث عن الحقيقة." فالشهرة، إذا سبقت الرسالة، أفسدتها. أما إذا بقيت الرسالة أكبر من صاحبها... فإنها تستطيع أن تعيش بعد رحيله.

و ذات يوم، وصلتني صحيفةٌ تحمل صورتي على صفحتها الأولى. نظرت إليها طويلاً. ثم أغلقتها. لم أشعر بالفخر. بل بالخوف. لأنني تذكرت تلك المرأة العجوز التي قالت لي يوماً:

"أنت تشبهنا."

وأردت أن أبقى كذلك. رجلاً يشبه الناس. لا تمثالاً يضعونه في الميادين. فالتماثيل لا تمشي. أما الشعوب... فتحتاج إلى من يمشي معها.

فتحت دفترتي، وكتبت:

"اليوم لم تعد مسيرة الملح ملكًا للهند وحدها. لقد أصبحت سؤالًا يطرحه العالم على نفسه. هل يستطيع الإنسان أن ينتصر دون أن يقتل؟ وهل يمكن للضمير أن يهزم القوة؟ إذا نجحت الهند في الإجابة عن هذين السؤالين... فلن تكون قد حررت وطنها فقط. بل ستكون قد أهدت الإنسانية طريقًا جديدًا إلى الحرية."

أغلقت الدفتر. وأغمضت عيني. كانت الجدران ما تزال تحيط بي. لكنني شعرت أن الفكرة التي خرجت من شاطئ داندي قد أصبحت أوسع من البحر نفسه. لقد بدأت تعبر المحيطات، وتدخل العقول، وتوقظ الضمائر. وحين تصل الفكرة إلى ضمير العالم... لا تعود أي إمبراطورية، مهما بلغت قوتها، قادرة على إيقاف رحلتها.

كل حرب، مهما طالت، تنتهي يومًا إلى طاولة. لكن الفرق بين الحروب المسلحة والحروب الأخلاقية، أن الأولى تصل إلى الطاولة بعد أن تُنهكها الدماء. أما الثانية... فتصل إليها بعد أن تُنهك الضمير. لم تكن بريطانيا قد خسرت جيوشها في الهند. ولم تكن قد فقدت مستعمراتها بعد. لكنها بدأت تخسر شيئًا لم تستطع مصانعها ولا أساطيلها أن تصنعه. بدأت تخسر يقينها بأنها تستطيع أن تحكم شعبًا قرر ألا يخاف.

بعد أشهرٍ من الاعتقالات والعصيان المدني، لم يعد المشهد كما كان. السجون امتلأت. والمحاكم لم تعد تكفي لأعداد المعتقلين. والإدارة البريطانية أخذت تدرك أن كل هندي يُعتقل، يخرج من السجن أكثر إيمانًا بقضيته مما كان قبل دخوله. وكان ذلك أخطر ما يمكن أن يحدث لأي سلطة. فالسلطة تستطيع أن تعاقب الإنسان. لكنها إذا جعلته أكثر اقتناعًا بما يؤمن به... فقد عاقبت نفسها.

في تلك الأيام، بدأت تصل إشارات من الحكومة البريطانية. إشارات حذرة. لا تعترف بالهزيمة. ولا تعلن النصر. بل تبحث عن مخرج يحفظ ماء الوجه. كان بعض رفاقي يفرحون. أما أنا... فلم أتعجل الفرح. لقد تعلمت أن السياسة تشبه البحر. سطحه هادئ. لكن أعماقه تخفي تيارات لا يراها أحد. ولذلك كنت أقرأ ما بين السطور أكثر مما أقرأ السطور نفسها.

ثم جاء الخبر.

سيفرج عني.

وسيفتح باب الحوار.

خرجت من السجن كما دخلته. بالثوب الأبيض نفسه. وبالعصا الخشبية نفسها. لكن الهند التي خرجت إليها لم تكن الهند التي تركتها. كانت أكثر ثقة بنفسها. وأكثر استعدادًا لتحمل ثمن الحرية. وكان ذلك أعظم ما خرجت به من السجن.

وقبل أن أذهب إلى المفاوضات، جلست طويلاً مع نفسي. سألتها سؤالاً بسيطاً:

"ما الذي أريده حقاً؟"

ليس ما الذي يريده المؤتمر.

ولا ما الذي ينتظره الشعب.

ولا ما الذي تخشاه بريطانيا.

بل ما الذي تمليه الحقيقة.

وكان الجواب واضحاً. لم أذهب لأنتصر على أحد. ذهبت لأنتصر للعدالة. وهناك فرقٌ عظيم بين الأمرين. فالذي يريد أن يهزم خصمه، قد يقبل أن يظلمه. أما الذي يريد أن ينتصر للحق... فإنه يرفض الظلم، حتى لو كان في صالحه.

انعقدت اللقاءات وسط اهتمامٍ غير مسبوق. الصحفيون ينتظرون خارج القاعات. والناس يتابعون كل خبر. وكان كثيرون يتصورون أن المفاوضات معركة كلام. لكنني كنت أراها امتحانًا للأخلاق.

دخلت القاعة. ورأيت الوجوه البريطانية التي طالما واجهتها في المحاكم والسجون. لم أشعر بكراهية. ولا برغبةٍ في الانتقام. بل رأيت أمامي بشرًا، لكلٍ منهم قناعاته، وأخطاؤه، وحدوده.

ولذلك صافحتهم بهدوء. لا لأنني نسيت ما فعلوه بشعبي. بل لأنني رفضت أن أجعل الماضي يمنعني من البحث عن مستقبلٍ أفضل.

قال أحد المسؤولين البريطانيين:

"السيد غاندي... لقد سببت حركتكم اضطرابًا كبيرًا."

ابتسمت. ثم قلت:

"الظلم هو الذي سبب الاضطراب. أما نحن... فقد كشفناه فقط."

ساد الصمت. ولم يكن في القاعة من يجهل الحقيقة. لكن الاعتراف بها كان أصعب من معرفتها.

كانت المفاوضات طويلة. تبدأ صباحًا. ولا تنتهي إلا بعد غروب الشمس.

كانوا يتحدثون عن الضرائب.

وعن القوانين.

وعن الأمن.

وعن الاقتصاد.

أما أنا، فكنت أعيد الحديث دائمًا إلى الإنسان.

كنت أقول لهم:

"قبل أن نتحدث عن الإمبراطورية... فلنتحدث عن الفلاح الذي لا

يستطيع أن يطعم أبناءه. وقبل أن نتحدث عن هيبة القانون... فلنتحدث عن عدالته."

لقد كنت أو من أن السياسة التي تنسى الإنسان، تتحول إلى إدارة باردة للأرقام. والوطن لا يُبنى بالأرقام وحدها. وكان بعض رفاقي يضيعون بالمفاوضات. قالوا لي:

"لقد خدعونا كثيرًا. كيف نتق بهم؟"

فقلت:

"الثقة ليست هي القضية. أنا لا أتفاوض لأنني أثق في نواياهم. بل لأنني أثق في مبادئهم."

فالإنسان الذي يرفض الحوار خوفًا من الخداع، قد يحرم نفسه من فرصة لصنع السلام. والسلام، في رأيي، يستحق أن نحاول من أجله، حتى لو فشلنا.

ثم جاءت اللحظة التي طُرح فيها الاتفاق. لم يكن الاتفاق كاملاً. ولم يمنحنا كل ما أردناه. وكان بعض الوطنيين يرونه تنازلاً. لكنني كنت أنظر إليه بطريقة أخرى. الحرية ليست باباً يُفتح دفعةً واحدة. إنها أبواب. كل باب يُفتح، يجعل الوصول إلى الباب التالي ممكناً. ولذلك وافقت على ما رأيتُه خطوةً إلى الأمام. لا نهايةً للطريق.

تعرضت بعد ذلك لانتقادات كثيرة. قال بعضهم إنني كنت ليناً أكثر مما ينبغي. وقال آخرون إنني منحت البريطانيين وقتاً إضافياً.

كنت أستمع إليهم جميعاً. ثم أعود إلى السؤال نفسه:

هل تصرفت بما يمليه ضميري؟

فإذا كان الجواب نعم...

فلم أكن أخشى أحكام الناس.

لقد تعلمت أن القائد الذي يحاول إرضاء الجميع، ينتهي إلى إرضاء

أحد. أما الذي يحاول إرضاء الحقيقة... فقد يبقى وحيدًا أحيانًا. لكن وحدته أشرف من التصفيق الكاذب.

وفي إحدى الليالي، بعد انتهاء جولة مرهقة من النقاشات، خرجت أمشي وحدي. كانت السماء صافية. وتذكرت البحر. تذكرت حفنة الملح. وتذكرت آلاف الوجوه التي مشت معي. ثم قلت في نفسي:

"لو لم يمش أولئك الناس... لما جلست اليوم إلى هذه الطاولة."

عندها أدركت أن المفاوضات ليست انتصار السياسيين. بل ثمرة تضحيات المجهولين.

الفلاح الذي سُجن.

والمرأة التي غلت ماء البحر.

والشاب الذي تحمل الضرب دون أن يرفع يده.

هؤلاء هم الذين صنعوا هذه اللحظة.

أما أنا...

فلم أكن إلا صوتًا ينقل تضحياتهم إلى القاعة.

وقبل أن أنام، فتحت دفترتي الصغير. وكتبت:

"اليوم جلست مع ممثلي الإمبراطورية. لم أجلس لأنني أصبحت أقوى منهم. بل لأن الحقيقة أصبحت أقوى من قدرتهم على تجاهلها. وقد يظن الناس أن المفاوضات تنتهي حين يوقع الرجال الأوراق. لكن الحقيقة... أن المفاوضات الحقيقية تبدأ داخل الإنسان. حين يختار بين الكبرياء والحكمة. وبين الانتقام والعدالة. وبين نصرٍ سريع يترك جراحًا لا تلتئم... وسلامٍ بطيء يمنح الأجيال القادمة فرصة لأن تبدأ من حيث انتهينا."

أغلقت الدفتر. وأطفأت المصباح. كان الليل هادئًا. لكنني كنت أعلم أن الهدوء ليس نهاية العاصفة. بل الاستراحة القصيرة التي تسبق

الفصل الأخير من رحلة الهند نحو الحرية. فالطريق إلى الاستقلال لم يعد بعيداً... لكن التاريخ، كعادته، كان يطالبنا بالمزيد من الصبر قبل أن يفتح بابه الأخير.

كنت أو من أن التاريخ لا يسير في خطٍ مستقيم. إنه يشبه النهر. أحياناً يبدو هادئاً حتى نظن أنه استقر، ثم يفاجئنا بمنعطفٍ يغير اتجاهه كله. وهكذا كانت السنوات التي أعقبت مسيرة الملح. ظن بعض الناس أن المفاوضات ستكون الطريق الأخير إلى الحرية. لكن العالم كان يتهيأ لحربٍ لم يعرف لها مثيلاً. حربٍ لن تقتصر على أوروبا. بل ستلقي بظلالها على كل أرضٍ يرفرف فوقها علم الإمبراطورية البريطانية. وكانت الهند واحدةً من تلك الأراضي.

في الأول من أيلول عام **1939** اشتعلت الحرب العالمية الثانية.

وبعد أيام قليلة، أعلنت بريطانيا دخولها الحرب.

لكنها لم تكتفِ بإعلان حربها الخاصة بل أعلنت، من دون أن تستشير شعب الهند أو ممثليه، أن الهند أصبحت طرفاً فيها أيضاً.

قرأت الخبر بهدوء. ولم يكن ما آلمني أن بريطانيا دخلت الحرب. بل أنها ما زالت تنظر إلى الهند كما ينظر السيد إلى ممتلكاته. وكأن أربعين عاماً من النضال لم تعلمها أن الشعوب ليست حقولاً تُدار بالأوامر.

سألني الصحفيون:

"هل تؤيد الحرب؟"

وكان السؤال أصعب مما ظنوا. فالنازية كانت خطراً على الإنسانية. لكن الاستعمار أيضاً كان ظلماً لا يمكن قبوله. كيف يستطيع الإنسان أن يحارب الطغيان في أوروبا، وهو يمارسه في آسيا؟

لقد رأيت في ذلك تناقضًا أخلاقيًا عميقًا. وقلت:

"لا يمكن لمن يحرم شعبًا من حريته أن يدّعي أنه يقاتل من أجل حرية العالم."

داخل المؤتمر الوطني الهندي، بدأت الخلافات تتسع. كان بعض القادة يرى أن الحرب فرصة للضغط على بريطانيا. وكان آخرون يرون ضرورة التعاون معها في مواجهة الخطر العالمي. أما أنا، فكنت أرى أن الحرية لا تُمنح مكافأةً على حسن السلوك. إنها حق. والحق لا ينتظر نهاية الحروب كي يصبح حقًا.

وفي تلك السنوات، اشتد الخلاف بيني وبين رجلٍ كنت أكن له احترامًا كبيرًا. كان سوبهاس تشاندرا بوز يحب الهند كما أحبها أنا. لكن طريقه كان مختلفًا. كان يؤمن أن العدو لا يُهزم إلا بالسلاح. وأن الحرب العالمية فرصة تاريخية لطرد البريطانيين بالقوة. أما أنا، فكنت أرى أن الوسيلة ليست أقل شأنًا من الغاية. فالحرية التي تولد من الكراهية، تحمل في داخلها بذور كراهية جديدة. وقد نفترق في الطريق... لكننا نلتقي في حب الوطن.

كلما امتدت الحرب، ازداد الفقر في الهند. ارتفعت الأسعار. ونقص الغذاء. وأخذت موارد البلاد تُسخر لخدمة الحرب. وكان آلاف الشباب الهنود يُرسلون إلى جبهات القتال تحت علمٍ لا يمثلهم.

كنت أنظر إلى وجوه الأمهات. وأتساءل:

أي عدالةٍ هذه التي تطلب من شعبٍ مستعمر أن يموت دفاعًا عن إمبراطوريةٍ ما زالت تحتل أرضه؟

ثم وصلت إلى قناعةٍ لم يعد من الممكن تأجيلها. لقد آن للهند أن تقول كلمتها الأخيرة.

وفي عام **1942** دعوت الشعب إلى حركة جديدة. لم تكن مجرد احتجاج. بل نداءً أخلاقيًا واضحًا. قلت للبريطانيين:

"اتركوا الهند."

وقلت لشعبي:

"إما أن نحرر وطننا... وإما أن نموت ونحن نحاول."

لم تكن تلك دعوةً إلى العنف. بل إلى الثبات. إلى أن يصبح كل هندي شاهداً على أن الأمة لم تعد تقبل أن يُقرر مصيرها أحدٌ غيرها.

لم تنتظر الحكومة البريطانية طويلاً. ففي الليلة نفسها تقريباً، بدأت الاعتقالات. اعتُقل قادة المؤتمر جميعاً. واعتُقلت أنا معهم. كان البريطانيون يظنون أن سجن القادة سيطفئ الحركة. لكنهم لم يدركوا أن الكلمات، بعد أن تخرج من أفواه أصحابها، تصبح ملكاً للشعب.

وفي الخارج، اشتعلت الهند بالمظاهرات. وسقط كثيرون برصاص الشرطة. وامتألت السجون مرةً أخرى. لكن المطالبة بالحرية لم تعد صوت حزبٍ سياسي. لقد أصبحت صوت أمة.

وكان هذا السجن مختلفاً عن كل ما سبقه. فالسنوات أثقلت جسدي.

وأصبحت أرى الزمن بعينٍ أخرى.

في داخل المعتقل، كانت رفيقة رحلتي الطويلة، كاستوربا، تضعف يوماً بعد يوم.

لقد شاركتني الفقر.

والترحال.

والسجون.

والهجوم.

والخذلان.

وكانت، في كل مرة، أكثر صلابَةً مما كنت أظن.

لكن المرض لا يفاوض أحداً. وفي أحد أيام عام **1944**، رحلت

بين يدي. جلست طويلاً إلى جوارها. لم أبكِ بصوتٍ مرتفع. فبعض الأحران أكبر من الدموع. شعرت أن جزءاً من حياتي قد غادر معها. لكنني كنت أعلم أنها لم ترحل وهي نادمة. لقد عاشت كما آمنت. وماتت وهي تؤمن أن الحرية تستحق العمر كله.

أما صحتي، فقد بدأت تتدهور هي الأخرى. وأصبح بقائي في السجن عبئاً حتى على سجّاني. وبعد أشهر، أُفرج عني. خرجت أبطأ مما دخلت. وأكثر شيباً. لكن شيئاً واحداً لم يتغير. إيماني بأن الهند ستصبح حرة.

كانت الحرب العالمية تقترب من نهايتها. وأوروبا التي خرجت منتصرة، خرجت أيضاً منهكة. أما بريطانيا، فقد ربحت الحرب العسكرية، لكنها خسرت كثيراً من قدرتها على الاحتفاظ بإمبراطوريتها. لقد استنزفتها الحرب. واستنزفها أيضاً شعبٌ في أقصى الشرق، ظل يطالب بحريته دون أن يتعب.

وهنا أدركت أن عجلة التاريخ بدأت تدور بسرعةٍ لم تعرفها من قبل.

لم يعد السؤال:

هل ستستقل الهند؟

بل أصبح:

متى؟

وفي إحدى الليالي، فتحت دفثري للمرة الأخيرة في سنوات الحرب. كانت صفحاته قد امتلأت بأسماء الراحلين، وبذكريات السجون، وبآمالٍ لم تمت.

ثم كتبت:

"لقد علمتني هذه الحرب أن الإمبراطوريات قد تنتصر في ميادين القتال... ثم تخسر أمام ضمير الشعوب. وأن البنادق تستطيع أن تُخضع الجسد... لكنها تعجز عن إخضاع أمةٍ قررت أن تعيش حرة.

إن الحرب أوشكت أن تنتهي. أما رحلة الهند... فقد اقتربت من شروقها الأخير."

أغلقت الدفتر. ورفعت رأسي إلى السماء.

كانت الغيوم التي غطت العالم لسنوات تبدأ بالانقشاع. ومن خلفها، كنت أرى فجرًا جديدًا يقترب. ولم أكن أعلم أن ذلك الفجر، الذي حلمت به طوال حياتي، سيحمل معه أيضًا أعظم أفراحي... وأشد أحزاني.

عندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، لم يكن العالم هو العالم الذي عرفته قبلها. كانت المدن الأوروبية مدمرة. والاقتصادات منهكة. والإمبراطوريات التي بدت يومًا خالدة، أخذت تكتشف أن الحرب لم تستنزف جيوشها فقط... بل استنزفت يقينها بأنها تستطيع أن تحكم شعوبًا لا تريد أن تُحكم.

وكانت بريطانيا واحدةً من تلك الإمبراطوريات. لقد خرجت من الحرب منتصرةً في ساحات القتال... لكنها كانت تعرف، في أعماقها، أنها لم تعد قادرة على الاحتفاظ بالهند إلى الأبد.

كنت أراقب تلك التحولات بهدوء. لم أشعر بشماتة. فالزمن لا ينتقم. إنه يكتفي بأن يكشف حدود القوة البشرية. كم من إمبراطورٍ ظن أن ملكه لا يزول. وكم من دولةٍ تخيلت أن الشمس لن تغيب عن رايتها. لكن الشمس، في الحقيقة، لا تشرق على أحد إلى الأبد. إنها تعلم الجميع درسًا واحدًا:

أن البقاء ليس للأقوى...

بل للأعدل.

بدأت الوفود البريطانية تتحدث بلغةٍ مختلفة. لم تعد تتحدث عن كيفية إدارة الهند. بل عن كيفية نقل السلطة إليها. وكان ذلك، في حد ذاته،

اعترافًا بأن التاريخ قد غير اتجاهه.

لقد أمضت الإمبراطورية عقودًا وهي تحاول إقناعنا بأن حكمها قدرٌ لا مفر منه. أما الآن، فقد أصبحت تبحث عن الطريقة الأقل ألمًا لإنهاء ذلك الحكم. وليس في التاريخ اعترافٌ أكبر من هذا. لكن الطريق إلى الحرية، في ساعاته الأخيرة، كان أشد وعورةً من أي وقتٍ مضى. فالخطر لم يعد يأتي من الخارج وحده. بدأت الخلافات بين أبناء الوطن نفسه تكبر. واحتدمت النقاشات حول شكل الدولة المقبلة، ومستقبل العلاقة بين الطوائف والأديان.

كنت أنظر إلى تلك الخلافات بحزن. لقد أمضينا سنواتٍ طويلةٍ نقاوم الاحتلال معًا. فهل نعجز، ونحن على أبواب الحرية، عن أن نتعايش معًا؟

كنت أخشى أن يكون الانتصار على المستعمر أسهل من الانتصار على الانقسام.

وفي كل مدينةٍ أزورها، كان الناس يسألونني السؤال نفسه:

"متى تصبح الهند حرة؟"

فأبتسم، وأجيب:

"لقد بدأت تصبح حرة منذ اليوم الذي تخلصتم فيه من الخوف."

كان بعضهم ينتظر تاريخًا على ورقة. أما أنا، فكنت أرى أن الاستقلال الحقيقي لا يبدأ بتوقيع اتفاق. بل يبدأ حين يشعر الإنسان أن كرامته لم تعد قابلة للبيع. فالوثائق تمنح الدول استقلالها. أما الضمير... فهو الذي يمنح الشعوب حريتها.

كانت الاجتماعات تتوالى. والوفود تأتي وتذهب. والأخبار تتغير كل أسبوع. لكن شيئًا واحدًا بقي ثابتًا. لم يعد أحد، حتى أكثر المدافعين عن الإمبراطورية، يستطيع أن يتخيل مستقبلًا تبقى فيه الهند مستعمرة. لقد أصبح الاستقلال حقيقةً مؤجلة، لا حلمًا بعيدًا. وكان

الفرق بين الأمرين عظيمًا. فالأحلام قد لا تتحقق. أما الحقائق المؤجلة... فإنها تبحث دائمًا عن يومها.

وفي تلك الأيام، كنت كثيرًا ما أعود بذاكرتي إلى الماضي. إلى الطفل الخجول في بوربندر. إلى الشاب الذي صعد السفينة متجهًا إلى لندن ليدرس قانون الدولة التي تحتل وطنه. إلى الرجل الذي أنزل من القطار في جنوب أفريقيا لأنه لم يكن أبيض البشرة. إلى الفلاحين في تشامباران. إلى المغزل الذي دار آلاف المرات بين يدي. إلى الطريق الطويل نحو داندي. وإلى حفنة الملح التي حملتها فوق شاطئ البحر. بدت لي تلك الأحداث، لأول مرة، كأنها لم تكن فصولًا منفصلة. بل كانت خيوطًا تنسج قطعة قماشٍ واحدة. كل ألمٍ مررت به، كان خيطًا. وكل هزيمةٍ ظننها الناس نهاية، كانت عقدةً جعلت النسيج أكثر قوة.

سألني أحد الشباب ذات مساء:

"هل تشعر بأنك انتصرت؟"

تأملت السؤال طويلًا. ثم قلت:

"إذا كان المقصود أنني هزمت بريطانيا... فلا. أنا لم أحاول يومًا أن أهزم أحدًا. أما إذا كان المقصود أن شعبًا كاملًا اكتشف أن كرامته لا تُمنح من الإمبراطوريات... فنعم. لقد انتصر."

لقد كنت أو من أن أعظم الانتصارات ليست تلك التي تترك خصمك مهزومًا. بل تلك التي تترك الإنسان أكثر إنسانية. كنت أشعر أن التاريخ يقف على عتبة بابٍ جديد. لكنني كنت أشعر أيضًا بثقلٍ غريب في القلب. فالريح التي كانت تحمل رائحة الحرية، كانت تحمل معها رائحة انقسامٍ يقترب. كنت أدعو الله كل ليلة أن تدخل الهند فجرها الجديد بقلبٍ واحد. لكنني كنت أرى في الأفق غيومًا لا تشبه غيوم الاحتلال. بل تشبه غيوم الإخوة حين يختلفون. وكان ذلك الخوف يرافقني أكثر من أي خوفٍ عرفته في حياتي.

وفي الليلة التي سبقت إحدى جولات المفاوضات الأخيرة، فتحت دفترى الصغير. كانت صفحاته قد اصفرّت من كثرة ما كُتب فيها. مررت أصابعي على كلماتٍ كتبتها قبل عشرات السنين.

عن الخوف.

وعن الحقيقة.

وعن اللاعنف.

ثم أضفت سطرًا جديدًا:

"لقد اقتربت الحرية حتى صار الناس يسمعون خطواتها. لكن الحرية، إذا دخلت بيتًا امتلأ بالكراهية، تتحول إلى عبء. أما إذا دخلت بيتًا امتلأ بالمحبة، فإنها تصبح بداية حضارة. ولذلك، فإن المعركة الأخيرة ليست مع الإمبراطورية. إنها مع ما تبقى في قلوبنا من خوفٍ وتعصب."

أغلقت الدفتر ببطء. ورفعت بصري إلى السماء. كان الفجر يوشك أن يولد. وشعرت، لأول مرة منذ سنواتٍ طويلة، أن الوطن الذي حلمت به يقترب حتى أكاد ألمسه. لكنني لم أكن أعلم أن الفجر، حين يشرق أخيرًا، قد يلقي وراءه أطول الظلال. وأن أصعب امتحانات الحب للوطن... لم تكن قد بدأت بعد.

سقوط الجسد ونهبوا الفكرة

كنت أحلم بهذه اللحظة منذ أن كنت شابًا يافعًا، أقف على رصيف محطة القطار في جنوب أفريقيا، أتساءل كيف يمكن لإنسان أن يهان لأنه وُلد بلونٍ مختلفٍ. وحلمت بها قبل ذلك، وأنا أغادر بومباي إلى لندن، طالبًا يدرس قانون الدولة التي كانت تحكم وطنه. وحلمت بها في السجون، وفي القرى، وفي المزارع، وعلى الطرقات الترابية، وفي كل مرة كنت أرى فيها طفلًا هنديًا يولد تحت راية ليست راية بلاده. لكن الغريب أن الأحلام، حين تتحقق، لا تشبه الصورة التي رسمناها لها في الخيال.

كان الخامس عشر من آب عام **1947** يقترب. وكانت الهند كلها تستعد لاستقبال فجرٍ جديد. الأعلام تُخاط. والمدن تتزين. والناس يتحدثون عن الحرية كما يتحدث العطشان عن المطر.
أما أنا...

فكنت أشعر بصمتٍ غريب يسكن قلبي. لم يكن ذلك لأنني لم أفرح. بل لأنني كنت أعرف أن الحرية التي تأتي بعد قرونٍ من الألم، تحمل معها مسؤوليةً أثقل من الفرح نفسه.

في تلك الليلة، حين أعلن انتهاء الحكم البريطاني، دوت الاحتفالات في أنحاء البلاد. امتلأت الشوارع بالرجال والنساء والأطفال. تعانقت العائلات. وارتفعت الأعلام لأول مرة فوق المباني التي ظلت سنواتٍ طويلة تحمل راية الإمبراطورية. ورقص كثيرون. وبكى كثيرون. ولم يكن أحدٌ يلومهم. فالأمم لا تتحرر كل يوم. وفي العاصمة، كانت القاعات تمتلئ بالسياسيين والقادة. وأُقيت الخطب التي ستدخل كتب التاريخ. وتحدث الجميع عن بداية عهدٍ جديد.

أما أنا...

فلم أكن هناك. لم أجلس تحت الأضواء. ولم أقف على المنصات. ولم أشارك في الاحتفالات الرسمية. واستغرب كثيرون غيابي. لكنني كنت أشعر أن مكاني، في تلك الليلة، ليس حيث تُرفع الكؤوس احتفالاً

بالنصر. بل حيث تُمسح دموع الذين لم تصل إليهم فرحة الاستقلال كاملة. كنت في مدينة كلكتا، أسير بين أحياءٍ أنهكها التوتر والخوف. لم تكن أصوات الألعاب النارية تصل إلى تلك الأزقة. كان يصل إليها شيءٌ آخر:

الخوف.

فبينما كانت الهند تولد دولةً مستقلة، كانت بذور الانقسام قد بدأت تنمو في القلوب. ولهذا لم أستطع أن أحتفل كما احتفل الآخرون.

كنت أشعر أن الوطن، وهو يولد، يتألم.

سألني أحد الشباب:

"أما كنت تنتظر هذا اليوم طوال حياتك؟"

ابتسمت. ثم قلت:

"بلى."

قال:

"إذن لماذا لا تحتفل؟"

نظرت إليه طويلاً. ثم أجبته:

"لأن فرحتي لن تكتمل ما دام في هذا الوطن من يخاف أخاه."

ساد الصمت. ولم أجد ما أضيفه. فبعض الحقائق لا تحتاج إلى شرح.

لم أفكر يوماً في الاستقلال على أنه خروج البريطانيين فقط. كنت أراه ميلاداً جديداً للإنسان الهندي. فالاحتلال يستطيع أن يغادر الأرض. لكن آثاره قد تبقى في النفوس سنواتٍ طويلة. ولهذا كنت أقول دائماً:

"لا يكفي أن يرحل المستعمر. يجب أن يرحل الخوف الذي زرعه،

والكراهية التي تركها، والشعور بالعجز الذي أقنعنا به."

فالحرية ليست حدثاً سياسياً. إنها تربيةٌ طويلةٌ للنفس.

وفي تلك الأيام، كنت أتذكر الطريق كله. الطفل الخجول في بوربندر. الشاب الذي كان يخشى الحديث أمام الناس. المحامي الذي أُخرج من القطار في ليلةٍ باردة. الفلاحين في تشامباران. المغزل الذي دار آلاف الساعات. الملح الذي صار أقوى من السلاح. والسجون التي تحولت إلى مدارس للحرية. كل تلك اللحظات كانت تقف أمامي كأنها أشخاصٌ جاءوا يشاركونني هذا اليوم. وعرفت أن الأمم لا تُولد في يومٍ واحد. إنها تولد في آلاف الأيام التي يظن الناس أنها عادية.

لكنني كنت أرى شيئاً آخر. كنت أرى أن الاستقلال ليس نهاية الطريق. بل بدايته. فالناس يظنون أن أصعب مهمة هي تحرير الوطن. أما أنا، فقد كنت أؤمن أن الأصعب هو أن نحسن استخدام الحرية بعد أن نحصل عليها. فالحرية، إذا دخلت قلوباً لم تتعلم المسؤولية، قد تتحول إلى فوضى. أما إذا دخلت قلوباً نضجت بالألم والصبر، فإنها تصبح بداية حضارة.

وفي تلك الليلة، لم أُنم. جلست قرب نافذةٍ صغيرة. وكانت أصوات الاحتفالات تأتي من بعيد. رفعت بصري إلى السماء. كانت النجوم هي النجوم نفسها التي كنت أتأملها وأنا طفل. لكن شيئاً واحداً تغير. لم تعد تلك السماء تظل وطناً محتلاً. بل وطناً أصبح مسؤولاً عن نفسه. وهنا شعرت أن الحرية ليست هديةً يقدمها التاريخ. إنها عهدٌ يكتبه الشعب مع ضميره.

وقبل أن يطلع الفجر، فتحت دفثري للمرة الأخيرة قبل أن تبدأ مرحلةٌ جديدة من حياتي.

كتبت:

"اليوم أصبحت الهند حرة. لكنني لا أستطيع أن أقول إن رحلتي انتهت. فالاستقلال ليس خط النهاية. إنه الامتحان الأول. لقد انتصرنا على الإمبراطورية. ويبقى أن ننتصر على ما هو أصعب. أن ننتصر

على الكراهية، وعلى التعصب، وعلى الرغبة في الانتقام. فإذا فشلنا في ذلك، فلن تنقذنا كل الأعلام التي ارتفعت اليوم. أما إذا نجحنا... فستصبح حرية الهند نورًا يمتد إلى ما وراء حدودها، ويذكر الإنسانية كلها بأن أعظم الانتصارات ليست تلك التي تغير خرائط العالم... بل تلك التي تغير قلب الإنسان."

أغلقت الدفتر. وبقيت أحرق في الأفق. كانت الشمس تشرق ببطء فوق وطنٍ جديد. ورغم جمال ذلك المشهد، كنت أشعر أن القدر يخبئ للهند امتحانًا أخيرًا. امتحانًا سيكون أشد قسوةً من كل ما واجهناه مع الإمبراطورية. لأن العدو القادم... لن يأتي من وراء البحر. بل سيولد من داخل القلوب نفسها.

كنت أعرف أن الأمم، حين تقترب من تحقيق أحلامها، تصبح أكثر عرضةً للانقسام. فالطريق إلى الحرية لا يكشف قوة الشعوب وحدها... بل يكشف أيضًا جراحها القديمة. وقد كنت أرى تلك الجراح تكبر أمام عيني، عامًا بعد عام، حتى صارت أخشى أن يسبقها الدم إلى المستقبل.

لقد حاربنا الإمبراطورية سنواتٍ طويلة، لكننا لم ننتبه بما يكفي إلى أن أخطر الحروب ليست تلك التي يخوضها الإنسان ضد عدوه... بل تلك التي يخوضها ضد أخيه. بدأت فكرة التقسيم تُطرح بوصفها حلًا سياسيًا. ورآها كثيرون الطريق الوحيد لإنهاء الصراع بين المسلمين والهندوس.

كنت أستمع إلى الجميع.

وأفهم مخاوف الجميع.

لكن قلبي كان يرفض أن يصدق أن وطنًا عاش آلاف السنين بتاريخ واحد، يمكن أن يُقسم بخطوطٍ تُرسم فوق الورق.

كنت أقول:

"يمكن للسياسي أن يرسم الحدود بالحبر... لكن من يرسم الحدود في قلب الأم التي سيصبح أولادها على جانبي وطنين؟"
لم يكن عند أحد جواب.

كانت الخرائط تنتشر على الطاولات. وأقلام السياسيين تتحرك في هدوء. لكنني كنت أشعر أن كل خطٍ جديد يُرسم على الورق، يشق جرحًا جديدًا في جسد الهند. فالخرائط لا ترى القرى. ولا تعرف الجيران الذين تقاسموا الخبز لعشرات السنين. ولا تسمع ضحكات الأطفال الذين لم يسأل أحدهم الآخر يومًا عن دينه. السياسة تنظر إلى الأرض. أما الإنسان... فينظر إلى البيت.

وحين أُعلن التقسيم، بدا المشهد وكأن التاريخ انشق إلى نصفين.
وُلدت الهند.

ووُلدت باكستان.

لكن الولادة لم تكن هادئة. كانت ولادةً صاحبتها صرخاتٌ لا تُحصى.

وفجأة، وجد ملايين البشر أنفسهم غرباء في البيوت التي ولدوا فيها. أصبح المسلم الذي عاش عمره كله في قريةٍ هندية، يخشى البقاء. وأصبح الهندوسي الذي لم يعرف وطنًا غير ما صار داخل حدود باكستان، مضطرًا إلى الرحيل.

لم تتغير الأشجار.

ولا الأنهار.

ولا السماء.

الذي تغير...

هو الإنسان.

ثم بدأت القوافل. قوافل لا تحمل التجار هذه المرة. بل تحمل أوطاناً
تمشي على الأقدام. رجالٌ يحملون ما استطاعوا حمله من متاع. نساءً
يضمن أطفالهن إلى صدورهن. شيوخٌ يمشون ببطء، كأنهم لا
يغادرون بيوتهم فقط... بل يغادرون أعمارهم كلها. كان أكبر نزوحٍ
عرفته شبه القارة. ولم يكن أحد يعرف إلى أين تنتهي تلك الطرق.
لكن الطريق، للأسف، لم يكن مليئاً بالدموع وحدها. لقد امتلأ بالدم.
اشتعلت المدن. واحترقت البيوت. وتحولت المساجد والمعابد، التي
كان ينبغي أن تكون بيوتاً لله، إلى عناوين للكراهية في عيون
المتعصبين. ورأيت الإنسان يقتل إنساناً آخر، لا لأنه أساء إليه... بل
لأنه صلى بطريقةٍ مختلفة.

كنت أقف أمام تلك المشاهد، وأسأل نفسي:

أهذا قضينا عمراً كاملاً نناضل؟

ألكي نستبدل حكم المستعمر بحكم الخوف؟

وكانت أكثر المشاهد قسوةً تلك القطارات التي وصلت إلى محطاتها
صامتة. لا ضجيج فيها. ولا أصوات مسافرين. ولا أطفال يركضون
بين المقاعد. كانت تصل محملةً بالجثث. كأن الحديد نفسه قد لبس
ثوب الحداد.

وقفت أمام أحد تلك القطارات طويلاً. لم أستطع أن أتكلم. لقد رأيت
في حياتي ظلماً كثيراً. لكنني لم أر شيئاً يحطم القلب كما يحطمه أن
يقتل الأخ أخاه. في تلك اللحظة، شعرت أن الاستقلال الذي حلمت
به يختنق تحت رائحة الدم.

كان الناس يسألونني:

"من المسؤول؟"

لكنني لم أكن أبحث عن اسم. كنت أبحث عن السبب.

واكتشفت أن الكراهية، إذا تُركت سنواتٍ في الظلام، تكبر بصمت.

ثم يأتي يومٌ لا تعود فيه بحاجة إلى من يأمرها. إنها تتحرك وحدها.
ولهذا كنت أقول دائماً:

"لا تبدأ الحروب حين تُطلق الرصاصة الأولى. بل حين يتوقف
الإنسان عن رؤية أخيه إنساناً."

كنت أمشي بين الأحياء التي أكلتها النيران. أدخل البيوت المحترقة.
وأجلس مع المسلمين كما أجلس مع الهندوس. لم أكن أسأل أحداً عن
دينه. كنت أسأله فقط:

"هل فقدت أحداً تحبه؟"

وكان الجواب، في كل مرة، نعم.

وهناك أدركت أن الألم لا يعرف الطوائف. فالدموع التي تنزل من
عين أم مسلمة، لا تختلف عن الدموع التي تنزل من عين أم هندوسية.
والموت لا يسأل ضحاياه إلى أي معبد كانوا يذهبون.

وفي إحدى الليالي، جلست وحدي، وكانت أصوات الصراخ تأتي من
بعيد. أغمضت عيني. وتذكرت البحر. وتذكرت حفنة الملح. وتذكرت
تلك الأيام التي كان الناس يمشون فيها معاً، لا يسأل أحدهم الآخر
عن اسمه أو عقيدته. ثم فتحت عيني، وسألت نفسي:

كيف استطاعت أمةٌ سارت بقلبٍ واحد نحو الحرية، أن تنقسم بهذه
السرعة؟

ولم أجد جواباً.

ربما لأن بعض الأسئلة لا يجيب عنها العقل. بل يبكيها القلب.

فتحت دفثري للمرة الأخيرة في ذلك اليوم. كانت يدي ترتجف، لا
من الكبر... بل من الحزن. وكتبت:

"اليوم أدركت أن أصعب انتصار ليس أن تُخرج المستعمر من
وطنك. بل أن تمنع الكراهية من الدخول إليه بعد رحيله. لقد نالت

الهند استقلالها. لكنها دفعت ثمنًا من أرواح أبنائها، لا تستطيع كل رايات الحرية أن تعوضه. وأخشى أن التاريخ لن يتذكر فقط اليوم الذي وُلدت فيه دولتان... بل سيتذكر أيضًا ملايين القلوب التي انكسرت بينهما. إن الحدود قد تُرسم في ساعات. أما الجراح التي تتركها... فقد تحتاج إلى أجيال كي تلتئم."

أغلقت الدفتر ببطء. ورفعت رأسي إلى السماء. لم تكن السماء قد انقسمت. ولا الشمس. ولا القمر. أما الإنسان وحده... فقد استطاع أن يقسم الأرض التي خلقها الله واحدة. وفي تلك اللحظة، أدركت أن رسالتي لم تعد تحرير وطنٍ من احتلال. لقد أصبحت محاولةً أخيرة لتحرير الإنسان من الكراهية نفسها.

كان الناس يظنون أن رحيل المستعمر سيُسكت صوت البنادق. لكن البنادق، حين تجد الكراهية في القلوب، لا تحتاج إلى مستعمر كي تُطلق النار. كانت الهند قد نالت حريتها. لكنها لم تنل سلامها.

وفي كل صباح، كانت تصلني أخبار مدينةٍ احترقت، أو قريةٍ هُجرت، أو عائلةٍ فُقدت، حتى بدا لي أن الوطن الذي انتظر الفجر طويلًا، قد استيقظ على ليلٍ آخر. وكان ذلك الليل أشد قسوةً، لأنه لم يأت من وراء البحر. بل خرج من بين أبناء الوطن الواحد. كنت أتقل بين المدن التي اشتعلت فيها الفتنة. لا أحمل معي حرسًا. ولا سلاحًا. ولا سلطةً رسمية. كل ما كنت أحمله هو عصاي الخشبية، وثوبي الأبيض، وإيمانًا لم يتغير رغم كل ما رأته عيناى.

قال لي بعضهم:

"إن خروجك الآن خطر."

فابتسمت. ثم قلت:

"إذا خاف دعاة السلام من السير بين الناس، فمن يبقى ليمشي بينهم؟"

لقد كان الخوف، بالنسبة إليّ، بداية انتصار العنف. ولذلك كنت أرفض أن أمنحه تلك الفرصة.

دخلت أحياءً كانت رائحة الدخان لا تزال معلقةً في هوائها. مررت بجدرانٍ سودتها النيران. وبمساجدٍ فقدت مآذنها. وبمعابد تهدمت أبوابها. ورأيت رجالاً يجلسون فوق أنقاض بيوتهم، ينظرون إلى الفراغ كما لو أنهم فقدوا القدرة على البكاء.

كان الخراب واحداً. لا يفرق بين مسجدٍ ومعبد. فالنار، حين تشتعل، لا تسأل عن العقائد.

كنت أجلس مع المسلمين. ثم أقوم لأجلس مع الهندوس. ثم أزور السيخ. ولم أكن أطلب من أحدٍ أن ينسى ألمه. فالإنسان لا ينسى فقده بكلمة. لكنني كنت أطلب منهم شيئاً أصعب. أن يمنعوا الألم من أن يتحول إلى كراهية. كنت أقول لهم:

"إن المقتول لا يعود إذا قتلتم غيره. والمحروق بيته لا يُبنى إذا أحرقتم بيتاً آخر.

إن الانتقام لا يطفى النار... إنه يعلمها طريقاً جديداً."

وفي كل مكان، كان الناس يشتكون. هذا فقد ابنه. وذاك فقد زوجته. وثالث فقد بيته. كنت أستمع إليهم جميعاً. ولم أقطع أحداً. لأن الإنسان، حين يُصغي إلى ألم الآخر، يبدأ أول طريق الشفاء.

ثم كنت أسألهم سؤالاً واحداً:

"هل تريد أن يعيش ابنك الباقي الحياة نفسها التي عشتها أنت؟"

فيسكتون. وهناك يبدأ الحوار الحقيقي.

وذات يوم، دخلت حياً كان التوتر فيه يبلغ ذروته. وقف رجالٌ غاضبون يحملون العصي والسكاكين. كانت وجوههم مشتعلة.

وقال أحدهم:

"لقد قتلوا أهلنا."

قلت:

"وأهلهم يقولون الشيء نفسه."

ساد الصمت. ثم أضفت:

"إذا كان كل واحدٍ منكم ينتظر الآخر ليبدأ السلام، فلن يبدأ أبدًا."

كانت تلك الجملة بسيطة. لكنني رأيت في العيون شيئاً يتحرك. فالضمير، مهما غطته الكراهية، لا يموت بسهولة.

وفي كالكتا، بلغت الفتنة حدًا جعل كثيرين يعتقدون أن المدينة لن تهدأ. الشوارع خالية. والأبواب مغلقة. والخوف يسير أسرع من الناس. مشيت فيها وحدي تقريبًا. وكان كل شارعٍ أسير فيه، يبدو كأنه يسألني:

"هل بقي مكانٌ للأمل؟"

وكنت أجيب بخطواتي قبل كلماتي. لأن القائد، في أوقات الظلام، لا يحق له أن يختبئ. لم أكن أطلب من الناس أن يحبوا بعضهم فجأة. فالحب لا يُفرض. لكنني كنت أطلب منهم أن يتذكروا. أن يتذكر المسلم جاره الهندوسي الذي شاركه الخبز سنواتٍ طويلة. وأن يتذكر الهندوسي صديقه المسلم الذي وقف معه في موسم الحصاد. كنت أومن أن الذاكرة، إذا عادت إلى أيام الخير، تستطيع أن تهزم ذاكرة الكراهية.

وكان بعض الشباب يأتون إليّ غاضبين. يقولون:

"لقد انتهى زمن اللاعنف."

فأنظر إليهم بهدوء. ثم أقول:

"بل الآن يبدأ."

لقد كان اللاعنف سهلًا نسبيًا حين كان العدو واضحًا. أما الآن،

فالامتحان الحقيقي قد بدأ. كيف تحب أخاك وهو غاضب منك؟ كيف تمد يدك إلى من يخافك؟ كيف تمنع نفسك من الانتقام، وأنت قادر عليه؟ هناك فقط، يُعرف معنى اللاعنف.

ومع مرور الأيام، بدأت بعض الأحياء تهدأ. ورأيت مسلمين يحرسون معابد هندوسية من الغاضبين. ورأيت هندوسًا يقفون أمام المساجد ليمنعوا الاعتداء عليها. كانت مشاهد صغيرة. لكن التاريخ لا يصنعه دائمًا ما هو كبير. أحيانًا، يغير مصيره رجلٌ يمنع حجرًا من أن يُرمى. أو أمٌ تمنع ابنها من حمل السكين. أو جارٌ يفتح بابه لمن كان يخافه بالأمس. وفي إحدى الأمسيات، جلست مع مجموعةٍ من الأطفال. كانوا يلعبون معًا، لا يسأل أحدهم الآخر عن دينه.

راقبتهم طويلًا. ثم ابتسمت. وأدركت أن الإنسان لا يولد متعصبًا. إنه يتعلم التعصب. وكما تعلمه... يستطيع أن يتعلم الرحمة. ولذلك بقي أملي معلقًا بالأطفال أكثر من السياسيين.

في تلك الليلة، فتحت دفترتي الصغير. وكانت أصوات المدينة قد بدأت تخفت. كتبت:

"اليوم فهمت أن السلام ليس اتفاقًا توقعه الحكومات. السلام قرارٌ يتخذه الإنسان، كل صباح، حين يختار ألا يكره. لقد استطعت أن أقوم إمبراطوريةً كاملة باللاعنف. أما اليوم، فأحاول أن أقوم الكراهية في قلوب أبناء وطني بالطريقة نفسها. وربما تكون هذه هي أصعب معاركي كلها. فالمستعمر كان يقف أمامي. أما الكراهية... فإنها تختبئ داخل الإنسان نفسه."

أغلقت الدفتر. ورفعت بصري إلى السماء. كانت النجوم تلمع فوق الهند كلها. فوق المسلم والهندوسي والسيخي والمسيحي دون تمييز. عندها تمنيت لو يتعلم البشر من السماء. فهي تمنح نورها للجميع... ولا تسأل أحدًا من أي دينٍ جاء.

كلما تقدمت في العمر، ازددت يقينًا أن الإنسان لا يستطيع أن يقود الآخرين، ما لم يكن مستعدًا لأن يقود نفسه أولاً. لقد رأيت في حياتي رجالًا يملكون الجيوش، لكنهم يعجزون عن السيطرة على غضبهم. ورأيت آخرين يملكون السلطة، لكنهم يصبحون أسرى لأهوائهم. أما الحرية التي كنت أبحث عنها، فلم تكن حرية الأوطان وحدها. كانت حرية الإنسان من نفسه. ولهذا، كلما عجزت الكلمات عن إيقاظ الضمير، لجأت إلى اللغة الوحيدة التي لا تستطيع الكراهية أن تفسرها تفسيرًا آخر. لغة التضحية.

كانت الفتنة ما تزال تلتهم المدن. تهدأ في مكان، ثم تشتعل في آخر. وكلما زرت حيًا، وجدت أمهات يبكين أبناءهن، وآباءً يبحثون بين الأنقاض عن بقايا بيوتهم، وأطفالًا ينظرون إلى العالم بعيونٍ فقدت براءتها قبل أوانها. كنت أعود كل مساءً مثقل القلب. أسأل نفسي:

كم خطابًا ألقيت؟

وكم رسالةً كتبت؟

وكم طريقًا مشيت؟

ولماذا ما زال الدم يسيل؟

وفي تلك الليلة، جلست وحدي طويلًا. لم أطلب نصيحة أحد. ولم أفتح كتابًا. كنت أبحث في أعماقي عن وسيلةٍ أخاطب بها ضمير الأمة. ثم عاد إلى ذهني ما تعلمته منذ سنوات بعيدة. إن الجسد، إذا احتمل الألم بإرادته، قد يوقظ قلوبًا عجزت الكلمات عن إيقاظها.

وهكذا اتخذت قراري.

سأصوم.

لا احتجاجًا على أحد. ولا عقابًا لأحد. بل صلاةً صامتةً من أجل وطنٍ يتألم.

حين أعلنت قراري، حاول كثيرون أن يثنوني عنه. قال الأطباء إن

جسدي لم يعد يحتمل. وقال الأصدقاء إن عمري لم يعد يسمح بمثل هذه المشقة. وقال بعض السياسيين إن الصيام لن يوقف الرصاص.

ابتسمت لهم جميعًا. ثم قلت:

"ربما لا يستطيع الصيام أن يوقف يدًا تحمل السلاح... لكنه قد يوقظ القلب الذي يأمر تلك اليد."

كنت أعرف أن المعركة الحقيقية لم تعد في الشوارع. بل في الضمير.

بدأ الصيام. ومع كل يوم يمر، كان الجسد يزداد ضعفًا. لكن الروح كانت تزداد صفاءً. كنت أشرب الماء بقدر الحاجة. وأقضي ساعاتٍ طويلة في الصلاة والتأمل. لم أشعر أنني أحارب الجوع. كنت أحارب شيئًا أعمق. الكراهية التي بدأت تتسلل إلى وطنٍ حلمت أن يكون بيتًا للجميع. وكانت كل آلام الجسد تبدو صغيرة أمام ألم الهند.

انتشر الخبر بسرعة. لم يعد الناس يتحدثون عن السياسيين. ولا عن المفاوضات. بل عن رجلٍ عجوز يختار أن يعرض حياته للخطر، لأن أبناء وطنه يقتلون بعضهم بعضًا.

بدأت الوفود تأتي إليّ.

مسلمون.

وهندوس.

وسيوخ.

ورجال دين.

وقادة أحياء.

كانوا يجلسون حول فراشي في صمت. وكان الصمت أحيانًا أبلغ من الخطب.

قال لي أحدهم:

"لماذا تعاقب نفسك بخطايا لم ترتكبها؟"

فنظرت إليه طويلاً. ثم قلت:

"أنا لا أعاقب نفسي. أنا أذكر الناس بأن حياة إنسانٍ واحد قد تكون
أعلى من انتصار جماعةٍ كاملة."

ثم أضفت:

"إذا كان موتي سيوقظ ضميراً واحداً... فلن يكون ثمناً كبيراً."

ومع مرور الأيام، بدأ الضعف يظهر على وجهي. أصبحت خطواتي
أبطأ. وصوتي أخفت. وكان الأطباء يراقبون نبضي بقلق.

أما أنا، فلم أكن أخاف الموت. لقد صاحبت الموت طويلاً. رأيته في
جنوب أفريقيا. ورأيته في السجون. ورأيته في قطارات التقسيم.

لكنني كنت أخاف شيئاً واحداً. أن أموت قبل أن يعود أبناء الهند إلى
رشدتهم.

ثم حدث ما لم يكن يتوقعه كثيرون. بدأ قادة الطوائف المختلفة يأتون
معاً. لا ليتجادلوا. بل ليتعهدوا بإيقاف العنف. دخلوا الغرفة، وجلسوا
حولي. ورأيت في عيونهم تعباً يشبه تعبي. قرأ بعضهم تعهداتٍ علنية
بحماية الأبرياء. ووعدوا بإيقاف أعمال الانتقام.

لم أطلب منهم أن يحبوا بعضهم في تلك اللحظة. طلبت منهم فقط أن
يكفوا عن الكراهية. فالحب يحتاج إلى زمن. أما وقف القتل... فلا
يحتمل التأجيل.

وحين بدأت الأخبار تصل بأن العنف قد هدأ في مناطق كثيرة،
شعرت أن الرسالة وصلت. لم يكن ذلك نصراً لي. بل انتصاراً لما
بقي حياً من ضمير الأمة. وعندما تأكدت أن التعهدات لم تكن كلماتٍ
عابرة، قبلت أن أنهى صيامي.

ناولوني أول رشفة من عصير الفاكهة ببطء. نظر إليّ من حولي
وكأنهم يشهدون ولادةً جديدة. أما أنا، فكنت أفكر في شيءٍ آخر.

كم هو غريب هذا الإنسان. قد يعجز عن الإصغاء إلى آلاف
الكلمات... ثم توقظه تضحيةً صامتة.

وفي تلك الليلة، بقيت مستيقظًا رغم الإرهاق. كانت المدينة أكثر
هدوءًا مما عرفتُها منذ أشهر. ولأول مرة منذ زمن، سمعت صوت
الريح أكثر مما سمعت أصوات الرصاص.

فتحت دفترتي الصغير، وكتبت:

"اليوم أدركت أن الجسد ليس مجرد وعاءٍ للروح. إنه قد يصبح
رسالة. وقد تصبح المعدة الخاوية أبلغ من ألف خطاب. لقد صمتُ
لأنني لم أعد أملك سلاحًا غير ضمائر الناس. ولم أكن أعلم هل
ستستجيب أم لا. لكنني تعلمت مرةً أخرى أن الإنسان لا يُغيّر العالم
بما يطلبه من الآخرين... بل بما يكون مستعدًا أن يقدمه من نفسه.
إن السلام لا يولد حين يسكت السلاح فقط. بل حين يكتشف الإنسان
أن حياة خصمه لا تقل قداسةً عن حياته. وفي اليوم الذي نؤمن فيه
بذلك... لن يعود في الأرض منتصرٌ ومهزوم. بل بشرٌ عرفوا أخيرًا
كيف يكونون إخوة."

أغلقت دفترتي، وأسندت رأسي إلى الوسادة. كان جسدي منهكًا، لكن
قلبي شعر براحةٍ لم يعرفها منذ زمن. غير أنني كنت أحس، في
أعمالي، بأن الرحلة توشك على نهايتها. وأن القدر كان يهيئ لي لقاءً
أخيرًا مع الحياة... سيكون أكثر هدوءًا من كل المعارك التي خضتها،
وأكثر خلودًا من كل انتصارٍ حققته.

لم أعد أخاف النهاية.

لقد عشت طويلاً حتى أدركت أن الإنسان لا يختار عدد السنوات التي يمنحها له الله، لكنه يستطيع أن يختار المعنى الذي يمنحه لتلك السنوات. وكان ذلك المعنى، بالنسبة إليّ، هو الحقيقة. كل ما عداها كان يتغير. السلطات تتغير. والحدود تتغير. والأفكار نفسها قد تتبدل مع الزمن.

أما الحقيقة...

فكانت الشيء الوحيد الذي شعرت أنه يستحق أن يُعاش من أجله، وأن يُموت من أجله أيضاً.

بعد أن انتهى الصيام، بدأ جسدي يستعيد شيئاً من قوته، لكنني كنت أعلم أن تلك القوة لم تعد قوة الشباب. كانت خطواتي أبطأ. وعظامي أكثر تعباً. وأصبح الإرهاق يزورني سريعاً.

وكان الأطباء يطلبون مني أن أستريح. أما أنا، فكنت أبتسم. ثم أقول: "سأستريح طويلاً... لكن ليس اليوم."

كنت أشعر أن ما بقي من عمري ليس ملكاً لي.
بل للهند.

ولكل إنسانٍ ما زال يؤمن أن المحبة أقوى من الكراهية.

لم تتوقف زيارات الناس. كان الفقراء يأتون كما كانوا يأتون دائماً. وكان الأطفال يركضون نحوي دون خوف. وكان رجال السياسة يقصدونني طالبين المشورة. وكنت ألاحظ أن كثيراً منهم لم يعودوا يسألونني عن السياسة. بل عن الحياة. كأن سنوات النضال الطويلة جعلتهم يدركون أن مشكلة الإنسان ليست في القوانين وحدها. بل في قلبه.

كنت أقضي ساعاتٍ طويلة في الصلاة. ثم في قراءة الكتب المقدسة

لمختلف الأديان. لم أر يوماً تناقضاً بين الإيمان الصادق والاحترام
الصادق لإيمان الآخرين. بل كنت أرى أن الحقيقة، مثل الشمس،
تدخل البيوت كلها، وإن اختلفت النوافذ. ولهذا بقيت أردد أن الأديان
لا تتقاتل. الذي يتقاتل هو البشر حين ينسون روح الدين ويتمسكون
بقشرته.

وكانت لقاءاتي المسائية للصلاة تستمر كل يوم تقريباً. يجتمع الناس
من خلفياتٍ مختلفة.

يجلس المسلم إلى جوار الهندوسي.

ويقف السيخي إلى جانب المسيحي.

وكان ذلك المشهد يمنحني أملاً صغيراً. ربما لم أستطع أن أوقف كل
العنف. لكنني استطعت، ولو لساعات، أن أجعل أناساً مختلفين
يجلسون في مكانٍ واحد دون خوف. وكان ذلك، في تلك الأيام،
معجزةً صغيرة.

وفي بعض الليالي، كنت أستعيد حياتي كلها.

أتذكر الطفل الذي كان يخشى الظلام.

والشاب الذي ارتجف وهو يلقي أول مرافعةٍ له.

والمحامي الذي أُلقي من القطار.

والرجل الذي مشى إلى البحر ليصنع حفنةً من الملح.

ثم أسأل نفسي:

هل كنت سأغير شيئاً لو عاد بي الزمن؟

وأجد الجواب يأتي بهدوء:

ربما كنت سأقع في الأخطاء نفسها. لكنني ما كنت لأتخلى عن
اللاعنف. لقد خذني الناس أحياناً. وأسأؤوا فهمي أحياناً. لكن
اللاعنف لم يخذلني يوماً.

بدأت تصلني رسائل من أنحاء العالم. بعضها من رؤساء دول. وبعضها من طلاب لا أعرف أسماءهم. وكان أكثر ما يلمس قلبي تلك الرسائل البسيطة التي يكتبها أناس عاديون. رجلٌ يخبرني أنه سامح قاتل أخيه. وامرأة تقول إنها تخلت عن الانتقام بعد أن قرأت كلماتي. وشابٌ يكتب أنه قرر أن يقاوم الظلم دون أن يحمل السلاح. عندها كنت أشعر أن الأفكار، حين تخرج من حدود الوطن، تبدأ حياتها الحقيقية.

ورغم كل ذلك، لم أكن غافلاً عما يدور حولي. كنت أعلم أن هناك من يراني خائناً. ومن يتهمني بأبني قدمت تنازلات كثيرة. ومن يعتقد أن دعوتي إلى التسامح ضعف.

ولم يكن هذا يؤلمني. لقد اعتدت، منذ سنواتٍ طويلة، أن أكون محبوباً من قوم، ومكروهاً من آخرين. فالإنسان الذي يحاول إرضاء الجميع، ينتهي إلى فقدان نفسه. أما الذي يحاول إرضاء ضميره.. فعليه أن يقبل أن يسير أحياناً وحده.

وفي صباح أحد الأيام، كنت أمشي في الحديقة بهدوء. كانت الشمس دافئة. وأوراق الأشجار تتحرك مع النسيم. توقفت أتأمل غصناً صغيراً خرج من جذعٍ قديم. ابتسمت. وقلت في نفسي:

"هكذا هي الحياة. كلما ظننا أن الشجرة شاخت، فاجأتنا بورقةٍ جديدة. ولعل الإنسان أيضاً لا يترك أثره فيما عاشه فقط... بل فيما يتركه لينمو بعد رحيله."

وفي تلك الأيام، لم أعد أخطط لسنواتٍ طويلة. كنت أخطط لليوم الواحد. للقاء مع الناس. أو لصلاةٍ مشتركة. أو لرسالةٍ أكتبها.

لقد تعلمت أن العمر لا يُقاس بعدد الأيام التي تنتظرنا. بل بعدد الأيام التي نملؤها بالمعنى. ولهذا كنت أعيش كل صباحٍ كما لو أنه هديةٌ جديدة.

وفي مساء التاسع والعشرين من كانون الثاني عام **1948**، جلست

إلى مكتبي الصغير. كان الليل ساكنًا. فتحت دفثري الذي رافقني سنواتٍ طويلة. وقلبت صفحاته ببطء. وجدت فيها آثار حياتي كلها.

الخوف الأول.

والرحلة الأولى.

والسجن الأول.

والملح.

والصيام.

والدموع.

والأمل.

ثم كتبت آخر ما خطر في قلبي:

"إذا علمتني الحياة شيئًا، فهو أن الإنسان لا يستطيع أن يختار النهاية التي تنتظره. لكنه يستطيع أن يختار الطريق الذي يقوده إليها. وقد اخترت، منذ زمنٍ بعيد، أن يكون طريقي الحقيقة. ولذلك، إذا انتهت رحلتي غدًا، فلن أطلب من الناس أن يحزنوا عليّ. بل أن يسأل كل واحدٍ منهم نفسه: هل جعلت العالم، ولو قليلًا، أكثر رحمةً مما وجدته؟ فإذا فعل ذلك... فلن أكون قد عشت عبثًا."

أغلقت الدفتر برفق. وأطفأت المصباح. ونظرت من النافذة إلى السماء. كانت النجوم هادئة على غير عادتها. وكأنها تعرف ما لا أعرفه. أما أنا، فدخلت في نومٍ عميق، دون أن أعلم أن الشمس التي ستشرق في الغد، ستكون آخر شمسٍ أراها في حياتي. وأن خطواتي التالية، التي سأمشيها كعادتي نحو لقاء الصلاة، ستقودني إلى الموعد الأخير... الموعد الذي ستصمت فيه كلماتي إلى الأبد، لتبدأ رسالتي رحلتها الأطول في ضمير الإنسانية.

كان صباح الثلاثين من كانون الثاني عام **1948** يشبه كثيرًا من صباحات حياتي. لم تستيقظ الشمس وهي تعلم أن هذا اليوم سيُكتب في كتب التاريخ. ولم تكن الأشجار التي تمايلت مع نسيم الشتاء تدرك أنها ستشهد بعد ساعاتٍ لحظةً ستتوقف عندها قلوب الملايين. فالقدر لا يعلن عن نفسه. إنه يأتي في هيئة يومٍ عادي، ثم يغيّر العالم في لحظة.

استيقظت مع الفجر كما اعتدت دائمًا. اغتسلت. وصليت. وجلست قليلًا أتأمل الصمت الذي يسبق استيقاظ المدينة. كنت أحب تلك الساعات. ففيها يصبح العالم أقل ضجيجًا، ويصبح صوت الضمير أوضح. قرأت شيئًا من الكتب المقدسة. ثم بدأت أستقبل زواري.

كان بعضهم يريد نصيحة.

وبعضهم يريد كلمة تشجيع.

وبعضهم جاء فقط ليصافحني.

كنت أستقبل الجميع بالابتسامة نفسها. لأنني تعلمت أن الإنسان قد يحتاج إلى ابتسامة صادقة أكثر مما يحتاج إلى خطابٍ طويل.

امتدت اللقاءات حتى ما بعد الظهر. وتأخرت قليلًا عن موعد اجتماع الصلاة المسائي.

قالت لي إحدى حفيدتي:

"لقد تأخرنا."

ابتسمت، وقلت بهدوء:

"ليس من الجميل أن نجعل الناس ينتظرون."

ثم نهضت.

أمسكت عصاي الخشبية. وسرت ببطء بين الحاضرين، مستندًا إلى ذراعي حفيدتي، كما اعتدت في أيام الشيخوخة.

كان الجسد قد أثقله العمر. لكن القلب ظل يمشي بخفة شابٍ ما زال يؤمن أن الغد يمكن أن يكون أفضل. كانت الحديقة تمتلئ بالناس. رجال. ونساء. وأطفال. جاؤوا ليستمعوا إلى صلاة المساء. كان بعضهم ينحني احترامًا. وبعضهم يرفع يده بالتحية. وكنت أرد التحية بابتسامة، وأضم كفيّ أمام صدري. ذلك السلام الهندي البسيط الذي كنت أراه أجمل من كل مظاهر العظمة. فالاحترام الحقيقي لا يحتاج إلى مظاهر.

كنت أقرب من منصة الصلاة. ولم يبق بيني وبينها سوى خطوات. في تلك اللحظة، خرج رجلٌ من بين الجموع. كان يبدو هادئًا. تقدم نحوي كأنه يريد أن ينحني احترامًا. لم أشعر بالخوف. فقد تعودت طوال حياتي أن أرى في كل إنسان فرصةً للحوار، لا مصدرًا للتهديد. ولعل هذه كانت أجمل نقاط قوتي... وأشدها خطرًا عليّ.

توقف الرجل أمامي. وانحنى قليلًا. ثم رفع رأسه. وفي لحظة خاطفة، أخرج مسدسًا.

دوى الرصاص.

رصاصة.

ثم ثانية.

ثم الثالثة.

اهتز المكان. وسقط الصمت قبل أن يسقط جسدي. شعرت بحرارةٍ تخترق صدري.

ولم أشعر بكراهية.

ولا بغضب.

بل براحةٍ غريبة، كأن الرحلة الطويلة وصلت أخيرًا إلى مينائها. أحسست أن ساقي لم تعودا قادرتين على حملي.

بدأت الأرض تقترب مني. وسمعت صرخات الناس من حولي.
ورأيت وجوهاً مذعورة تركض نحوي. لكن الأصوات كانت تبتعد
شيئاً فشيئاً، كأنها تأتي من مكانٍ بعيد. وفي تلك اللحظة الأخيرة،
خرجت من أعماقي كلماتٌ لم تكن موجهة إلى قاتلي. ولا إلى من
حولي. بل إلى الله.

"يا رب..."

ثم سكتت الكلمات.

وبقيت الروح.

ساد المكان ذهولٌ لم يعرفه من قبل.

وقف الناس عاجزين عن تصديق ما حدث.

المرأة التي كانت تبتسم قبل لحظات، انفجرت بالبكاء.

والرجل الذي جاء ليستمع إلى الصلاة، وجد نفسه شاهداً على نهاية

رجلٍ قضى حياته يدعو إلى السلام.

أما القاتل...

فقد أمسك به الحاضرون قبل أن يفر. وكان الغضب يشتعل في

العيون. ورأيت، في مفارقةٍ مؤلمة، أن الناس كادوا يقتلون رجلاً،

انتقاماً لرجلٍ قضى عمره كله يرفض الانتقام.

حُمل جسدي بهدوء.

ذلك الجسد الذي سار آلاف الكيلومترات.

ودخل السجون.

وصام حتى أوشك على الهلاك.

وحمل حفنةً من الملح غيرت تاريخ أمة.

أصبح الآن ساكناً.

لكنني كنت أوّمن، طوال حياتي، أن الإنسان ليس جسده. وأن الأفكار، إذا صدقت، تبدأ أقوى لحظاتها بعد رحيل أصحابها.

انتشر الخبر بسرعةٍ لم يعرفها العالم من قبل.

"اغتيال المهاتما غاندي."

كانت الكلمات قليلة. لكنها حملت معها حزنًا لا يمكن أن تحتويه الجمل. توقفت أعمال الناس. وانقطعت الأحاديث. وأخذت الهند كلها تبكي. لم يكن البكاء على رجلٍ فقط. بل على ضميرٍ ظن كثيرون أنه سيبقى بينهم سنواتٍ أخرى.

وفي تلك الليلة، خيم صمتٌ ثقيلٌ على البلاد. لم يكن صمت خوف. بل صمت دهشة. كيف يمكن لرجلٍ واجه الإمبراطورية البريطانية، وخرج من السجون، ونجا من المحن، أن يسقط برصاص ابنٍ من أبناء وطنه؟ وكانت المأساة أكبر من الموت نفسه.

لقد قضيت حياتي أحاول أن أقنع الناس بأن الكراهية لا تنجب إلا الكراهية. ثم جاءت الرصاصات لتثبت، في اللحظة نفسها، صحة الرسالة، وقسوة الواقع.

ولو فُدر لي أن أكتب في دفثري بعد تلك اللحظة، لكتبت:

"لا تحزنوا لأن الرصاص أوقف قلبي. احزنوا فقط إذا سمحتم له أن يوقف الفكرة. فالإنسان يموت مرةً واحدة. أما الحقيقة... فلا تموت إلا إذا تخلى عنها المؤمنون بها. لقد سقط الجسد. لكن اللاعنف لا يسقط. و سكت الصوت. لكن الضمير الذي استيقظ في ملايين القلوب لن تعيده أي رصاصة إلى النوم. فلا تجعلوا موتي سببًا للانتقام جديد. اجعلوه سببًا لميلاد إنسانٍ جديد، يؤمن أن الحب، مهما بدا ضعيفًا، يبقى أقوى من الكراهية، وأن الحقيقة، مهما طال ليلها، لا بد أن ترى الفجر."

وهكذا انتهت حياتي على الأرض. لكنني كنت أرجو، وأنا أغادرها،

ألا تكون النهاية خاتمة الرسالة... بل بدايتها الحقيقية.
فبعض الرجال يكتبون أفكارهم بالحبر.
وبعضهم يكتبها بالدم.

لم تكن الرصاصات الثلاث التي اخترقت جسدي في مساء ذلك اليوم
موجهة إلى رجلٍ واحد. لقد شعر العالم، للحظة، أنها أصابت شيئاً
أكبر من إنسان. أصابت فكرةً آمن كثيرون أنها قادرة على إنقاذ
البشرية من نفسها.

ولذلك، ما إن انتشر الخبر، حتى بدأ وكأن الحزن تجاوز حدود الهند
في ساعاتٍ قليلة.

فالحدود السياسية قد تفصل بين الدول. أما المآسي العظيمة... فلا
تعترف بالحدود.

في الهند، خيم صمتٌ لم تعرفه البلاد منذ عقود.
توقفت الاحتفالات.

وأغلقت كثير من الأسواق أبوابها.

وامتلأت الطرقات بملايين البشر.

لم يخرجوا بدافع الفضول. بل بدافع الفقد.

كان بعضهم يبكي كما يبكي الابن أباه. وكان آخرون يقفون صامتين،
وكان الكلمات أصبحت أصغر من أن تصف ما حدث.

ولأول مرة منذ زمن طويل، بدا أن الطوائف التي فرقها السياسة،
جمعها الحزن.

لقد مات الرجل الذي كان يحاول أن يمنعها من التفرق.

وسارت الجموع خلف نعشي في مشهدٍ لم تعرفه الهند من قبل.
لم يكن موكبًا رسميًا.
كان وداع أمةٍ لرجلٍ عاش واحدًا من أبنائها حتى اللحظة الأخيرة.
كان الفقراء يسرون إلى جوار الأغنياء.
والقرويون إلى جوار رجال الدولة.
والمسلم إلى جوار الهندوسي.
والسيخي إلى جوار المسيحي.
ولم يسأل أحدٌ الآخر عن دينه.
كان الحزن، في ذلك اليوم، اللغة الوحيدة التي فهمها الجميع.
أما خارج الهند، فقد تناقلت وكالات الأنباء الخبر إلى كل القارات.
وتصدرت صورتي الصفحات الأولى للصحف. وكتبت الجرائد عن
رجلٍ واجه إمبراطوريةً كاملة دون أن يحمل سلاحًا. ورأت شعوبٌ
كثيرة أن العالم لم يفقد زعيمًا هنديًا فحسب. بل فقد ضميرًا أخلاقيًا
كان يذكر الإنسانية، في زمن الحروب، بأن القوة ليست الطريق
الوحيد إلى النصر.
انهالت برقيات التعزية من مختلف أنحاء العالم.
بعث ملوك ورؤساء دول برسائل مواساة.
وأصدر قادة سياسيون بياناتٍ عبّروا فيها عن حزنهم.
لكن أكثر ما لفت انتباهي، لو كنت ما زلت أقرأ تلك الرسائل، لم يكن
كلمات الزعماء. بل رسائل الناس العاديين.
رسائل من معلمين.
ومن عمال.
ومن مزارعين.

ومن طلاب.

كانوا يكتبون أنهم لم يلتقوا بي قط. لكنهم شعروا أن شخصًا من عائلتهم قد رحل. وهناك أدركت، حتى بعد الرحيل، أن الإنسان لا يصبح قريبًا من الآخرين بالسلطة.

بل بالصدق.

ولعل أكثر الكلمات التي بقيت تتردد في أنحاء العالم، جاءت على لسان العالم الفيزيائي ألبرت أينشتاين، حين قال إن الأجيال القادمة قد يصعب عليها أن تصدق أن رجلاً مثل غاندي سار يومًا على هذه الأرض من لحمٍ ودم.

لم تكن تلك الكلمات مديحًا لشخصي.

بل كانت شهادةً بأن الأخلاق، حين تتحول إلى أسلوب حياة، تصبح حدثًا تاريخيًا لا يقل أثرًا عن أعظم الاكتشافات العلمية.

لكن وسط كل هذا الحزن، كنت أتمنى لو يطرح العالم سؤالًا واحدًا.

ليس:

"كيف مات غاندي؟"

بل:

"لماذا عاش غاندي بهذه الطريقة؟"

فالطريقة التي يموت بها الإنسان، يقررها القدر أحيانًا.

أما الطريقة التي يعيش بها...

فهي قراره.

وقد قضيت عمري كله أحاول أن أبرهن أن الإنسان يستطيع أن يقاوم الظلم دون أن يتحول إلى ظالم. وأن يدافع عن وطنه دون أن يفقد إنسانيته.

في الأيام التالية، بدأت صورتي تُرفع في أماكن لم أزرها يومًا.
وصار اسمي يُذكر في المدارس والجامعات.
وكتب الصحفيون والمفكرون عن اللاعنف كما لو أنه اكتشافٌ جديد.
لكنني كنت أخشى دائمًا شيئًا واحدًا.
أن يتحول الإنسان إلى أسطورة، فتُنسى رسالته.
فالأساطير تُعجب الناس.
أما المبادئ...

فتطالبهم بأن يتغيروا.

ولم أكن أريد إعجابًا.

كنت أريد تغييرًا.

كانت جنازتي، في حقيقتها، امتحانًا أخيرًا للهند.

هل ستجعل من موتي سببًا للانتقامِ جديد؟

أم سببًا لمراجعة النفس؟

ولحسن الحظ، فإن كثيرين فهموا الرسالة. لقد أدركوا أن الرد الحقيقي
على الرصاص، ليس بإطلاق رصاصٍ آخر. بل بإثبات أن الرصاص
عجز عن قتل الفكرة التي خرج من أجلها.

وفي مساء ذلك اليوم، لو كان لي أن أخطب العالم للمرة الأخيرة،
لقلت:

"لا تبكوا لأن رجلاً قد مات. فكل إنسانٍ يولد وهو يحمل في داخله
موعد رحيله. ابكوا فقط إذا ماتت الرحمة في قلوبكم. ولا تجعلوا من
اسمي شعارًا ترفعونه في الاحتفالات. اجعلوه سؤالًا تسألونه لأنفسكم
كل صباح: هل اخترت اليوم طريق الحقيقة، أم طريق الخوف؟ وهل
جعلت وجودي سببًا في تقليل الألم عن إنسانٍ واحد؟

إذا فعلتم ذلك... فلن يكون موتي نهاية قصة. بل بداية آلاف القصص."

ومع مرور الأيام، هدأت أصوات البكاء. لكن شيئًا آخر بقي حيًا. لم يعد الناس يتذكرون الرصاصات الثلاث بقدر ما تذكروا الرجل الذي واجهها دون أن يحمل في قلبه كراهية.

وهكذا، اكتشف العالم مرةً أخرى أن الجسد قد يسقط في لحظة. أما الفكرة التي عاشت عمرًا كاملًا في خدمة الإنسان... فإنها، بعد رحيل صاحبها، تبدأ رحلتها الأطول. ولعل تلك كانت المفارقة الأخيرة في حياتي. لقد نجح القاتل في إسكات صوتي... لكنه منح رسالتي، دون أن يدري، صوتًا سمعته الإنسانية كلها.

لا أومن أن الإنسان يُقاس بعدد السنوات التي عاشها.
ولا بعدد المناصب التي تقلدها.
ولا حتى بعدد الانتصارات التي حققها.
فالزمن، بعد حين، يطوي كل ذلك كما تطوي الريح آثار الأقدام على الرمال.
أما الذي يبقى...

فهو الأثر الذي يتركه الإنسان في ضمير البشرية.

ولهذا، لم يكن السؤال الذي شغلني يومًا:

كم سأعيش؟

بل:

ماذا سيبقى من حياتي بعد أن أغادرها؟

حين أنظر إلى رحلتي كلها، لا أرى سلسلةً من الأحداث السياسية. ولا أرى معارك بين مستعمرٍ ومستعمرٍ. بل أرى رحلة إنسانٍ كان يحاول، في كل يوم، أن ينتصر على نفسه قبل أن ينتصر على خصمه.

لقد اكتشفت أن أعظم إمبراطورية لا يحكمها ملك، ولا يحرسها جيش. إنها الإمبراطورية التي يبنيها الإنسان داخل قلبه.

إمبراطورية الخوف.

ومن يهزمها... لا يعود عبدًا لأحد.

لقد تعلمت من الحقيقة أن القوة ليست نقيض الرحمة. بل إن الرحمة هي أعلى درجات القوة. فالذي يستطيع أن يطلق الرصاصة، ثم يمتنع عنها، أقوى من الذي يطلقها. والذي يستطيع أن يسامح وهو قادر على الانتقام، أشجع من الذي ينتقم لأنه عاجز عن التسامح.

ولذلك، لم يكن اللاعنف، في نظري، هروبًا من المواجهة. كان أشق أنواع المواجهة. لأنه يطلب من الإنسان أن يهزم غضبه، قبل أن يواجه ظلم الآخرين.

لقد ظن كثيرون أن اللاعنف يصلح للقديسين وحدهم. لكنني لم أكن قديسًا. كنت أخطئ. وأتردد. وأراجع نفسي. وأتعلم من هزائمي أكثر مما أتعلم من انتصاراتي. ولهذا كنت أقول دائمًا إن الحقيقة ليست شيئًا نملكه. بل طريقٌ نمشي فيه. وكلما ظن الإنسان أنه وصل إليها كاملة، ابتعد عنها.

إن التواضع ليس زينةً للأخلاق. بل شرطٌ للوصول إليها.

ولم تكن الهند هي الغاية الأخيرة.

لقد كانت البداية.

كنت أحلم أن يصبح اللاعنف لغةً يفهمها العالم كله. لغةً يستطيع بها الضعيف أن يدافع عن حقه دون أن يتحول إلى نسخةٍ أخرى من

ظالمه.

كنت أريد أن أبرهن أن العدالة لا تحتاج دائماً إلى السيف. بل تحتاج، قبل كل شيء، إلى ضميرٍ لا يقبل المساومة.

ومع مرور السنين، أدركت الإنسانية أن الفكرة لا تموت برحيل صاحبها. لقد ألهمت فلسفة اللاعنف حركاتٍ كثيرة في أنحاء العالم، وأثبتت أن التغيير يمكن أن يبدأ من ضمير إنسانٍ واحد، ثم يمتد إلى شعب، ثم إلى قارة، ثم إلى البشرية كلها. ولم يعد اسمي، في نظر كثيرين، اسم رجلٍ من الهند. بل أصبح رمزاً لسؤالٍ أخلاقي يتكرر في كل زمان:

هل يمكن للإنسان أن يواجه الظلم دون أن يفقد إنسانيته؟

وسيظل هذا السؤال مطروحاً ما بقي الظلم موجوداً.

لكنني كنت أخشى دائماً أن يختصر الناس حياتي في صورٍ تُعلق على الجدران. أو في تماثيل تُقام في الساحات. فالتمثال لا يتغير.

أما الإنسان...

فقد خُلق ليتغير كل يوم.

إذا أراد أحدٌ أن يكرمني، فلا يضع إكليلاً من الزهور أمام صورتي. بل ليمنع ظلماً كان يستطيع أن يمنعه. وليغفر إساءةً كان قادراً على ردها. وليقل الحقيقة حين يخاف الجميع من قولها. هناك فقط، أشعر أن حياتي لم تذهب سدى.

لقد علمتني الحياة أن الحضارات لا تنهار حين تضعف جيوشها. بل حين يموت ضميرها. وقد تبني الأمم أعظم المدن، وأعلى الجسور، وأقوى المصانع. لكنها، إذا فقدت الرحمة، ستبقى فقيرة مهما بلغت ثروتها. إن التقدم الذي لا يصحبه تقدمٌ أخلاقي، يشبه سفينةً عظيمةً فقدت بوصلتها. قد تسير بسرعة... لكنها لا تعرف إلى أين تمضي. وأؤمن أن الحقيقة تشبه الشمس. قد تحجبها الغيوم. لكن الغيوم لا

تلغي وجودها. وقد ينتصر الباطل زمنًا. وقد يعلو صوت الكراهية. وقد يبدو العنف، في بعض اللحظات، أسرع طريقٍ إلى النصر. لكن الزمن، في النهاية، لا يحتفظ إلا بما يخدم الإنسان. أما كل قوة بُنيت على الظلم، فإنها تحمل في داخلها بذور سقوطها. وهذا ما علمتنيته حياتي، قبل أن تعلمه لي السياسة.

ولو عاد بي العمر إلى بدايته، إلى ذلك الطفل الخائف من الظلام في بوربندر، لما أخبرته أنه سيقود أمةً، أو أن الملايين ستعرف اسمه. بل لقلت له:

"لا تخجل من ضعفك. فقد يكون ضعفك هو الباب الذي سيدخلك إلى فهم الآخرين. ولا تخف من السقوط. فكل سقوطٍ صادق يعلم الإنسان كيف يقف بطريقةٍ أفضل. ولا تكره أحدًا. حتى الذين سيؤذونك. لأن الكراهية، مهما بدت عادلة، تترك في قلب صاحبها جرحًا أعمق من الجرح الذي أحدثه خصمه."

وأما أنتم...

فلا تجعلوا قصتي قصة رجلٍ عاش ثم مات.

فكل إنسانٍ يولد، ثم يموت.

لكن قليلين هم الذين يحاولون أن يجعلوا وجودهم هديةً للعالم.

إن الإنسان لا يُخلد لأنه عاش طويلًا.

بل لأنه جعل حياة الآخرين أفضل.

وقد لا يملك أحدكم قيادة أمة.

ولا أن يقود مسيرةً إلى البحر.

ولا أن يغيّر تاريخ وطن.

لكن كل واحدٍ يستطيع، كل صباح، أن يختار بين الحقيقة والكذب.

وبين الرحمة والقسوة.

وبين التسامح والانتقام.

وهناك...

في تلك الاختيارات الصغيرة التي لا يراها أحد...

يبدأ التاريخ الحقيقي للإنسان.

أغلقت دفترتي للمرة الأخيرة. لم يعد فيه صفحات بيضاء. كما لم يعد في العمر أيام كثيرة. لكنني لم أشعر أن شيئاً قد انتهى. فالكتب تنتهي. أما الأفكار... فتبدأ رحلتها حين تُغلق الصفحة الأخيرة.

وربما لهذا السبب، لم تكن حياتي في حقيقتها روايةً عن رجلٍ اسمه غاندي. بل كانت محاولةً للإجابة عن سؤالٍ واحد، سيظل يرافق البشرية ما بقي فيها إنسان:

هل يستطيع الحب أن يكون أقوى من الكراهية؟

لقد أمضيت عمري كله أبحث عن الجواب. ولم أجده في الخطب، ولا في السجون، ولا في السياسة.

وجدته في الإنسان.

حين يختار، رغم كل شيء، أن يمد يده بدل أن يرفع قبضته.

وحين يغفر، وهو قادر على الانتقام.

وحين يقول الحقيقة، وهو يعلم أن ثمنها قد يكون حياته.

هناك فقط...

يولد السلام.

وهناك فقط...

تنتصر الإنسانية.

المهاتما ...

